



شاعر الثورة الجزائرية
مفدي زكرياء

مفدي زكرياء فلاحي

بالتعاون مع مؤسسة
مفدي زكرياء

ENAG



EDITIONS

مصابر

إن مؤسسة مفدي زكرياء، وفاء منها للرسالة التي ارتضتها لنفسها، ما إنضكت عمل على التعريف بحياة شاعر الثورة الجزائرية وآثاره من خلال تنظيم ملتقيات علمية قامت بطبع أعمالها ومن خلال إصدار ديوان شعري ضمنته القصائد التي لم يدرجها الشاعر في الدواوين التي تولى إصدارها بنفسه.

يجدر بالملاحظة أن مفدي زكرياء لم يكن شاعرا فحسب بل كان مناسلا من أجل القضية الوطنية وهو ما جعل حياته تمتزج بتاريخ الحركة الوطنية الجزائرية منذ نشأتها وتواكب مسارها الذي مهد لإندلاع الثورة التحريرية بقيادة جبهة التحرير الوطني.

ودفع الشاعر المناضل ثمنا لالتزامه المتواصل من زهرة شبابه في الاعتقالات المتعددة في السجون الاستعمارية وكلفه ذلك مصادرة أملاكه وأعرها ووثائقه الشخصية ومخطوطاته.

ولذا سجلت "مؤسسة مفدي زكرياء" من بين أولوياتها التتقيب على آثار الشاعر المبعثرة في شتى أماكن ووجهت اهتمامها نحو العثور على الإنتاج النثري للشاعر، من مقالات ومحاضرات وأحاديث إذاعية ومراسلات... وكل ذلك يشكل الجانب المجهول لدى الجمهور الواسع الذي لم يعرف في مفدي إلا الشاعر الملهم دون الصحفي ورجل الإعلام بينما كان إنتاج مفدي زكرياء الصحفي غزيرا من خلال العديد من نشرات الصحافة العربية والمغاربية عامة والجزائرية خاصة ومن خلال إذاعات البلدان العربية والمغاربية.

فبالنسبة للحصص الإذاعية التي أنجزها مفدي زكرياء فقد استطاعت مؤسستنا، من خلال وثائق الشاعر التي نجت من التلف، وبفضل النصوص التي

احتفظ بها السيد عبد الحميد مهري وسلمها لأسرة المرحوم فكانت، استطاعت
للمؤسسة جمع عدد من الأحداث الإذاعية التي بثت عبر الإذاعة التونسية ومن
موضوع هذا الإصدار.

وما يمكن الإشارة إليه في أول وهلة هي أن المواضيع التي عالجهما مفدي
زكرياء في هذه الحصص الإذاعية تعبر بوضوح عن التزام صاحب "قصة" ومن
أبرز اهتماماته الشخصية وكان لكل من "تاريخ المقاومة الجزائرية" و"تاريخ
الصحافة العربية في الجزائر" وأضواء على وادي ميزاب ارتباط وثيق بحياة
المؤلف ومرجعياته ونضالاته.

فالمقاومة الوطنية الجزائرية كانت بالنسبة له البوتقة التي أنصهر فيها وعيه
الوطني المتطلع إلى الأفاق المغاربية والتي كانت المجال الأساسي لنضالاته طول
حياته وقد كلفه ذلك تضحيات جسام واتخذت هذه النضالات سبلا وأساليب
عديدة منها النشاط ضمن التيار الاستقلالي للحركة الوطنية الجزائرية
والمناظرات السياسية مع الأحزاب الأخرى بلهجة حادة أحيانا والمظاهرات الشعبية
والمهرجانات والعمل السري والخطاب الشعري والمساهمات الصحافية.

وقد سمحت له هذه الأخيرة إرتياد فضاءات التحرير ومعرفة مختلف الصحف
الجزائرية والعربية معرفة ميدانية إما كمساهم أو كخصم مهاجم، وأهم من
ذلك وذاك فقد أشرف شخصيا على تأسيس وإدارة جريدة "الحياة" (1933)
و"الشعب" سنة 1937 بعد أن بدأ نشاطه الصحافي مبكرا بإصدار صحيفة
"الوفاق" سنة 1925 بتونس وكان مديرها المسؤول السيد عبد العزيز بن يوسف
الشميني وكانت لها العام مفدي زكرياء الذي كان ينسخها كاملة بخط يده وقام
بإصدار صحيفة "الحياة" سنة 1933. ويعترف مفدي في مجال الصحافة بأنه مدبر
لبن سماء "شيخ الصحافة" أي الشيخ إبراهيم أبو اليقضان الذي يعتبر بحق رائد
الصحافة الجزائرية باللغة العربية إذ أسس وأدار ما لا يقل عن سبعة عناوين في
شرف عشر سنوات، نظرا لاختلافه ومساهماته الإدارية الاستعمارية وإجراءات

توقيف السلطة على هذه الصحافة التي كانت تبث من جديد مقلما احتلت
وهكذا أصرت على مواصلة مهمتها ورسالتها في سبيل شحن الهمم وإيقاظ
الضمائر من أهل القضية الوطنية وقضايا الشعوب العربية والإسلامية عامة
فضلا عن الاهتمام بالمسائل المتعلقة بوادي ميزاب بصفة خاصة، وقامت صحيفة
"وادي ميزاب" سنة 1926 بهذه المهمة التي وأصلتها العناوين الأخرى للمؤسسة من
طرف أبي اليقضان بمساهمة مفدي زكرياء.

(إنطلاقا من هذه الخلفية، يندرج تناول موضوع "أضواء على وادي ميزاب" في
سلسلة من الأحاديث الإذاعية تعرض فيها مفدي إلى تاريخ الإباضية في الجزائر
ابتداء من إقامة الدولة الرستمية، في تيهرت في القرن الثامن الهجري
واستقرارهم في وادي ميزاب إلى يومنا هذا. وقام بتقديم صورة دقيقة للنظام
الاجتماعي والنشاط الاقتصادي وعادات وتقاليد هذه المجموعة التي هي جزء لا
يتجزء من الشعب الجزائري وألقى عليها الشاعر نظرة العارف بخباياها والشاهد
المنتمي لبني جلدة والذي عاش في أحضانها، فكانت هذه النظرة فاحصة
مجردة من العقد بالمجاملات ومحفمة "للطابوهات" ومتحررة من أية عصبية
ضيقة لأن مجال انتماء الشاعر كان ضاربا بجذوره في مسقط الرأس وملا
جذعه على طول وعرض الأمة الجزائرية والتي كان تحريرها مطمح ومراد
حياته وعلى أفاق المغرب الكبير الذي كان يراود حلمه الوحدوي.

ومن هذا المنظور أصبح اختيار مواضيع هذه الحصص الإذاعية (محل
إصدارنا هذا) لا مناص منه لأنه يعكس مخزون تجربة حياة ثرية بالكفاح
والنضال والإبداع الشعري.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار الطرف الزمني لإنجاز هذه الحصص، أي
سنتي 1960 و 1961 لإدراكنا مدى ريادتها وكسبها لسبق معرفة تاريخ الصحافة
العربية في الجزائر وتاريخ المقاومة الجزائرية وكذا المعلومات حول وادي ميزاب
فكل هذه المواضيع كانت حينذاك محدودة التداول من طرف الأعلام الجزائرية

وإذا قدرنا الوضع المادي والشمسي للشاعر في تلك الفترة لتصورنا الجهد الذي بذله لإنجاز مثل هذا العمل في ظروف صعبة مليئة بالانشغالات والمناسبات المتعددة الأوجه.

تذكر أن الشاعر بمجرد خروجه من السجن في شهر فبراير 1959 صعد محل ملاحظة من جديد، من طرف مصالح الأمن الفرنسي التي لم تترك له ولو قليلا من الراحة اللازمة للتجرد من الأعباء النفسية والجسدية الناجمة عن المعتات الطويلة التي كابدها وراء القضبان، فما كان إلا أن يختفي من جديد ويواجه متاعب وأهوال مفاخرة التسلل عبر الحدود واللجوء إلى المغرب الشقيق ثم الانتقال إلى تونس حيث حظ الرحال والتحق بطاقم "المجاهد" (اللسان المركزي) لخدمة التحرير الوطني الجزائري. ولكن سرعان ما صدم بخيبة أمل إذ لم يحظ بالمكانة اللائقة له، بصفته من رواد الحركة الوطنية، له ماضٍ طويل في التمسك في سبيل تحرير الجزائر وقدم لأجل ذلك تضحيات جسام، فضلا عن كونه "شاعر الثورة الجزائرية". ولم تكن له العزيمة اللازمة لمواجهة تلك الصدمة إذ كان ملهك القوى من جراء معاناته في السجون الاستعمارية طيلة ثلاثة سنوات، وزاد الجو المتعكر في أجهزة الحكومة المؤقتة في النيل من معنوياته وقضى فترة طويلة من سنة 1959 يعاني من المرض والانهيار العصبي ولم يعاف إلا بفضل العناية والعلاج الذي خصه به الدكتور المناضل "فرنس فانون" PRANTZ FANON الذي كانت تربطه به صداقة مثيلة بدأت في الجزائر حين كان صهر الشاعر، الدكتور الشهيد إبراهيم ترشين زميلا لفانون في مستشفى البليدة.

وبفضل هذه العناية الخاصة استرجع مفدي زكرياء عافيته وواجه سنة 1960 بعزيمة قوية ونشاط داوب تجسد في إصدار العديد من القصائد في صفحات "المجاهد" وفي نشر عمود شبه يومي بعنوان "صباح الخير" في جريدة "الصباح" التي كان رئيس تحريرها الكاتب الهادي "العيني" من أبرز أصدقاء الشاعر وفي الحصص التي يخلط فيها الإذاعة الشعبية والتي جعلت نصيبا منها في إصداراته.

وبقي أن تجمع الحصص الأخرى التي لا تعرف عنها سوى المناوين الصراخ بين القديم والحديث في الشعر العربي أو "أنتم الناس أيها الشعراء" أو "اللهجات الشعبية عبر المغرب العربي" وخصص أخرى بثت في إذاعة الرباط، لتسعى جاهدين لجمعها وإصدارها مستقبلا.

واستطاع الشاعر والمناضل مفدي زكرياء تحقيق هذا الزخم من الأعمال بالإضافة إلى جمع المادة الشعرية لإصدار ديوان "اللهب المقدس" في ظرف عامين بين 1960 و1961، واستطاع القيام بهذا العمل المكثف بفضل مساعدة شاب جامعي تونسي، محمود صابر، الذي كان بمثابة ابنه واشتغل كتابا له ينقل ما كان يملأه عليه الشاعر من مراسلات ومقالات وقصائد.

ولا شك أن القارئ يلاحظ الأسلوب الشفوي لتس هذه الأحاديث الإذاعية التي تعد مساهمة قيمة ومرجعا هاما بالنسبة للمواضيع المعروضة، فهي غنية من الإنتاج الثري "لشاعر الثورة الجزائرية" الذي لم يعرف عنه الجمهور غير المتخصص سوى الإنتاج الشعري فالإنتاج الثري لمفدي زكرياء يستحق التعريف به لغنائه وتنوعه بتنوع الأغراض والمناسبات.

وتسعى "مؤسسة مفدي زكرياء"، في إطار جمع الأعمال الكاملة للشاعر، أن تساهم في إبراز غزارة وتنوع هذا الإنتاج الذي لم يقتصر على القصائد الشعرية بل يشمل المقالات والمحاضرات والتعليق والمراسلات. ولا شك أن النهوض بجمع هذه الأعمال ليست حكرًا على المؤسسة بل هي عمل جماعي يتطلب مساهمة الجميع لأن أعمال مفدي زكرياء تراث وطني وملك للجزائريين والجزائريين.

د. سليمان الشيخ

رئيس مؤسسة مفدي زكرياء

تاريخ المقاومة الجزائرية

مراجعة وتقديم

د. جمال قنات

إن شخصية الشاعر المناضل مفدي زكرياء متعددة الجوانب، فهو أولا شاعر الوطنية الذي صدح بالأنشيد الأولى للحركة الوطنية في بداية عقد الثلاثينات من القرن الماضي، وهي الأنشيد التي ردها الشباب في جميع مناطق البلاد في تلك الظروف الحالكه التي عاشتها الجزائر تحت وطأة الاحتلال. لقد كانت تجسد أملاً وتفتح فحوة ينفذ منها التور يضيء الطريق نحو مستقبل واعد وسط التفق المظلم الذي زج فيه الشعب الجزائري من طرف الاحتلال وإداراته الإجرامية لشئونه، فكتم أنفاسه وطمس شخصيته ليس أقلها ضررا عليه وعلى مستقبله. فمفدي زكرياء ينتفض ضد هذا الوضع ويرفضه رفضا كليا، وفي مقابله يبين طريق الخلاص من هذا الوضع المؤلم والتضحية التي يجب بذلها من أجل ذلك.

فداء الجزائر رُوحِي وَمَالِي أَلَا فِي سَبِيلِ الْحُرِّيَّةِ

فشعره هو عبققات قلب لمسار النضال الوطني عبر مراحل المختلفة.

الجانب الثاني من شخصية الشاعر هي تشيعة بالروح الوطنية المتوثبة التي عبر عنها في قصائده، ومن هذه الزاوية فهو الابن البار للمحيط الذي عاش فيه. فنشأته الأولى كانت في بيئة محلية متشعبة بروح العروبة والإسلام، فوادي ميزاب كان في عقد الثلاثينات من القرن الماضي، يمثل إحدى منارات الإشعاع الوطني الحضاري والتي حصرها إحدى تقارير مصلحة المعلومات في الولاية العامة، عند منتصف عقد الثلاثينات، في عدد لا يتجاوز سبعة مراكز في كامل القطر الوطني.

اتسعت مداركه وتعمقت وطنيته بانتقاله إلى تونس لمتابعة تعليمه واحتكاكه، وهو يافع، بقيادات الحزب الدستوري التونسي عن طريق أحد أقاربه الذي تكفل برعايته هناك.

فمنذ هذا التاريخ سجل حضورا مواظبا وبارزا في مختلف المؤتمرات واللقاءات الوطنية والفراتية ففي المقال الذي نشره "ديارمي" في نشرة "إفريقيا الفرنسية" لسان حال الحزب الاستعماري في فرنسا، حول المؤتمر الثاني للجمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين الذي انعقد في الجزائر في سنة 1932، خصص لمفدي زكرياء عدة فقرات في سياق تنبئ إدارة الاحتلال للزوح الجديدة التي تسري في عروق شباب المغرب العربي وهي الزوح التي عبرت عن نفسها في أحلى صورها في هذا المؤتمر. نفس الكاتب وهو المعروف بتبعه، وببساطة شديدة، لكل ماله صلة بموقف الأهالي من الاحتلال وحتى بما يتخلج في صدورهم من آمال، نشر مقالا في نفس المجلة معلقا على المؤتمر الإسلامي، مستغرابا: "كنا اعتقدنا أن الجزائر أصبحت فرنسية لتسيقظ فجأة مسلمة".

ساهم المرحوم في النشاط الثقافي الذي كان ينظمه نادي الترقى في العاصمة والذي كان أحد المناظر المشعة إلى جانب الصحافة الوطنية، التي كانت تحمل الأمل وتشر بمستقبل زاهر وسط الظلام الذي فرضه الاحتلال على ربوع الجزائر. لكن هذا النشاط لم يستوعب كل الطاقة الكامنة لدى مفدي زكرياء والتي دفعته لاقتحام ميدان الصحافة، وتسخير قلمه لخدمة القضية التي يؤمن بها. أمس حريدة "الشعب" نعية زميل له لم يصدر منها سوى عددين أو ثلاثة فإدارة الاحتلال كانت بالمرصاد لكم كل نفس لا يعجبها. كما نشر عدة مقالات في صحف أبي البظطان التي سجلت فصلا ملحما راعا من فصول التضال من أجل حرية التعبير حتى أن أحد الكتاب القريين من الولاية العامة وصف ما حدث في هذه المواجهة بين الصحف الوطنية التي تنصروها صحف أبي البظطان وإدارة الاحتلال بالهزيمة. لما شذت الأبواب في وجه قلمه في الجزائر التحا إلى الصحف التونسية حيث نشر عدة مقالات حول المؤتمر الإسلامي وحول أساليب القمع والتشكيل التي تمارسه إدارة الاحتلال ضد الشعب الجزائري.

انخرط في العمل الثقافي الهادئ في "مجمع شمال إفريقيا" وكانت له مواقف جنسية إزاء الاتحادات الاتحادية و"شروع قانون" "يوم قبلت" وهما المصطلحان اللذان سمى بهما الكاتب لادعاء في النصف الثاني من عقد الثلاثينات.

وهي نفس مواقف الحزب الذي يناضل في صفوفه والذي كان نشاطه محظورا منذ صدور القرار الأول بخله في سنة 1929.

كان من بين المؤسسين لحزب الشعب الجزائري وأحد قياداته. لقد عمل وزير انتماه حيث تم اعتقاله في شهر جويلية 1937 ومكث في السجن حتى شهر أغسطس سنة 1939. كما تم اعتقاله وتغريمه عدة مرات في المرحلة التالية والتي أعدها في شهر أبريل سنة 1956 حيث بقي في السجن حتى شهر فبراير 1959، تمكن من الخروج من الجزائر بأعجوبة ليتحق بتونس لمابعة نشاطه التضالي في إطار جبهة التحرير الوطني.

من مواقفه المشهودة هو دوره الفعّال في إطلاق نار الفتنة التي حاولت أطراف مشيوية إشعالها في سنة 1955 ضد فئة من التجار الجزائريين، مستخدما وصيغه الوطني. لقد تحقّق ما كان يريد ويريد كل الجزائريين: فالشعب الجزائري شعب واحد وحسم واحد غير قابل للتجزئة والتشتت.

يملك المرحوم ثقافة تاريخية راسخة ومتعمقة خاصة فيما يتعلق بالتاريخ الوطني، فملحمته "إلياذة الجزائر" تعبر عن هذه الميزة أصداق تعبير، فما يثير الانتباه حقاً هي رؤيته الموضوعية والتحررة من كل الشوائب التي أدخلتها مدرسة التاريخ الاستعماري على تاريخ الجزائر العام بعصوره المختلفة، فالعلوم التاريخية المتوفرة عن الجزائر في وقته هي من إنتاج هذه المدرسة ومع ذلك فقد استطاع التخلص من تأثيراتها ويرسم في هذه الملحمة، الخطوط العريضة لتاريخ الجزائر العام غير مقطّع بالأوصال كما رسمته هذه المدرسة، وإنما تاريخ متواصل الحلقات ومتكامل بين أجياله عبر مختلف العصور والفترات. لقد أعطى لنا صورة عن تاريخ الشعب الجزائري العميق متحيا للعاجلة التوقية التقليدية لهذا التاريخ والتي هي كالقشرة على ظهر الجلد سرعان ما تزول وتشر بفعل الحياة المنبعثة من الجسم.

ركزت مدرسة التاريخ الاستعماري جهودها بالخصوص على الفترة التي يطلق عليها اصطلاحا "العصر الحديث" التي تبدأ مع مستهل القرن السادس عشر الميلادي

حتى سنة 1830، وصورتها على أنها فترة احتلال وسيطرة أجنبية على مقدرات
الجزائر رغم الحقائق التاريخية التي تؤكد عكس ذلك، فهذه الفترة هي التي شهدت
قيام الدولة الجزائرية الحديثة بحدودها المعلومة ومؤسساتها وعلاقاتها الدولية ونظام
حكمها الشميز عن أنظمة الحكم في الدول الإسلامية الأخرى والذي عموره التدخل
على السلطة وعدم السماح بقيام نظام حكم أسري وراثي.

إن نظرة مقدي زكرياء لهذه الفترة، رغم ما يحيط بها من تشويه وإهمال
للحقائق تعتبر نظرة رائدة تصب في صميم الحقائق التاريخية كما أكدتها فيما بعد
الدراسات التاريخية الخادة، فهو يقول:

وَلَعَلَّ فِي تَرْوُوسٍ نَذَامَا
وَأَزْرَاكَ الشُّرُوكَ حَتَّى تَصْرُوكَا
وَقَمْنَا لِسُومِ الْبِلَادِ بِغَدَل
وَلَمْ نَكْ لِلشُّرُوكِ بِالسَّابِعِينَ
وَتَحْنُ أَسْرُ نَعْدُ الْخَبِيلَ
وَقَطَّ الْمَرْحُومُ ثِقَاتِهِ التَّارِيخِيَّةَ الْوَاسِعَةَ فِي نَشَاطِهِ التَّضَالِّيِ أَثْنَاءِ الثَّوْرَةِ
الْجَزَائِرِيَّةِ، فِي الْحَدِيثِ الَّذِي عَصَرَ بِهِ "صَوْتُ الْجُمْهُورِيَّةِ الْجَزَائِرِيَّةِ"، الَّذِي كَانَ
يَتَّ مِنْ الْإِذَاعَةِ الْفَرَنَسِيَّةِ، حَوْلَ الْمَقَاوِمَةِ وَالْكَفَّاحِ السِّيَاسِيِّ حَتَّى الْاِحْتِلَالِ. وَهُوَ
الْحَدِيثُ الَّذِي يَتَّ فِي شَكْلِ الْخَلَقَاتِ الَّتِي بَيْنَ أَهْدَاءِ تَقْلَافٍ عَنْ أَوْرَاقِ الْمَوْلُفِ وَيَخْطُ
بِهِ حَسَبَ مَا أَكَدَهُ لَنَا الدُّكْتُورُ سَلِيمَانُ الشَّيْخِ. يَلَاخِظُ الْقَارِئُ أَنَّ الْخَلَقَةَ الْأُولَى
الَّتِي بَشَتْ فِي أَوَّلِ شَهْرِ جَوَانِ 1960 غَيْرَ مَوْجُودَةٍ، فَهِيَ فِي حَكْمِ الْمَقْشُودَةِ، وَلَكِنْ
يُمْكِنُ أَنْ نَسْتَشْفَ مَوْضُوعَهَا فِي السِّيَاقِ الْعَامِ لِلْخَلَقَاتِ الَّتِي تَلَتْهَا وَبِالْإِثْبَاتِ فَيُمْكِنُ

1- هذه الفقرات الأيات 333 و 337-340
2- التوضيح: توسع حول حياة المرحوم مقدي زكرياء وأعماله الفكرية والفنية
التي كانت لها أهمية بالغة في تاريخ الجزائر الحديث
حول حياة المرحوم مقدي زكرياء في الجزائر
www.moudi-zakaria.com

اعتبارها كمدخل عام للموضوع ككل والذي يتوقف عند أحداث شهر ماي
1945 المولدة.

حرص مقدي زكرياء على أن يقدم للمستمع خلاصة مركزة عن المقاومة
السليحة وعن الكفاح السياسي وكذلك عن الآثار الضارة التي لحقت بالشعب
الجزائري من جراء التسيير الإجرامي لشؤونه من طرف إدارة الاحتلال، مبتة على
وقائع صحيحة لا مبالغة فيها ولا تحييج، متدرجة حسب تسلسلها الزمني، فهو لا
يبالغ عندما يقول إن هزيمة الجيش الجزائري في معركة اسطاوالي (19 جوان 1830)
كانت نكبة حقيقية لم تتوقف آثارها عند حدود الجزائر وإنما امتدت إلى عموم
الأقطار الإسلامية المتوسطة وإلى الدولة العثمانية التي فقدت كل ممتلكاتها الأوربية
في البلقان. وعندما يتعرض للحرائم التي اقترفها الجيش الفرنسي ضد المدنيين العزل
فهو يدعم عرضه بما كتبه الفرنسيون أنفسهم، في استعراضه لألية التفجير وزرع
البؤس وتسليط القهر والترهيب على أفراد المجتمع لا يتكلم في فراغ وإنما يستند
على نشرعات وإجرائات ملموسة عان منها الشعب الجزائري على امتداد عهد
الاحتلال حتى تمت تصفيته.

خصص المرحوم شاعر الوطنية والثورة جزءاً من حديثه لاستعراض الخطوط
العريضة للكفاح السياسي والذي بدأ بما سماه بـ "المقاومة القلمية" إشارة إلى
حمدان بن عثمان خوجة وكتابه "المرآة" الذي صدر في سنة 1833، كما أشار إلى
بعض الصحف التي صدرت قبل الحرب العالمية الأولى.

في حديثه عن تحيد الجزائريين في الجيش الفرنسي وتسخير عشرات الآلاف
منهم ونقلهم للعمل إجبارياً في فرنسا فهذهين الموضوعين هما من الموضوعات الشبه
المعلقة أثناء عهد الاحتلال لا يجوز التطرق لها، فالرقم الذي أورده عن عدد المختدين
الجزائريين الذين شاركوا في العمليات القتالية على مختلف الجبهات والذي هو
أربعمائة ألف يحد يحد على حربه على إبراز الحقيقة بالقدر المستطاع مع أن

1 - ملحة من الإطلاع، دراسة كتاب "مراجع الصحافة العربية في الجزائر" لمحمد بوقند

الأرقام التي أوردتها المصادر الفرنسية هي أقل من هذا العدد بكثير، وهو من ناحية أخرى رقم يقارب العدد الذي اعتمدته الأمير خالد وهو المتبع الدقيق لهذا الموضوع والذي هو نصف مليون مجند.

إن عرض الشاعر للكفاح السياسي بدء من منتصف عقد العشرينات من القرن الماضي هو عرض شاهد عايش هذه الفترة، متبعاً لأحداثها وفاعل في بعض منها، يتسم بالاعتدال والاعتزان حتى في موقفه المناوئ للمؤتمر الإسلامي خاصة في طبعته الثانية (1937)، فموقفه من جمعية العلماء كان موقفاً مثزناً، ففي الوقت الذي لم يتبد مشاركتها في هذا المؤتمر حرص من جهة أخرى على إبراز المبررات التي دفعتها للانخراط في هذا التجمع في نفس الوقت الذي يدين فيه الانتهاجين، الاستعماري والشيوعي اللذين يعتبرهما خارج الموضوع الذي يشغله: حرية الوطن واستقلاله.

د. جمال قنان

تاريخ المقاومة الجزائرية

العدوان على الجزائر:

نعم اصطنع الفرنسيون خرافة المروحة لتدبير اعتدائهم الوحشي على شعب حُرٍّ كريم، وحلق "شارل العاشر" السِّفاح وسيلة لتحويل موجة الغضب الفرنسي الحارفة ضد نظامه الاستبدادي ونجح في قذف العاطلين الفرنسيين في حرب صليبية لا تبقى ولا تذر وظفر باستفزاز الشعور الديني لدى رجال الكنيسة حين وفق حطياً يوم 2 مارس سنة 1830: "إن العمل الذي سأقوم به لترضية شرف فرنسا سيكون بإغاثة الكنيسة لقائدة المسيحية جمعاء".

فماذا كان أعد "شارل العاشر" من القوات المسلحة للمهجوم على الجزائر؟ وطعننا من الخلف يوم كان أسطولها متغياً في واقعة تافارنان، شأن الحياء الأندلس الذين لا يشعرون غير الطرق المسافرة الوضيعة مخاربة حصونهم.

إنه هباً في الخفاء وفي مدة طويلة قبل حادثة المروحة، هباً أسطولاً ضخماً يشمل نحو 130 من السفن الحربية تحمل نحو ثلاثة آلاف مدفع و34.000 مقاتل مع 383 سفينة لحمل المتونة والذخيرة وهذه الإحصائية نقلناها عن كتب مؤرخيهم، وشهد شاهد من أهلها.

وقد كان الحاسوس الفرنسي الخطير "بوتان" رسم خطة استراتيجية لاحتلال الجزائر من أيام الإمبراطور "نابليون"، وهي المخطط على شبه جزيرة "سيدي فرج"، فما كان لـ "شارل العاشر" إلا أن نقلها، ولم يكن الديوان غافلاً عن الأعمال التي كان يهيئها الفرنسيون، خلافاً للشواهد الشائع في كتب التاريخ التي لا تتحرى الحقيقة بل إن الجزائريين قد استعدوا للمقاومة، وقرروا برايتها فأعلنوا شبه

الحرية التي كانوا يعلمون أن الفرنسيين سيولون لها ثم بادروهم بالمحوم إثر ذلك
المرمي لهم في البحر والاستحواد على كل ما بينهم، وهي لحظة من أحكم المخط
الحرية الحديثة.

ولقد أخذت جموع الجزائريين المجاهدين تحتل مراكزها حوالي "سيدي فرج"
ثم نزل الجند الفرنسي الغاصب يوم 13 يونيو سنة 1830. أما الجند الجزائري فقد
أقام الفرنسيون وألحق بهم قاذح المسائل في الأرواح والعتاد، وكاد أن يرمي بهم في
البحر من حيث نزلوا، لولا أن فرقة عسكرية بقيت وراء الصفوف، وخافت أن
يقتل عليها، فصعدت وأخذت تصيح وتستغيث وتشير لمعظم الجيش، وهنا
ارتكب أحد قادة الجيش الجزائري غلطة فنية كانت القاضية على جيشه وبلاده
فقد قطع خط الرجعة عنه، فتقهقر كمي لا، يُخدقوا به، وكان في تقهقره الضربة
الأصلي، وانغصمت فرصة الاضطراب الذي وقع في الصفوف للاستيلاء على
معسكر "اسطوالي"، ولقد كان لازماً على الجند الجزائري أن يستسلم، فكانت
هذه المعركة من أكثر المعارك الحاسمة في التاريخ وكانت نتيجة هذه الهزيمة أن
اضطرت الجزائر "العاصمة" للاستسلام ودخلها جنود فرنسا صبيحة يوم 05 يوليو
سنة 1830، وذلك اليوم الأسود الذي ما لبك الجزائريون بعثروته يوم حداد، يوم
المادة بالتأثر، وغسل العار وبشبهون فيه في أعلى الجبال:
إن كان يوليو في الشهر كذا

فصبيح يوليو في الشهر كذا

وكانت أول مظاهرة عليّة قام بها الشعب الجزائري في إشهار أنفسهم
وحداهم هذه الذكرى المؤلمة هو يوم 5 يوليو 1956 حيث أعلن الشعب في سائر
حيات القطر الجزائري الاعتصام العام فلم يشد من القوي أحد ثم شارك في
هذا الحدا الوطني رغم إدار السلطة الفرنسية وقبضها إثر إزال حارم العقاب على
الضريين.

ومن ذلك العهد أصبحت تعدّ مظاهرات الحدا لبوم 5 يوليو من كل سنة،
وقد قام بإحيائها حتى المساحين في أعماق السجون، والمشرّدون في مختلف
المحشّات والمعتقلات.

لم يحترم الفرنسيون عهودهم باحرام الأشخاص والحريّات العامة،
والمعتقدات بل اندفعوا في همجية جنونية، وهشيرة وحشية، يهبون ويسلبون،
ويحرقون ويخرّبون ويستهكّون الحرمات، واشترك في الاخلال والصوصية كبارهم
وصغارهم، رؤساؤهم وعامتهم، فسحلوا لفرنسا صفحة خزي وعار لا تمحي أبد
الدهر تلك الصفحة السوداء التي حاووا ليعيقوا إليها صفحات أخرى أشدّ سودا
في الحرب الجزائرية الأخيرة. ولنا بحاجة إلى التليل على ذلك، فطرة واحدة إلى
ما كتبه مؤرخوهم تكفي لإقامة الرهان.

ومن الغلط القول بأن احتلال فرنسا للجزائر كان نكبة على شعب الجزائر
وحده، بل إنه كان نكبة على الشرق بأسره، وعلى الحرية في أسس معانيها، وعلى
القارّتين الإفريقية والاسبوية على السواء. إن احتلال فرنسا للجزائر كان أول نغمة
فتحها الاستعمار في بلاد العروبة بأفطار البحر الأبيض المتوسط، ولم تستطع القول
العربية والإسلامية أن تحرك ساكنا أمام ذلك الحادث العظيم، فالقولة العثمانية
صاحبة السيادة الإسمية على القطر الجزائري كانت "الرجل المريض" وكانت
الحروب الفسّاقة التي يشتها عليها حيوها الروميون قد لمكت قواها، ثم إن معركة
"نافاران" التي حطّم فيها "الإنجليز" و"الفرنسيون" و"الروس" الأسطول العثماني
والجزائري والمصري، كانت قد أصابت الدولة في الصميم، وسلحت عنها بلاد
اليونان.

أما البلاد المصرية فكانت تحرق يومئذ مغامرات محمد علي، وكانت سياستها
تجامل الدولة الفرنسية إلى حد بعيد، تكتابة بالدولة الإنكليزية وحرّبا وراء التوسع
والاستقلال.

أما تونس والمغرب الأقصى فكان شعف الدولتين الحسّية والشرقية لا يكاد
يمكنها من حفظ الأمن الداخلي فضلا عن التدخل للقائدة الجزائر ومدّ يد المساعدة

للمتأصلين الجزائريين، أما دول أوروبا فقد اكتفى بعضها بالاحتجاج وإثارة العنصرية في وجه فرنسا بصفة فائقة كـ "إنكشرا"، لا لسواد عيون الجزائريين بل حسنة ومناقضة لفرنسا في الاستعمار، بينما أبدى معظمها ابتهاجه بهذا النصر الأول الناجح في بلاد الإسلام.

فماذا كانت نتيجة كل ذلك يا ترى؟

كانت النتيجة أن فرنسا أخذت تركز توكيد لتونس وتثير فيها القلاقل إلى أن تمكنت من احتلالها عام 1881.

وكانت النتيجة أن الاتفاق الذي عقد بين فرنسا وإنجلترا والذي سمح باحتلال تونس قد جعل الإنجليز يستبدون بالمر مصر، ويتآمرون على استقلالها، ويدعمون حبسها في القلعة ويحتلوها فعلا سنة 1882.

وكانت النتيجة أيضاً، توغل فرنسا في صحراء إفريقيا، وتخطيمها للصعاليك الإسلامية المستقلة فيها، ومحاولة احتلال جنوب وادي النيل، كما تشهد بذلك حادثة "فاشودا".

وكانت النتيجة، استيلاء إيطاليا على وحيثما قضت على قطري طرابلس وبرقة ومحاولة حمل العروبة والإسلام والوحدة فيها.

وكانت النتيجة، استمرار طابع كامل القسم الأول من السلطة العثمانية في حرب البلقان، ثم تغير هذه الصورة لاحتلال الحرب العامة الأولى، وسقوط العراق تحت انظار الإنجليز، وسوريا ولبنان تحت انظار فرنسا، ووقوع فلسطين الشهيدة في الشكة التي أدت إلى تكتيتها السوداء، ونكبة العرب معها.

فقدور هذا السرطان الاستعماري قد امتدت كنفها من احتلال مدينة الجزائر، وهي الخرطوم الشامة القاتلة لفرنسا، وكان مبدأ هذه التكتيات كلها يوم 5 جوان 1830.

وقعت الواقعة، وأصاب الجزائر ما أصابها من وهلات الاحتلال الفرنسي العنصرية، لكن هل استكانت الجزائر لما أصابها على يد المحتلين الغلاظ الأكباد القساة القلوب، المجردين من الضمائر الحرة، وهل استسلمت لسيف جلاذيتها؟

كلا، إن مراحل تاريخ الجزائر بعد ذلك اليوم الحس كانت بطولية لم يشهدها العالم لها مثيلاً، وكان تاريخ الكفاح طويلاً والتضحية مستمرة، والمقاومة عنيفة لم تغتر ساعة من ليل أو نهار فكانت أحياناً حربية قاسية ذات وقائع وأهوال ودماء ونار، وكانت قلعية سياسية تارة أخرى، واستمر هذا الكفاح المجيد كذلك قرناً وربع قرن ما انفك الاستعمار يقوم بمحاولات بالسة لتخطينها والقضاء عليها، يصيبها كل يوم بضريرة جديدة، دون أن يتوصل للقضاء على روحها الأبية، ودون أن ينال من كيانها العربي الإسلامي أي منال إلى أن طلع الكيل، ودقت ساعة الفجر وهبت رياح التحرير التواقح على العالم فحرمت الأمة الجزائرية أمرها وقامت إلى ثورة عارمة لا تزال تندعش الدنيا لوقائعها ولا تزال تسجل بدمائها صفحات الروعة والجلال في ميدان البطولة الواجبة، والقداء المجيد فكانت المقاومة تشغل الراحين الشرقي والغربي. فإنه ما كاد ينتهي أمر الديوان بمدينة الجزائر ويساق الباشا وكبراء الضباط إلى المنفى حتى هبت الأمة الجزائرية عن نكرة أبيها تُظلم المقاومة السنية وتتنادى بالجهاد، وتقيم في كل جهة، في حياتها وسهولها معاقل للذلال.

وقد اكتست المقاومة الأولى شكلين شكل المقاومة الرسمية الحكومية، وشكل المقاومة الشعبية.

مقاومة الأمير عبد القادر:

ففي سنة 1832 عقد وجوه القوم ورؤساء العرب مؤتمراً وبادعوا بالإمارة شاذي في الرابعة والعشرين من عمره، عُرف بينهم بالحقوة والشهامة وشدة الشكيمة، والرأي الخفيف، وهو الأمير "عبد القادر بن الشيخ عيسى الهاشمي"، على أن يؤسس فيهم دولة إسلامية عربية تصون الأمن وتوطد العدل داخل البلاد وتحارب

الفرنسيين الغاصين، فصنعهم عن هاتيك الأقطار أولاً ثم ترمى بهم خارج البحر
أحراراً.

وإن المورخ التزبه ليقتل موقف الحيرة والذهول أمام هذه العبقرية الفنية التي
عظمت شأنها في مقتل العبر، عدم التجربة، خيال من الثقافة الحربية ينظم دول
فيحسن تنظيمها، ويدون دواوينها ويضبط شؤنها، ويسك نفودها، ويربط لها
علاقات دبلوماسية مثبته مع الخارج.

وتكرر دعائها ويكتب لها الأصدقاء والأمناء ثم هو إلى جانب ذلك ينشئ
حيثما نظاماً على أحسن طراز وكثاب من المتطوعين الفدائيين ويرتب ذلك
الجيش وتلك الكثاب بحكمة القائد المدرب الخبير، يسلمه فيحسن تسليحه، ثم
يحسن القيادة العسكرية بنفس المهارة التي أحسن لها القيادة المدنية، فيؤثر بحبسه إلى
كل البلدان، ويلحق بالأعداء أنكى الضربات وأقساها، ويتحمل ضربات مصر
وحده، ولقد جهزت فرنسا ضد أعظم قواها، ورمته بأخطر قادتها العسكريين،
ولولا تفوق عظيم في العدد، وتفوق عظيم في السلاح لما نالت منه مثلاً، إنها والله
لمعجزة من معجزات التاريخ - لقد شملت فترة الحرب عدة معاهدات عقدتها
فرنسا مع الأمير، واضرت له فيها بالاستقلال والسيادة على البلاد التي نصّب فيها
دولته لكنها - كما هو المألوف من فرنسا - كانت معاهدات غش وخداع، لا
تنحى إلى عقدتها إلا متى احتست بالخطر أو أرادت أن تستعد لضربة قاضية من
وراء، أما الأمير فقد كان يفضي تلك المعاهدات ليسير به قليلاً ويستعد للطوارئ.

ففي سنة 1840، اضطرت ليون للمارك الكري قاسية قطيعة، واستعمل فيها
الفرنسيون أسلحة وأضغ ما يستعمله عدو مستعمر ضد بلاد لدافع عن كيلافها،
وتلويود عن حياتها، إقامة جماعة، وإطلاق المدن والقرى، وحرق المزارع
والغابات، وسفد الناشر على سكانها وإسروا التوان في السوت والأكواخ
والهناك الحرمات بقبلة تحمل القلم عن ذكرها، ولوضعية سائلة، وحلب ولحم
لا يبق إلا يوحوش بن آدم.

واستمرت الحرب على هذه الحالة إلى أن مات في الأمة العزلاء أكثر من
تصنها، وأراد سلطان المغرب "مولاي عبد الرحمن" الاستعانة للشعب الجزائري
فأعلن الحرب بدوره على فرنسا، وأرسل جيشاً لإغاثة الأمو لكن الفرنسيين هجروا
ذلك الجند في معركة واحدة، "معركة بسلي" وضمروا بالقابل بعض مدن المغرب،
فأسطر السلطان لعقد الصلح وتعتد بعدم إغاثة الجزائريين ووقع ما لم يكن هناك
بد من وقوعه، فأمام قوة الجند الذي وضعت فيه فرنسا كل إمكاناتها، وأمام
القطائع والأهوال وإحراق القبائل العديدة أحياء بواسطة التوان، وأمام القراج
العظيم الذي حصل في صفوف الأمة، لم يسع الأمر عبد القادر (بعد استشارة
رحاله) إلا الاستسلام يوم 23 ديسمبر 1847، فسق مع أهله وذويه ووجوه دولته
أسراء وبقي خمسة أعوام بفرنسا إلى أن أفرج عنه وسير به إلى بلاد الشام حيث
استقر وترك هو وأتباعه هناك خلفاً كبيراً.

على أن المقاومة لم تتوقف باستسلام الأمر وإن هي انتهت بالقسوة المنظمة
فحسب، كانت المقاومة الخفية تواصل من جبال الشمال إلى رمال الصحراء وما
احتل الفرنسيون شراً من الأرض الجزائرية إلا وقمعوا منه غالياً من حومهم القسوة،
ودماهم التحية.

فرحك الله أنها الأمير السطى في الخليلين، وجعل ذكرك عنواناً ليقم الجهاد
الحرري في هذا الوطن الغالي الذي حب يواصل حرماً بهاكها بشجاعة وإخلاص
وامتدت معك إلى يوم الوعد الحق والفتح الموعود.

إذا ذكرنا شاربج أبطال أمة	تجر ليذكرك الزمان وتسلط
وإن لذكر الثبا زعيمنا مختلدا	فذلك في الدنيا الزعيم المختلدا
أمرت على العاقين حرماً ولم تسزل	فكأنهم على كمالهم وتولدا

وَسَطَرْتِ لِلْأَحْزَانِ بِالسَّيْمِ غَابَةً

فَمَا حَمَلَتْ نِيرَانُ حَرْبِكَ لَحْظَةً

مِنْ التَّوَرَّةِ الْكَثْرَى دَلَعَتْ لَهَا

فِي كُلِّ فُجٍّ فِي الْخَزَائِرِ رَسْمَهَا

لَهَا كُلُّ نَوْجٍ فِي الْخَزَائِرِ قَيْمُهَا

فَتَمَّ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ قَاتَا

لَقَدْ هُنَا الشَّعْبُ أَكْظَمُ قَائِدِ

حَبْلِكَ التَّوَرَّةِ التَّائِدِ فِي السَّوْفَى

وَحَبْلِكَ عِنْدَ الْقَاهِرِ الْيَوْمَ طَبْرُ

وَلَقَدْ هُنَا الْخَطَرُ مَتَابِعُ

فَتَمَّ فِي جَوْرِ لَهْ لَوْ أَنَّ عَشَا

لَهَا الْمُهْجُ الْحَسْرَى طَرِبَتْ مُعْزَا

وَهَبَّتْ بِسِرَّانِ الْخَزَائِرِ لَحْظَةً

وَمَا قَبِلَتْ أَشْكَالَهَا لَحْظَةً

وَفِي كُلِّ شَبْرٍ بِالْخَزَائِرِ مَشْهُدُ

وَكُلُّ قَوَادٍ فِي الْخَزَائِرِ مَقْبُ

بِرُوحِكَ لَا سِتْقَانَا تَصْعَدُ

فَتَمَّ لَهْ الْأَرْوَاحُ تَرْوِي وَتَشْهُدُ

لَشَيْءٍ لَقَبَهُ الرُّمَانُ وَتَشْهُدُ

لَحْظَةً هَامَاتِ الْعُلُوفَةُ وَتَحْصُدُ

وَمَقْرَنُكَ الْغَيْسُ قَطْرَ مُوَحَّدُ

وَتَوَلَّاهُ فِي دَارِ الْمَقْشُودِ مُخْتَصِدُ

أُضْرَتِ سِيَّاسَةُ الْقَهْرِ وَالْخَطْبَةِ الَّتِي صَبَّحَتْهَا فِرْسَا فِي حَرْبِ الْحُرُوفِ الْأَوَّلِ إِلَى
تَسْلِيمِ الْحَاكِمِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْقَاهِرِ الْخَزَائِرِيِّ يَوْمَ 23 دَيْسَمَرِ 1947 بَعْدَ سَاعَةِ عَشْرِ عَشَاءًا

كاملة في المقاومة الصامدة المعلومة بالبطولة والاستشهاد وعممت فرنسا أماليها
الوحشية قصد إخماد نار المقاومة الجزائرية التي ما انفك يضطرم شعورها رغم
استسلام الأمور.

مقاومة الحاج أحمد باي:

أما المقاومة الحكومية فقد تولى أمرها بالناحية الشرقية "الحاج أحمد باي"
قسنطينة الذي بايعته الناحية الشرقية "باشا" والتف حولة رجال الأمة من عرب
ومن بقايا الأتراك، وكانت له مع الحشد الفرنسي وقائع مشرفة، وطالت الحرب بين
الأمة والغاصبين في تلك الجهات الشرقية والجنوبية وذاق الفرنسيون من بأس الأمة
وشدة مراسيها ما سجله تاريخهم ولا يزالون يذكرونه إلى اليوم، لكن القوة والكثرة
تغلبتا على المقاومة الشعبية التي لم تلق أي مدد خارجي وكان احتلال "لا موسيار"
لمدينة قسنطينة يوم 14 أكتوبر سنة 1837 إنذاراً بنهاية حركة المقاومة المنظمة، فأمر
أمرها طاهراً، وبقيت كالتار تتأرجح تحت الرماد، وقد سجلت قسنطينة بدفاعها
المستعصم صفحة ناصعة من صفحات البطولة، إذا اضطرو الفرنسيون لاحتلالها
حارة فحارة وداراً فداراً وتكبد الجزائريان في هذه الملحمة خسائر فادحة جداً.

إلا أن أرواح مثلي من المقاومة الشعبية قد طربه أهل الناحيتين الوسطى
والغربية من قطر الجزائر، إذ لم تكن هنالك سلطة تقليدية، ولا بقايا نظام إداري،
بل كان كل شيء حديثاً، وكان كل شيء متكرراً.

إن ذكر تفاصيل حرب الإبادة التي باشرتها فرنسا ضد الجزائريين لا يتسع له
مجال أحاديثنا المختصرة، وعلى سبيل المثال نورد على المستمع الكريم بعض
الشهادات والوثائق التي ذكرها الفرنسيون أنفسهم ليرى أن الطريقة لم يزل، وأن
الوسائل الإجرامية التي كانت تلجأ إليها فرنسا في عهد الاحتلال هي نفس الوسائل
التي باتت تستعملها في حرب التحرير والاستقلال، وأن الاستعمار مهما
تعددت أشكاله وتنوعت أسلحته فهو لا يقيم وزناً للإنسانية ولا يحرف بالتل
عليها، ولا يندى له حين أمام الفضيلة الفديحة والشرف الإنساني المثلث.

فضائح فرنسا والجرائم الوحشية التي ارتكبتها بالجزائر:

يقول المؤرخ كريستيان في كتابه، "إفريقيا الفرنسية": "تلقى القائد العام من قبله من مدينة الجزائر ليلة 16 أبريل 1832 رسالة من قبيلة العوفية عند البحر وهي نائمة تحت حيامها، وأمر في ذبح أولئك المساكين الذين لم يستطع أي واحد منهم الدفاع عن نفسه، وهكذا وقع قتل كل نفس حية في القبيلة دون أي تميز بين جنس وسن وعبد الرّجوع من هذه الحملة المصممة (حسب تعبيره) كان الفرنسيون يعملون رؤوس القتلى على أسس رماحهم".

ويقول المؤرخ شاتقاري: "لقد كانت التسليحة الوحيدة التي أستطيع أن أسمع بها للسيد أثناء فصل الشتاء هي السماح لهم بغزو القبائل الهاذية التي تسكن فيما بين وادي الخرس وبورقيقة والإمغان في إبادتهم قتلا وذبحا وحرقا".

ويقول المؤرخ فيروزاد في ذلك ما نصه: "أما الغنيمة من الحيوان فقد بيعت إلى مثل فضيلة التاموك، وأما بقية الغنائم الضاممة فقد غرقت للبيع في سوق باب غزوة، وكان من بين الغنائم أسود ساء وهي لا تزال عالقة بأيديهم المقطوعة، والرايات ساء لا تزال تتصل بها قطع من أذنين البقرة، ثم ورّع لهم كل ذلك على السفاكين من رجال الطابور الفرنسيين وفي ذلك اليوم أصدرت السلطة أمرها لسكان الجزائر المسلمين بأن يظفروا حوائطهم ليلاً لإظهار أسرارهم بذلك الانسحاب".

أما حديث حرق الكهف الذي أوتت إليه قبيلة بأسرها سنة 1845 فآفة أمام القائد الفرنسي فقد حارب مشرب الأمان في الغنية والثروة والوحشية. إذ ما كاد ينقلب ويقتسم ويقتل لم أبق فيها الثروة حتى وضع أمامه وعلى مداخله أكواما من هذا هذا الصالح ودخل الكهف حتى كانت حلت 780 من الضحايا البرية من الرجال والنساء والأطفال. ملكة الأوصال وبمكة الأضواء تحت أقدام القنصل والحيوانات التي ألقوها حرقا ثم حرقوا جثثهم كل شيء ثم ألقوا جثثها.

ومن أقطع ما شوهد داخل الكهف رجل أسلم الروح وهو متمسك بقرن أحد القنصل دفاعا عن امرأته وحبيته، وقد مات الرجل والمرأة والصبي والقنصل وهم على تلك الوضع.

ولقد قال أحد مؤيديهم "سالت أرنو" في كتاب مطبوع تحت اسم القضاة الفرنسي (وشهد شاهد من أهلها) فقال: "لقد كنت أستطيع مع جندي قنصل القائد العام دون أن أحل الطريق لأني كنت أسير على ضوء الخرائط التي كان يولدها في القرى والمدن والتواوير العربية التي كان يحررها قبلي".

إن الوثائق والشواهد لكتوبة حقا بقلم الفرنسيين وفي كتب طبعوها ونشروها بشرها ما بين سنتي 1830 و1850. ولقد سجلوا فيها أبشع صفحات الخزي والعار والمظارة والخيانة والاستهتار بالنفس البشرية والكرامة الإنسانية والنجم هذا الحديث عن تلك القضاة هذه الحملة المنقطعة من تقرير لجنة البحث الرسمية التي بعث بها ملك فرنسا لإطلاع البرلمان على حقيقة ما وقع في الجزائر من مظالم، وذلك في نوفمبر وديسمبر 1833، حيث قال: "... إنما قد ضمتنا إلى ممتلكات الدولة - سائر عقارات الأوقاف الإسلامية - ووضعنا تحت الحجر ممتلكات طائفة من السكان تعهدنا لها باحترام أشخاصها وممتلكاتها، بدأنا أعمالنا في ميدان السلطة بمظلمة ألا وهي: إرغام الناس على المشاركة في قرض إحصاري (100,000) فرنكا، واستولينا على ممتلكات خاصة دون أن ندفع مقابلها أي تعويض بل قد أحرقنا في كثير من الأحيان أصحاب الديار الأصليين على دفع نفقات تهدمها، كما أحرقناهم على دفع نفقات تعليم مسجد السيدة بعاصمة الجزائر، وقد اعتدينا دون أي مراعاة على حرمة الأضرحة والزوايا والساحد وعلى المنازل الخاصة التي تعتبر مقدسة عند المسلمين، وقد ذبحنا جماعة من الناس كانت تعمل حوارات مرور متميزة تحتنا وقد بدأنا في ملابح عامة، فحرق الشك في طوائف عديدة من السكان تبين فيما بعد أنها كانت بريئة مما ألهمناها به، ولقد حاكمنا جماعة من وجوه القوم وأشراف الأمة ورجال الصلاح فيها ما كان لهم من ذنب إلا أنهم تقدموا أمام بطشنا يسألونا الرقن والشفقة والرحمة بأنباء البلاد المساكين فلقد وجدنا حكاما منا يصيدون

الأحكام بأعدائهم، ووجدنا جلاّدين منا يقومون بتنفيذ تلك الأحكام. إن أعمال الوحشية أولئك للتوحّشين الذي جفنا لتمدّينهم".
كل هذا وقع قبل فظائع السنوات الحمراء 1840، وما يليها.

قال أحد نواب فرنسا أثناء مناقشة هذا التقرير: "إننا قد ارتكبنا ذنبا (سجل مذخرات مجلس الأمة الفرنسي).
هذه الوسائل الوحشية كان الفرنسيون على يد جيش الاحتلال بفرنس

ويذكرون ويهينون ويسلون ويوتكبون أسوأ الموبقات قصد إذلال الشعب الجزائري. وحمله على الخضوع والرضى بما ليس فيه يد.

هل أقوى الشعب الجزائري أو الكسر أمام هذه الوسائل السافلة؟ لترك التاريخ يحدث والشاهد في حلقنا المقبلة كيف أنّ هذه المظالم كانت بمثابة النار لم تزد إلا اشتعالا والدلائل وقت كلمة رتلك الحسنى على الجزائريين بما صبروا وكافحوا ودحروا ما كان يصنع الجند الفرنسي وقومه وما كانوا يمشون.

استيطان الفرنسيين.

ما كانت تسطر لقدام الجند الفرنسي بعض جهات البلاد الجزائرية رغم المقاومات والخروب المستمرة حتى أصبحت سياسة حكومة فرنسا تتبلور حول هاتين:

- الأولى: إقطاع الأرض للفرنسيين والإبقاء على عدد منهم للبلاد حتى تسمى صحتها العربية الإسلامية وتعود أرضها لأبنية مسيحية.
- الثانية: حكم البلاد حكما مباشرا لا عمل لأهل البلاد. وقد أضحى منهم الكثير كانت لحكم يدي في يده بواسطة جيش الاحتلال وقد أضحى منهم الكثير

باعدال التشكيل والمذابح الجماعية وإغناء المسلمين بالمخيلة حتى لخلو الأرض لشكلها الجديد. وكان شعار المارشال بيخو، السّاح الشهور "مخزات يد المستعمر الفرنسي" والسيف على رقاب المستعمرين".

وكانت الأرض توزع على خفالات الفرنسيين العاطلين فأنشأت الإدارة أول الأمر 46 مركزا استعماريّا، ورعتها محانا على عشرين ألف من الباريسيين، نُقلوا بصفة الحكومة إلى أرض الجزائر، ووزعت عليهم الأرض التي ذهب أهلها شهداء الإرهاب بين السيف والنار.

وفي سنة 1847 أعلن مجلس النواب الفرنسي، أن أرض الجزائر قطعة "طبيعية" من فرنسا وأنها جزء من الوطن الأم وأن الفرنسيين بالجزائر يتحدون نائين عنهم للمجالس القومية الفرنسية بباريس - كان لا وجود للمسلمين.

ثم بدأت محاولات الاستغلال الفظيعة بالمغتصب الأراضي وحجر أرواق المسلمين الجزائريين وكانت تلك هي صفحة الحري والعار التي سجلتها الاستعمار الفرنسي على نفسه، وكان حشقه فيها، هو سب المصراع الوحيم الذي ينظره والذي يندوق الساعة منه مرارة الاحتضار.

فالتظام الاستعماري القلبر، قد استولى عبوة واقتدارا، بواسطة التصومية والقتل والإعدام الجماعي والتدليس على معظم الأرض الملاحية الغنية في القطر الجزائري تلك الأرض التي كانت تحصر جيش الجزائريين وكانت تكفيهم أن يحيا حياة هينة، وتسمح بتصدير الفائض منها إلى الخارج في تجارة واسعة.

إنّ أرض الجزائر الملاحية تشمل عشرين مليون هكتار يعترف الإحصاء الرسمي الفرنسي أنها توزع هكذا:

- 5.000.000 هكتارا ملكها الدولة الفرنسية ومنها أرض الأوقاف الإسلامية
- المغتصبة ومقدارها 2.000.000 هكتارا
- 4.000.000 هكتارا ملكها الملكيات، أي النظام الاستعماري الفرنسي، وكل هذه الأرض يستغلها الاستعمار لفرنسية.

2.500.000 هكتار ملك خاص لطائفة المستعمرين (الكولونون colonnes) وهي أحمود الأرض وأكثرها حصونة وأحسنها موقعا في الجهات التي تتركز الأمطار وتوجد بها أعمال الري بملكها (26.000) مستعمر.

8.500.000 هكتار من الأراضي القاحلة الجرداء التي ليس بها ري ولا تنبت من الطر إلا قليلا بقيت بأيدي الجزائريين في مناطق الجبال والتخود والعشيرة توزع على تسعة ملايين (9.000.000) نسمة.

تشريد الجزائريين عن أرض وطنهم:

وهكذا لم يكتف الاستعمار الظالم بإبعاد الجزائريين عن الحكم والإدارة والمجالس بل أبعدهم قبل ذلك، ومع كل ذلك عن أرض آبائهم وأجدادهم وتركهم للظلمة والتشرد والفقر والإهمال.

وقد آلت في قطائع الاستعمار وتشريدهم للجزائريين عن أرض وطنهم الكتب العديدة، ويستطيع أن تلخص مأساة تشريد الجزائريين وإبعادهم عن الأرض في المراحل الآتية:

أولاً: كان المارشال (ديمارمون) الفاتح الفرنسي التهم بالتصويفية والسرقة قد تعهد بالشرف على احترام الدين وسمعته ومؤسساته، كما تعهد بحفظ ممتلكات الأتراك الذين بعد إقامة ثلاثة قرون أصبحوا من أهل البلاد الأصليين.

لكن لم يكن تستقر له القدم في الجزائر حتى أعلن مصادرة كل أوقاف المسلمين من أرض وعقار ومصادرة كل ممتلكات أبناء البلاد من الأتراك، وأخذ في الاستيلاء فعلاً على الأرض الفلاحية الغنية في جهة الجزائر ووزعها على الحشالة التي أصبحت جيش الاحتلال.

ثانياً: لما أدرك أغلبية المسلمين كانت تملك الجهات الشاسعة من الأرض ملكاً خاصاً، فردت العائلة أو القبيلة لا الفرد عند مفارقة سنة 1812 بخصي ملكية الفرد الفرنسية لكل أرض لا يستطيع حياضها أن يستغلها بقطعة واحدة لها.

وهكذا يستولي الاستعمار على أكبر مساحة من الأرض غصباً واستلاباً. ثالثاً: بعد أن انتهت الدولة الفرنسية من ححر الأرض والأوقاف واستولت على القسم الأكبر من أرض الجزائر أصدرت قانون أكتوبر سنة 1844 الذي يسمح لها بسبع أرض الأوقاف للمستعمرين أو توزيعها عليهم، وأن عقد "الوقف" الإسلامي لا يمنع صفقة البيع الفردي أو الغية، وهكذا استولى المستعمرون على كامل أرض الأوقاف ووزعوها فيما بينهم.

رابعاً: أصدر الاستعمار قانون 31 يوليو سنة 1846 بتملك به كامل الأرض التي تقيم فيها القبائل الرحالة، فأصبحت الأغلبية الكبرى من سكان البلاد، تعمل في أرض "الدولة" وأخذ الاستعمار يشردها شيئاً فشيئاً، لصالح المستعمرين، إلى أن لم يبق بين أيدي البدو إلا الأرض البور.

خامساً: ما كادت الجندية الفرنسية تغلب على ثورة الزعيم المقراني في البلاد القبائلية، حتى أعلنت مصادرة كامل الأرض الفلاحية في تلك المنطقة، ومساحتها نصف مليون هكتار، ووزعتها على لاهي الأكراس، تاركة رجال "زواوة" الأشراف الميامين للحووم والفناء العاجل، ولولا رحمة من ربك ومعجزة الإيمان لما بقيت في تلك الجبال حياة لأهلها.

وهكذا شرّد المستعمرون الجزائريين من الأرض، واستأثروا بها دولتهم، ووزعوها فيما بينهم توزيعاً غير عادل، إذ من المستعمرين من يملك قطعة أرض تكفيه لحياته وحياة أهله ومنهم، عدد عظيم، نال ممالك شاسعة درت عليه ثروات لا يكاد يستطيع ضبطها، ثم هو لا يدفع عنها إلا ضرائب زهيدة جداً.

كانت نتيجة هذا التشريد الفظيع، وهذه التصويفية التي لا مثيل لها في التاريخ، أن وقعت في البلاد الجزائرية مجاعة فادحة، سنة 1867، أدت إلى هلاك نصف مليون من المسلمين، وأفقرت الجهات الكثيرة من البلاد الجزائرية، بصفة لا تزال تعاني ويلاتها إلى الآن.

وهكذا كانت الحالة، إلى قيام الثورة الجزائرية الكبرى، يوم غرة نوفمبر سنة 1954: أمة ذات 12 مليون نسمة، تعيش شريرة مهملّة في أرض كانت

لأبائهم وأجدادهم، فاستأثر بها الاستعمار دونهما، ولم يترك لها إلا القاسل والبر
سوء، فهتت تستعيد حقها بالقوة، بعد أن أعنتها الخيلة.

ثورة جبال جرجرة:

ما كانت فرنسا، تطلق الضربة القاسية على قفاها العريض في مذلة وعزى
أديم الهند الألماني الظافر سنة 1871، حتى أعتلتها فرصة سانحة جبال جرجرة
الشامخة معقل لقمة والشرف، فهتت تلوح عاليا بلواء الثورة الكبرى، سعيا وراء
التخلص من الاحتلال للفروض بقوة الحديد والنار.

ولقد ترقم هذه الثورة المباركة بالثأر أعاد السيد الحاج محمد المقراني، وشدة
أروء وأجته على جمع قلوب المسلمين تحت راية الجهاد، الشيخ محمد بن حداد
وراحت جوع الثوارين أعظم معقل الاستعمار الفرنسي، وتلوح أركانها في
الجهات الشامخة المستكة من بحابة على ساحل البحر شمالا، إلى برج بوعريوج
جنوبا، ثم إلى جنوبي مدينة الجزائر غربا، وأعلنت الثورة تنظيم وتنظيم ويشتد
ساعدها وتنشر دعوها إلى أن اضطرت فرنسا لاسترجاع حدة الذي كان أسوأ
في ألمانيا فوجته ضد الترك الوطنية الثائرة عند وقعت معركة "البويرة" التي
التح فيها الجيش الجزائري بعد مقاومة مشهورة واستشهد فيها زعيم الثورة
الوطنية الشهيد الحاج محمد المقراني رحمه الله.

إنما المهادنون لم ينعطوا ولم يلقوا سلاحهم بعد هذا الانكسار فانسحبوا إلى
حاجهم المنعة، ولحقوا فيها، لكن الجند الفرنسي أظهر أمامهم من شدة المرار ما
لم يبدل بعضه أمام الألماني، وأخذ كعادته في ارتكاب أعمال الوحشية والمطاردة من
دفع الجماعات النوبة وهناك الأعراس بصفة فاضحة دينية، وأعظم القوي والبلاد
للزراع وإعدام الأقوات والمخدرات فمن لم تمت تحت حدة السيف ماتت جوعا أو تحت
وقع المضيق في بلاد تشهد من الشرف الإنساني متلفا في الخيل.

أ - جبال جرجرة في الجزائر

وهكذا استمرت المعارك سنة أشهر أخرى إلى أن احتل الاستعماريون المنطقة
بلك التعاقب حيلًا وحيلًا واستولوا على مفاصلها فريدة فريدة، وأسفرت تلك المعارك
العنيفة عن استشهاد ما يزيد عن السنين ألفا من الأحرار وموت ما يزيد عن
عشرين ألفا من جنود العدو الغادر، وقد قضى الاستعمار على تلك الخيل، حل
زواوة الأشم، بالثوب السريع إذ حرم أهله 36 مليون من التريكات ذهبًا وحرير
كامل الأرض الفلاحية البالغة 500 هكتار، ووزعها على المستعمرين ثم أصدر
أحكام الإعدام على كل من شارك في الثورة أو كانت له يد فيها أما زعيم الثورة
الذي خلف المقراني وهو السيد أبو مزراق والشيخ محمد ابن الحفاد وولده
الشيخان محمد وعزيز وحسمالة من وجوه القوم وكبراء البلاد فقد حكم عليهم
بالأشغال الشاقة والمؤبد وسارت بهم السفن إلى كالدونيا الجديدة في المحيط الهادي
حيث ماتوا رحمهم الله، موت العزة والشرف، وبعث أرواحهم ليعرف في
عرصات عشرين تنرف ساعة القصاص، ساعة الأحد بالنار، ساعة الوفاء بالوعد
الحق: ﴿وَوَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثورة البدوي:

في نفس مدينة الجزائر، وفي الجهات المنسقة لحرها إلى بلدة شرشال، قامت
الثورة كذلك، في تلك الأونة، إلا أنها لم تكن عيفة قاسية، وأعلن أحد رجال
العاصمة المندودين السيد محمد البدوي، في ساحة الحكومة استقلال البلاد، وأخذ
ومن معه يتناولون تنظيم الإدارة المستقلة الجديدة، لكن الحركة أطفئت، وأرسل
الفرنسيون السيد البدوي إلى السجن لتفصيل بقضي به سعة أعوام.

مقاومة الأوراس:

لم يستطع الأوراسيون الأحرار صبرا على احتلال الاستعمار الفرنسي لحاجهم
الأهله المنعة، وفراهم الخيلة، فأعلنوا الثورة والانقضاض للزور الجديدة، وأهمها ثورة

سنة 1853 الكوي، وأرسلوا زهرة شبابهم وعجوة رجالهم، يحاربون الفرنسيين ويحاولون إعادتهم عن الديار، فكانت الحرب سجالاً، وكانت الوقائع متوالية، فما انتصر الفرنسيون مرة إلا أعاد الأوراسيون الأحرار الثورة مرة أخرى، إلى أن كانت الثورة الكوي سنة 1954. فنحن نستطيع القول بأن الأوراس هو الجبل الذي لم يفتح أبداً.

المقاومة السياسية في دورها الأول:

أعلنت المقاومة الجزائرية أشكالاً مختلفة منذ توطّد قدم الاحتلال بالبلاد الساحلية إلى قيام الثورة الكوي:

المجرة:

كانت من المظاهر الأولى التي وقعت بعد إخفاق الثورات الكوي، هي المجرة الجزائرية للبلاد الإسلامية المجرة، فما كادت جموع الجزائريين تعتقد أنه قد حكم عليها بالحياة الشقية الدليلة تحت حيز الاستعمار الفرنسي القوي، حتى أخذت تغادر البلاد جماعات وأحادياد، فسار بعضها إلى تونس الخضراء، وسار بعضها الآخر إلى الإسكندرية، وبلاد الشام، حيث قبلوا أحسن قبول على الرّحب والسّعة، ووجدوا أن أحوال الإسلام ليست بمجرّد كلمة تقال.

ولا يزال أبناء هؤلاء المهاجرين يعمرون تلك الجهات كمواطنين صالحين، ثم أن فرنسا أعلنت سنة 1912 قانون التّحديد الإلزامي للمسلمين، فازدادت هجرة الجزائريين إلى البلاد الإسلامية الأخرى، كيلا يعملون تحت الرّاية التي قاوموها عشرات السنين.

أول مقاومة قلمية:

ولا يسعنا إلا أن نسجل بمقدار الشرف، على صفحات التاريخ الجزائري اسم الأستاذ الشّهم الكرم، السيد حمدان بن عثمان عوجة، فلقد كان أول جزائري

رفع عقيدته بالاحتجاج الصّارخ، عند قهر الاحتلال القوي، فقد بحث به أهل مدينة الجزائر سنة 1832 على رأس وفد يطلب حكومة فرنسا بالإفلاح على مطالبها وآثامها، وإرجاع ممتلكات المسلمين إليهم والاعتراف لهم بحق الحياة.

وقد ترك لنا هذا الشّهم الكرم وثيقة من الحرب وأثرى وثائق التاريخ الجزائري الحديث إذ ألف كتاباً ضخماً أسماه "مرآة الأحوال" نقله إلى الفرنسية أحد مهرة اللبنانيين، وطبع في مجلد ضخيم سنة 1833 بمدينة باريس.

وبما امتاز به هذا السفر الجليل:

أولاً: إثباته أن عدد سكّان القطر الجزائري كان عند الاحتلال عشرة ملايين نسمة (والسيد حمدان كان المدير الثاني لمصلحة الضرائب في الحكومة الوطنية الجزائرية).

ثانياً: أنه سجل أعمال اللصوصية والتهب التي قام بها الجند الفرنسي، وصوّر أبشع صورة لتلك المنكرات التي قام بها الأدياء دون حياة أو رادع، وأثبت بوثيقة فرنسية على يد محضّر فرنسي، أن الفرنسيين كانوا يسرقون عظام موتى المسلمين من المقابر الإسلامية، ويرسلون بها ضمن عظام الحيوانات لمعامل تكرير السكر بمرسيليا.

ثالثاً: بيانه عن الأملاك والأرزاق المصادرة والمظالم التي ارتكبتها الطغاة أثناء الاحتلال وحكاية ما رآه المؤلف منها رأى العين.

وقد رجع السيد حمدان للجزائر خائباً، بعد الجهود الضخمة الذي بذله، ولم يرجع الاستعمار عن غيّه، بل زاد في طغيانه، وبقي كتاب "المرآة" في الخزائن العامة، يشهد على الاستعمار، بالخزي والعار.

الصّحف الأولى:

كانت فرنسا قد أوجدت في البلاد مجلس التّيارات الماتية عام 1901، فاعترفت للجزائر (الفرنسية) بمبدأ الاستقلال المالي، وكان ذلك المجلس يشتمل الثّلاثين من

الجزائريين مطالبين فثبت من الجزائريين الذين تدخلت الحكومة في استعابهم لتدبير
قصاصهم.

لكن النهضة التركية، والانتقال العثماني قد أحدثا تغيرا في حالة البلاد
العربية، وكان العدول الطلياني على ولائهم طرابلس وبرقة ضغنا إلى إماله، فأعيد
المسلمون بتعلمهم ويتفكرون، ونشأت في البلاد صحافة ضعيفة أخذت تعبر عن
استياء الرأي العام الإسلامي من حاله الوضيعة.

وكانت البلاد تقاسي الأمرين من قانون الأندلسيين¹ (التدجين) الذي نصت
لحقته على المسلمين خاصة، فمن لم يدفع منهم الضريبة يسجن، ومن سكن في
حيه ثانية يسجن ويحطم بيته، ومن اجتمع مع إخوانه فكانوا فوق الخمسة عوقب
بتهمة عقد اجتماع دون ترخيص، ولا يسوغ للجزائري أن ينتقل من بلدة إلى
أخرى ولو كانت محاذرة له، إلا بإذن خاص، أما القبائل الجزائرية كلها، في
السهول وفي الجبال فقد كانت خاضعة لأحكام "العثمان الجماعي" بحيث إن
الشرقي غائب، أو وقعت حنابة، فسائر أهل القبيلة مشتركون في المسؤولية، وهكذا.

فالأسيطة المرحومون، أحمد بن إسماعيل بوضيرة، والحاج عمار والصادق
وذلك قد قاموا منذ سنة 1910 بتأسيس صحف وطنية، تكتب باللسان الفرنسي،
وتدافع عن حقوق ورغائب المسلمين، مثل صحيفة "الجلال" وصحيفة "الرشيدية"
وغورهما، وأحدثت هذه الصحف رجة عميقة في الأفكار، وأحدثت المقاومة
السياسية الشد وتصلب، وأخذ الشبان المثقفون ثقافة فرنسية يشاركون فيها،
ويتقدمون إلى الأمام.

الحرب الكبرى²

حدثت فرنسا من مسلمي الجزائر محاربة ألقابا ما يزيد عن الأربعمئة ألف
رجل، مات منهم في ميدان الحرب ما يزيد عن الثمانين ألفا.

1 - قانون 1910 بفرنسا الذي نص على تدجين المسلمين في الجزائر.
2 - الحرب العالمية الأولى.

وزيادة على ذلك السوء، فقد جهزت فرنسا اثنين ألفا من الجزائريين بعتلون
في المعامل الحربية الفرنسية، وفي المعامل المدنية.

وإذا كان الجزائريون يقومون بذلك المجهود الحربي العظيم - إحصائيا - كانت
التحية منهم تطالب برفع المظالم، وبالنسوية في الحقوق، وتنتقد مساوئ النظام
الاستعماري، واشتهر من تلك الطبقة المرحومون: عمر بوضيرة، وعبد
الذي القتاله الاستعمار خيرا، وعبد الله رحال، وأضرافهم، ثم أصبحت القضية
منتشرة في فرنسا، وقد تولى فيها اتصال عن حقوق المسلمين رجال أمثال الأسير
عليهما، جون (جوريس) الرعيم الاشتراكي الكوي (الكوي روزي) وغورهما.

لالت الأمة الجزائرية مقابل جهودها، ونضالها وعناد... بنقد بعد الحرب، على
أن جبال أوراس الأتية لم تنفع بهذه المطالب وهذه الوعود، فامتعت عن تسليم
أبناءها للجنديّة الفرنسية، ونطق البارود من جديد، بين الحائزين، بينما اتجا ما
يزيد عن مائة ألف من شبان المسلمين إلى الغابات والجبال فرارا من العمل تحت
راية فرنسا الاستعمارية، تلك الراية التي كانوا يحاربونها ثم دخلت المقاومة السياسية
في دورها الثاني حين جاءت قوانين 4 فيفري سنة 1919.

انتهت الحرب الكبرى، وراى فرنسا أن لا بد من عمل شيء للجزائريين من
قبل ذر الرماد في العيون على الأقسل، فأصدرت قانون 4 فيفري، تلغي بها
أكثر قوانين، الأندلسية السالفة الذكر، وتسوي فيها بين سائر السكان من حيث
الضرائب، فقد كان الجزائريون يدفعون أكثر من الأوربيين وكانت عليهم إلى
حائب ذلك ضرائب خاصة بهم.

أما من ناحية الحقوق السياسية فقد أكتفت قوانين 4 فيفري بزيادة عدد
النوابين الجزائريين، بعدما كانوا في دائرة خاصة ضيقة، تشبه بكثير قوانين
الأندلسية في روحها، وتلك الانتصارات لا يشارك فيها إلا النخار وأصحاب
الأموال، ولكن هذه "الإصلاحات" الرأفة المربلة قد حثت آمال الجميع.

والأول مرة في تاريخ الجزائر الحديث، رأت الأمة زعيماً سياسياً مقدماً حريته، وهو الأمير خالد بن يحيى الدين بن الأمير عبد القادر الجزائري رحمه الله، فقد كان الأمير عمل بروتة ضابط كبير في الجندية الفرنسية، وشارك الفرنسيين حروبهم والأمهم فما انتهت الحرب حتى شكل وفدًا أم ساحة فرساي، حيث كان الرئيس الأمريكي "ويلسون" يحاول عيشاً فرض بنوده التي نادى بها زمن الحرب، ومنها حرية سائر الأمم في تقرير مصيرها، لكن سرعان ما علم الجزائريون - كما علم الفرنسيون والمغاربة أن تلك المبادئ ما كانت في نظر الأوربيين إلا خدعة حرب لا غير، وأن المنتصر الحقيقي في الحرب العظمى الأولى إنما هو الاستعمار والطغيان الأوربي، فرجع الوفد الجزائري عائداً، وجمع الأمير خالد هيئة سياسية أسماها "وحدة النواب المسلمين" وأسّس بها صحيفة حرة للهجة دعاها "الإقدام".

وكان ينادي بوجوب "إصلاح" الحالة في القطر الجزائري على قاعدة تسوية الجزائريين بالفرنسيين في كل شيء، ودخول الجزائريين لمجلس النواب الفرنسي، وإلغاء سائر الأحكام الاستثنائية والتف المسمون حول الأمير خالد ورأوا فيه خير خلف لخير سلف، ثم أعلنت الأهم تبدي من شدة شكيمية الجزائريين ومن صلاتهم في الحق، ما تحرجت له أوساط المستعمرين، فثأبوا وتكالبوا، وقاموا في البلاد الجزائرية وفي البلاد الفرنسية بحملات شعواء على المسلمين، ووقفوا صفاً منياً ضد الحقوق التي يطالبون بها، واشتد ضغط المستعمرين لدرجة أن رأت فرنسا نفسها مضطرة لإرجاع قوانين الانتداب من جديد، وأخرجت الأمير خالد من أرض الجزائر، لكن السنة الذهب كانت قد ارتفعت عالية، فلم تتمد بعدها أبداً.

واستمر الجزائريون يطالبون بواسطة النواب، وبواسطة الوفود، بتحقيق برنامج الأمير خالد الذي أصبح في هاتيك الأثناء، وإلى ساعة قيام الحركات الوطنية الكبرى، مثلاً قوماً حريزاً لا تقوم حركة إلا على أساسه.

ما كادت تنصر الهيئة الشعبية بفرنسا في انتخابات سنة 1936 إلا وبرزت في أفق السياسة الجزائرية فكرة:

فكرة أبدأها الوالي العام الأسبق "موريس فيوليت" وصديق عليها زعيم الحكومة الاشتراكية "ليون بلوم" وهي تقضي بإعطاء بعض الحقوق السياسية لقسم ضئيل من المثقفين الجزائريين كي يشارك مع الفرنسيين في انتخابات المجالس التياية تلك الانتخابات الخاصة بالفرنسيين والتي يطلق عليها انتخابات القسم الأول (Premier Collège) أي الطليقة المتأزفة، أما بقية المسلمين الذين لم تؤفلهم ظروفهم فيقون فيما يسمى بالقسم الثاني، أي قسم المسلمين غير المعترف بفرنسييتهم وإن نظرياً.

وقد ألف "موريس فيوليت" إثر رجوعه لباريس كتاباً للدعاية والعمل فلهذه الفكرة الخرقاً أسماه: "هل تعيش الجزائر؟" وأراؤه تلتخص في: "إعطاء القسم المتبقط من الجزائريين بعض حقوق يتلقون بها وينشغلون عن مناوشتنا وإفلاقنا فإن لم تسرع فرنسا بمثل هذه العملية التخديرية فسيأتي يوم وليس بعيد ليتشر الوعي القومي في الطبقات اليائسة بالجزائر ويندفعون في الميدان التحرري الاستقلالي، وعندئذ يتسع الخرق على الرأقع، ونحسر فرنسا آخر أمل لها في المحافظة على حضونها بالثراب الجزائري"، وهي نظرة صائبة بعيدة لو وقفت عند حد "فيوليت بلوم" ولم يتخدع ببريقها بعض من لا وعي لهم من سرة الجزائر...

وعلى ضوء هذه المحاولة اليائسة تكوّنت الفكرة الثانية لتدعيم الأولى وهي فكرة عقد مؤتمر إسلامي جزائري يضم قادة الرأي في القطر الجزائري لتقرير خطة موحدة جزائرية جماعية وتولي كبر هذا المشروع الدكتور بن جلول ومن التف حوله من اغترفين أمثال طاهرات ويلاج والدكتور الأعصري وما أشبه ذلك، وشارك فيها رجال جمعية العلماء بدعوى أنهم شاركوا بأسمائهم الخاصة كجزائريين لا بصفتهم أعضاء بجمعية العلماء، وقد اتخذوا من المؤتمرات أهم لا يأمثون رجال الوفد الذي انبثق عن هذا المؤتمر وأتم فرنسا، لا يأمثون على الدفاع عن الدين وعن

أثقة الحرية ليهلهم بها معاً فأعلنوا أن مشاركتهم إنما كانت للدفاع عن الكيان
العربي الإسلامي وإدماج المطلب القومية الاستعمارية (كفصل الدين عن الإدارة
الفرنسية) والدفاع عن الحرية بطلب إحيائية التعليم العربي في المدارس الحكومية
والاعتراض بحرية التعليم العربي بالمدارس الحرة الخاصة ضمن برنامج المؤتمر.

نادي الترقى:

لم يكن الجزائريون يعرفون الاجتماعات منذ الاحتلال الفرنسي، وكانت
قوانين الأدب تحرم الاجتماعات كما أسلفنا، فكانت كل الحركات الجزائرية
تسبب بقلّة النظام. داخل القطر الجزائري - إلى أن وفق الله بعض الجزائريين
التفكير لوضع معقل بعاصمة القطر الجزائري، كان له تأثيره العظيم على الحياتين
السياسية والاجتماعية، وذلك هو "نادي الترقى" الذي تمكنوا من تأسيسه بعد
جهود عظيمة، في أحسن موقع من عاصمة الجزائر، فكانت فاعلته الفسيحة تجمع
الشعب الفكرية كلها، سواء بالعاصمة أو بدخل البلاد، وكانت المحاضرات
والمساربات والمخطبات الكبرى تتوالى فيه، وأقبل الناس عليها إقبالاً منقطع النظير
وكان نادي الترقى - رغم القوانين الصارمة - يسهو في طريق الدعوة الإسلامية
تحقيق ذلك الحلم الذي كان يراود دعاة النهضة الإسلامية العربية ألا وهو تأسيس
هيئة إسلامية عربية تنهض بالأمّة الجزائرية داخل عروبتها وقوميتها وإسلامها
والعظم الأصنام التي نصبها الاستعمار في كل جهة من البلاد الجزائرية لتحدو
العقول وتسيطر وتسيطر الأفكار فكانت "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين".
وفي أعين على إنجاز هذا العمل ومهمته الشبيل ليلقة الشعب، تلك الأعياد
الفرحانية التي أقيمتها الاستعمار سنة 1930 احتفالاً بحور مائة عام على احتلال القطر
الجزائري وهذا الاحتفال تفتحت المظاهرات من جديد في قلب كل جزائري
وتذكر الناس والتوبيقات التي ارتفعت في بلاد الجزائر منذ الاحتلال إلى

الاحتفال ورأى الجزائري رأي العين كيف كان الغلافون يقصرون فوق صحتهم
وكيف كانوا ينادون بأن الجزائر فرنسية وكيف كانوا يفتنون في ابتكار أساليب
التصوير والخيال وكيف كانوا يجمعون في التمسك والطمع.

وكما يقول الكل الشكر لربنا منارة ليعقبة فإن احتفال الفرنسيين بحور
على احتلالهم أرض الجزائر قد دفع بالقضية الجزائرية أشواطاً إلى الأمام.

أربعة رجال فقط في ركن من أركان النادي أحضروا المواق على أنفسهم مع
الله لتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين جاعلين لها شعاراً (الإسلام ديننا،
الجزائر بلادنا، العربية لغتنا) وقد لحقت الدعوة فأقدم الطلبة من كل صوب رغم
التهديد والوعيد يؤشرون في يوم مشهود هذه الجمعية التي ساهمت بأوفر نصيب
في بعث العروبة والإسلام في قطر أراد له الاستعمار الفرنسي والسج، وانتهجت
رئيساً لها المصلح الأكبر الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله وقد كان
يتلقى دروس الوعظ والإرشاد بقسطية ويقوم بدعوة إصلاحية دينية واسعة النطاق
ويشرف على تحرير جريدة "المنقذ" ويترأس تحرير مجلة "الشهاب" ثم "السنّة"
و"الشريعة" و"الضراط" ثم "النصار"، وانتمت جمعية العلماء ميدان حرب محفوف
بالمواق والأخطار فحاربت عملاء الاستعمار ثم قاومت البذعة والفتنة القبلية التي
كان يُبشّرها الاستعمار تحت ستار الطوفية للشجوة ثم حاضرت المعركة التعليمية
الكبرى فوفقت بفضل مساندة الأمة والأحزاب الوطنية إلى نشأة جيل صالح لخروج
من مدارسها وهو اليوم حامل مشعل العروبة والإسلام في البلاد على أن الجمعية قد
شاركت إلى جانب أعمالها الإسلامية العربية في النشاطات السياسية سواء بصفة
مباشرة أو غير مباشرة وإن كانت في بعض الأحيان في خلاف عرضي مع بعض
الأحزاب الاستقلالية، خلافاً في الوسائل والاتفاق في الغايات وأبرز هذه الخلافات
كان حول برنامج "فيوليت" الذي يعده الاستقلاليون برنامجاً إدماجياً ويراه غيرهم
مرحلة من المراحل التي يجب اجتيازها للوصول إلى الغاية التي هي استقلال الجزائر
واسترجاع سيادتها الكاملة.

لقد أسس هذا الحزب بباريس سنة 1926 بادي الأمر رجل كان يتبرع للحزب الشيوعي فرأى هذا الحزب أن يحرف إليه جموع العمالة الجزائرية والتونسية والمغاربة الذين لم يجد فيهم طواعية للانخراط في الحزب الشيوعي، نظرا لتصادم مبادئه مع مبادئ الشريعة الإسلامية التي يدين بها هؤلاء العمالة المغتربين والذين يشبهون بأهدافه - وإن شكليا - نشيئا جعلهم لا يميلون لأية حركة تناهض المغرب العربي بغريزة الحنين إلى الوطن إذ يرون أن الانتساب لهذا الذين الرابطة الوحيدة التي بقيت تربطهم ببلادهم وتراث أجدادهم بعدما أضاع الاستعمار لغتهم ومسح ثقافته العربية التي هي الصلة الوثيقة بتاريخهم المجيد الحافل بالمفاخر والأفضال.

أدرك الحزب الشيوعي الفرنسي هذه الظاهرة السيكولوجية فسلخ عنصرا من عناصره المسلمة وأسس تحت إشرافه حزبا وطنيا في الظاهر شيوعيا في الباطن أسماه "نجم شمال إفريقيا"، مصالي الحاج الذي أضفى صبغة الاستعمارية كان إذاً من أعضاء لجنة التنفيذية رجال أحرار، أمثال الأخ عيماش أعمر، وراجف بلقاسم، ومسي الحيلاني، وموساوي رابح، وكنتال محمد وسرعان ما تقطن هؤلاء الإخوان للأصابع الشيوعية العاملة في الخفاء فعملوا - رغم إرادة مصالي الحاج - على إعلان استقلال حركة نجم شمال إفريقيا وفصلها عن منطقة النفوذ الشيوعي، وكان ذلك في أواخر سنة 1932 ومنذ ذلك الحين أصبحت "نجم شمال إفريقيا" منظمة سياسية وطنية تعمل لتحرير أقطار المغرب العربي من ربطة الاستعمار الفرنسي وقد ساهم في تسير هذا الحزب الأستاذ الحبيب بورقيبة، والدكتور أحمد بزاويون تعليمهم العالي بالكتبات الفرنسية كما ساهم فيه من إخواننا المغاربة الأستاذ أبو الحسن الوزاني، وعمر بن عبد الحليل وغيرهم وقد أوسع نشاط هذه

الحركة بعد استقلالها وانتشرت في أوساط عمالنا الذين تحسوا لها وحملوها بالعنف والتأييد وغزوها بالأموال التي يتخزنها من عرق جبينهم في سجون فرنسا وكانت تقوم بملك اجتماعات ومظاهرات وبالكفاح النفسي للتواصل الشبيبة ألهجة الذي كانت جريدة "الأمة" لسكان الحزب الرسمي ميدانها، بعض الصحف السياسية بباريس وبعض الصحف العربية في مصر كـ "أقواء المصري"، وفي أمريكا كـ "العلم الجديد" بالبرازيل.

ولم تكن الحالة بالجزائر تسمح لانتشار هذه الحزبية أو تكوين خلايا لها الحزب فكثرت جماعة تلتقي سرا في دكان حكاك مجلس فوق صيد الحفيد إزاء نافذ الكبر وضارب المطرقة تتحدث ههنا وترسم شططا تحفظها ولا تكتبها عشية عثور الشرطة الاستعمارية عليها، وكانت جريدة الأمة تُسرب إليها من باريس حقية كما تسرب الأسلحة المحكرة والمواد المحكرة بطرق الاحتيال والتهرب وكانت تباع بخمس فرنكات، ولا تعطى إلا لمن تثبت نزاهته وإخلاصه وتعطى له سرا في سقائف المنازل كما تعطى القنابل للثوريين في يومنا هذا.

كان برنامج حزب "نجم شمال إفريقيا" تحرير أقطار الشمال الإفريقي الثلاثة الجزائر وتونس والمغرب والعمل على إفكاك استقلالها وتسحق جميع المنشآت الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بالمغرب العربي لقائدة أبناء البلاد وكان ينص على تأميم البنوك والمواني ومصادرة الأراضي المقتصة، وتجميد الأموال الفرنسية المجموعة من عرق جبين الأهالي بطرق الاستغلال والتسبب، ومنذ أن نادى حزب التحمة بهذا المبدأ لم تزد دعوة الاستقلال إلا انتشارا حتى أصبحت العقيدة العنصرية للشعب اليائس المنكوب، وقد ضاق صدر الحكومة الاستعمارية بهذه الثورة الفكرية الجديدة التي أخذت تحتل الأفكار وتغزو الأوساط الشعبية والطبقات المختلفة بأغواء البلاد فنظمت واجهة شديدة مخاربتها والقضاء عليها بجميع وسائل العنف والقمع والإرهاب فأصدرت قرارها يوم 29 مارس سنة 1937 بحل "نجم شمال إفريقيا" ولكن زعماء هذه الحركة لم يتقهقروا إزاء هذه الإجراءات التعسفية الحمقاء، فأسسوا بعد أسبوعين حركة باسم "حزب الشعب الجزائري"

تقتصر نشاطها على تحرير الجزائر حيث أن "الحزب الحر الدستوري التونسي" و"حزب الاستقلال المغربي" قد تكفلا بواجب الكفاح التحرري في كل من الشبكتين تونس والمغرب، وكان برنامج "حزب الشعب الجزائري" برنامجا استقلاليا وإن كان أكثر اعتدالا وواقعية حيث أنه يطالب بتأسيس برلمان جزائري منتخب شعبيا حرًا بدون أي ميز بين الأحناس والأديان ويعتبر الفرنسيين الساكنين بالجزائر مواطنين جزائريين يتمتعون بجميع الحقوق تلفاء قيامهم بجميع الواجبات عالم يختاروا حسنة لحرى فيحذرون حيث أحاطت تطبق عليهم الترتيب التي تحري عن الأحزاب الساكنين والواردين على البلاد وقد كُتب له "حزب الشعب الجزائري" أن ينشر بطريقة سريعة ومنهشة وأن يغزو جميع الطبقات وأن يكسب إلى جانبه أصداء من الفرنسيين الأحرار أمثال المحامي "لوتقي" و"بيتر طون" والفيلسوف الفرنسي المشهور "فلسيان شالاي"، و"مدام ليوفانير" وأتباع "فروبيسكي" بالجزائر وفرنسا، إلا أن الإدارة الاستعمارية بالجزائر والحكومة الفرنسية "حكومة الواسحة الشعبية" التي كان على رأسها المسير "بلوم" لم يتسع صدرها الطين لهذه الحركة التي تعارض سياستها إذ أن تلك السياسة التي كانت ترمي إلى سلخ جزء ضئيل من منقلى الجزائر وإدماجهم في العائلة الكبرى على حد تعبيرهم وترك بقية الشعب البائس في عزلة سهل استقلاله في هدوء وسكون بعيد عن لحنه المثقفة المشاغلة التي وضعت الحكومة عظمها في قمها كمنها كما يفعل بالكلاب، ومن هذه الفكرة الاندماجية التي مشروع "بلوم فيوليت" الذي لم ير الضوء رغم ما فيه من هبات وما يطوي عليه من سم في دسمه، لذلك كان مال "حزب الشعب الجزائري" مال "حملة إفريقيا الشمالية" فقد أصدرت حكومة "بلوم" قرارها الوزاري بحله وزج رجاله في غياب بوموس يوم 27 أوت سنة 1937 ولحقه جريدة "الشعب" لسانه الزمعي الذي صدر العدد الأول منها يوم اعتقال رجال الحزب وصدر العدد الثاني بأسرع بعد الاعتقال يوم إلقاء القبض على الزوج الثاني من زعماء الحركة ضمتهم وليس لحررها.

1 - لم يزل حزب الشعب الجزائري يقاتل من أجل الحرية والديمقراطية.

وقد حكم على أولئك الأحرار بأحكام تتراوح من سنة إلى سنتين سجنًا بمقتضى قانون "زبي" الاستثنائي الذي حل مكان قانون "الاندجينا" مع حرمانهم من الحياة في حقوقهم المدنية والسياسية وتغريمهم بغرامات عالية تتفاوت بين عشرين ألف إلى مائة ألف من الفراككات.

رغم هذا الاضطهاد الذي لقيه رجال الحركتين فقد لمكنت المنظمة الاستقلالية من الحياة والاستمرار في كفاحها بطرق سرية كانت أشد فعالية وأبلغ أثرًا وما إن أفرج على أولئك المساجين بعد انتهاء مدة سجنهم يوم 27 أوت سنة 1939 حتى كان الحزب السياسي العلني مكفهرًا مثبًا بالغيوم المظلمة وكانت أحرار الحزب الكبرى الثانية¹ توالى دقها في الغرب والشرق ومن الضروري أن لا تدع فرنسا هؤلاء العفاريات يتصرفون بحريتهم خشية أن يلعبوا بالبار، فاشفقوا بعد شهر واحد وأودعوا أعماق السجن العسكري باب الوادي مثقلين بنهم من نوع جديد: التلم على أمن الدولة الداخلي والخارجي الشواغل مع العدو، محاولة تفشيل الجيش، دعايات ضد التحيد ما أدى إلى الحكم عليهم من 5 سنوات إلى خمسة عشرة سنة سجنًا.

المؤتمر الإسلامي:

ضمن برنامج المؤتمر الإسلامي الجزائري مقررات لا تكاد تخرج من ناحيتها السياسية عن برنامج "فيوليت": الانتخاب العام في صندوق واحد مشترك بين الجزائريين (المعتازين) وبين الفرنسيين وإلغاء قانون الأندجينا بصفة نهائية والاعتراف بالعربية لغة رسمية بالبلاد لم محافظة المسلمين ممن يدخلون ضمن الطبقات الفرنسية الانتخابية، أي الذين اعترف لهم بفضل "الفرنسية السياسية" محافظتهم على حالتهم الشخصية الإسلامية في الزواج والطلاق وقسمة الميراث فلا يعتبرون متحسين مائة بالمائة وإنما هم متحسنون سياسيًا فقط ويمكن لهذه الطائفة الشاذة أن تتمتع بحق الجلوس في برلمان فرنسا باسم إخوانهم المسلمين.

هذا التأويل هو الذي جعل جمعية العلماء تشارك في المؤتمر إذ أنها كانت أصغر فئوى صريحة ضدّ المستعمرين 100 % واعتبرتهم مرتدّين عن الإسلام، واعتصم هذا المؤتمر من الدرجة الأولى رجال وحدة التواب المسلمين الجزائريّين وهي اعتماد للمؤسسة التي كان ابتدعها المرحوم الأمير خالد.

انتق عن هذا المؤتمر (أو ما سماه الوطنيون بالمؤامرة ضدّ الشعب) وقدّا يمثل الشرائع للمشاركة فيه فزل باريس في شهر جوان سنة 1936، إلا أن غلاة المستعمرين بالجزائر وفرنسا لم يسمحوا حتى هذا العظم للجزائريّين فتألبوا ضدّ المؤتمر ونظموا حملات شعواء بالجزائر وفرنسا بغذّها الحقد والمال في آن واحد إلى أن انحسروا في حمل البرلمان الفرنسي (التزبه دائما) على التصويت ضدّ مشروع "مبوليت" فحارب رجال المؤتمر في مساعيهم التي لم ياركها الوطن ولم يرضى عنها الله، وأبى الواعون منهم أنّ الطريق الوحيد الذي يجب على الأمة أن تسلكه لإنقاذ بلادها وكرامتها هو طريق الاستقلال الوطني.

حزب الشعب الجزائري:

ما فتت فكرة المؤتمر وفكرة الحلول العرجاء أن تلاشت كما تلاشى أكثوبة أبريل بعد اقتضاحها وأخذت فكرة "حزب الشعب الجزائري" تتغلغل في الأوساط لتساندها الأمة وبعطف عليها العلماء فأخذ الحزب ينظم صفوفه، ويجمع حوله الرجال الأشقاء الذين التحلوا بالاستقلال عقيدة لهم ومنهجاً لأعمالهم فأخذت الدعوة تنتشر في جميع الطبقات انتشار النار في الهشيم وطلعت الخلايا تناسخ في كل قرية وكل فج - ذلك الحزب الوحيد الذي وقف في وجه "مبوليت" والمؤتمر الإسلامي والوفد المزعوم، وكان شاعراً بعلو الدنيا بصراحته - وكانت الحالة العامة في أوروبا قائمة غائمة تحت كابوس "هتلر" ووعيد، وريح الحرب تحت عاصفة هوجاء وكان العالم يتحلق أن ساعة الفرج الأكبر آتية لا ريب فيها، لكن

1 - 100

الفرنسيّين بدل أن يمشوا إلى الإيمان بالواقع ويقرّوا سياساتهم وراء تلك التهميد المخيف ما ازدادوا إلا عفا وصرامة ضد المسلمين فبادرت برج آلاف الأرباب في أعماق الصحون خشية أن يندشوا ثمة في صفوفها للتداعية.

وهكذا كانت الحالة السياسيّة عندما اشتعلت نيران الحرب العالمة الثانية، ولا ينكر أحد أن كثيرون من المسلمين الجزائريّين كانوا رغم عاطفتهم الديمقراطية العميقة - يمتنعون من صميم قواذهم أن يكتب النصر لألمانيا لا حباً فيها - ولا طمعاً في غير ينحروا من وراء انتصارها، بل كانوا يريدون الانتقام من فرنسا المستعمرة، الانتقام ليس إلا على حدّ المثال السائر (عدو العدو صديق).

الحرب الكبرى الثانية والحلّان الجرماني الأمريكي:

دخلت فرنسا الهرمة الواهنة المنحلة تلك المعصية عن غير استعداد يقودها جماعة من المترفين وطائفة من المرتزقة تجار الموت إلى أن ضرب "هتلر" ضربته الحاسمة فنكبهم التكية الكبرى وفرقهم أبدي ساء... "ووضوب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة بأبيها وزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون" فلم تستطع تلك الدولة الفرنسيّة أن تحافظ على عظمتها الزائفة أمام الحق المرير ولا أن تثبت بسلاحتها ورجالها نصف شهر أمام الجحافل الجرمانيّة الرأخفة فحزرت صريعة وفقدت كل شيء حتى الشرف بل كان الشرف أول ما فقدته وما وسعها إلا أن استسلمت في مذلة وإصغار، وذاقت كأس الاحتلال المرير الذي طالما جرّعت الشعوب الأمانة المطمئنة في سرها، وخصوصاً الشعب الجزائري الذي عرف كيف يجازيها صاعاً بصاعين.

لقد كان الجزائريّون يستعدّون يومئذ لتصفية الحساب لهاثيا مع فرنسا واستعمارها ومظالمها واحتلالها، لولا تدخل الألمان من جهة وقد كانوا يقولون: "انتظروا معاهدة السّلم فينصف كل واحد" ولو لا تدخل الرّعاة الأمريكيّين الذين كانوا يقولون: "لا تفعلوا شيئاً وانتظروا فسريح الجولة الأخيرة وستعطي كل ذي

حق حقه"، وصدق بعض الجزائريين أولئك كما صدق بعضهم هؤلاء وما لبثوا
بصنكوا أحدا من الجاليين وما لبثها كانت القاضية وما لبثهم تلبسوا قول القائل
وَأَعَزُّمُ النَّاسَ مَنْ إِنْ فُرْصَةٌ سَحَتْ
لَا لِقَطْعٍ ذَلَّتِ الْأَقْصَى وَتُرْجِلُهَا
وَلَقَدْ تَأَسَّسَتْ حُكُومَةٌ خِيَالِيَّةٌ فِي الْكُوَاليسِ عَلَى يَدِ بَعْضِ الضَّبَاطِ الْأَمْرِيكِيِّ

العاملين في مصالح الاستعلامات الأمريكية بالتنسيق مع المكتب الثاني الفرنسي، وقد
نوّظت في هذه التشكيلة الشهيرة بالأساطير المضحكة جماعة من دراويش الجوار
الحكومية ورشعت الخطط المخطط في يوم نزول أول جندي للحلفاء بالقرب
والصبح حتى وردتها المتطرفين يتمتعون بوظائف عليا في المصالح الفرنسية بالجزائر.
وكم تعطف التاريخ العادل بين ميثاقه من أسرار، سوف بأن يوم لحثك عن
حفاظها الأسرار

لعلنا عن مراحل الكفاح الجزائري في دوره الفلمسي السياسي واستعرضنا
مختلف الاتجاهات السياسية قبل الحرب العظمى الثانية من برنامج "بلوم فبوليت"
إلى "كلمة الإسلام السياسي" إلى "جماعة التواب الجزائريين المسلمين" إلى حركة
العلماء المسلمين الجزائريين، وقد كان الشعب الجزائري يستخلص دروسا قيمة من
نظما فكرنا وثقافتنا سياسة واسعة النطاق قوامها المقاومة وصدق الاعتبار، وكان
صدق الاعتبار مذكرا حول فكرة واحدة شملت عنها الأحداث المتواصلة هي
فكرة استقلال الجزائر واستمرناح سياتها للتصدي مهمة كانت التصديبات
والكفاح، وحملت الحرب الكبري الثانية ورأينا كيف وقف الجزائريون إلى جانب

الحلفاء وكيف صدق هؤلاء الحلفاء على ألقاب الشعب وقبولهم طوعا وكرها
ما أحرزوا على الانتصار وتوسكروا لتعظيم ألقابهم وألقابهم كانت ألقابهم
العقول المدللة على أصبح تعمر

وكيف رجع الجزائريون في هذه الحرب يد قارعة والحركة لائس، فيها
تاركين في مياديلها مئات الآلاف من الفتحاء الذين لم يبقوا تلك الأرواح الزكية
في سبل استقلال الجزائر لوقعت تصفية الاستعمار الفرنسي في زمن بعيد ولكن ما
العمل والأمور مزهوة بأوقافها وكان أحرار الجزائر يعطون أن الساحة أية لا
رب فيها وأن الحرس لا بد أن يبق في يوم من الأيام ولقد وقع ما كان متظرا
إذك في انتفاضة الشعب وردة فعل الحكومة الاستعمارية، ففي نوفمبر من سنة
1942 تمكن الأمريكيون من احتلال الشمال الإفريقي، وأعدوه عن بقود حكومة
فيلس الصورية وعلوه لجان القذلة الألمانية الطليعة لكن وقع أيضا ما لم يكن
متظرا فإن الأمريكيين اعتصموا في حكم البلاد على الفرنسيين حيث - ولم
يفكروا - رغم وعودهم لبعض الشرف الجاليين - في أصداف المسلمين ولكيهم
من إدارة شؤون بلادهم كما يقتضيه اللطق الصحيح وكانوا يقولون في حركة
وصراحة: "نحن إنما حنا محاربة الفورة، أما قضاياكم الخات فيكم وجه
الفرنسيين" فقلنا نعم: "وماذا يكون موقفكم لو كنا أعداء في تصفية حسابنا مع
الفرنسيين الآن؟" فقال للتحذات الرسمية باسمهم: "إن الفرنسيين في الشمال الإفريقي
حلفاؤنا، وإنما نسعى لاستمالة الفرنسيين في فرنسا، فكل عمل يقع هنا ضد
الفرنسيين إنما نعتبره موجها ضدنا ونقاومه إلى جانبهم بكل شدة وصرامة".
وهكذا حالنا الألمانيون وجدعنا الأمريكيون ولم يبق أمامنا من باب لظرفه إلا باب
الأعمال السلمية القليلة الحدوى، في تلك الأوقات المرحلة.

أجباب البيان والحركة

في 3 فبراير من سنة 1943 اجتمع رجال من أحرار الجزائر فيهم من أنصار
"حزب الشعب"، ومن العلماء ومن التواب، ومن الشطليين، وتفاوضوا في

مستقل الأمة الجزائرية، وفي خروجها لهاثيا من المنطقة الاستعمارية إلى المنطقة
المنطقة الحرة فقرروا تحرير "بيان" لينشرونه على الأمة الجزائرية وينشرونه للأمة
الفرنسية ولرجال الثورة المتحالفة وقد اتفقوا على النقطة الرئيسية وكتفوا الأستاذ
فرحات عباس بتحريره في صيغته النهائية فكان البيان يعلن:

أولاً: إغلاس الاستعمار في سياسته، مع تفصيل مراحل هذا الإغلاس.

ثانياً: إن الاستعمار قد حكم على الأمة الجزائرية بالفقر والجهل والتشريد
وأبعدوها عن كل مبادئ الحياة، وأن الأمة لن تستطيع بعد اليوم صوماً على هذا
النظام.

ثالثاً: إن المخرج الوحيد للأمة الجزائرية ثمة هي عليه من المنطقة الاستعمارية
إلى ما هو إعلان "الجمهورية الجزائرية المستقلة" مع ارتباطها بفرنسا ارتباطاً تعاقبياً،
ومع احترامها لحقوق سائر السكان دون تمييز بين جنس ودين، على أن تكون
الجمهورية الجزائرية حسيبتها الحامية، وعلمها الخاص.

والنظم أغلب الناس إلى هذا "البيان" وتوحد في حياة أسمت نفسها "أحياء
البيان والحرية" وتكفل حوله أغلب العاملين لخير الجزائر على قاعدة الاستقلال
والشورى وحاضروا بدعوتهم متحمسين مستعدين ليل للثقل التضحيات في سبيلها.

لما الحكومة الفرنسية التي كانت تدعو نفسها "حكومة فرنسا الحرة" والتي
كان يرأسها الجنرال "ديغول" فقد عاقل الأمر وعزمت على الشر والانتقام وجاء
ديغول بنفسه إلى مدينة قسنطينة يعلن برنامجاً هو أشد شيء برنامج "قبوليت"
الشكاف المذكور، وبعد المسلمين بطلاناً من الإصلاحات في نطاق بقائهم فرنسيين،
تحت بلادهم إلى الأبد حراً من فرنسا حسب الأنشطة الزمنية.

ثم بدأت هذه الحكومة الديمقراطية تتكلم برجال حرب البيان وألقت القبض
على الأستاذ فرحات عباس وراحت به مع أحد رجال البيان في السجن، فكانت
الأمة الجزائرية تغلي عليها البركان إثر هذه المواقف، وكان عليها ينظر باستعمار
جباراً، وبعد عدة مخرج عن الأستاذ فرحات عباس تحت ضغط الرأي العام

الفرنسي آخر والجزائري الثوب وعاد رجال "أحياء البيان" والحرية إلى استئناف
العمل والاحتجاج ومعالجة الوقت بما يتطلبه من حكمة وحزم والاستعداد لخوض
المعارك السياسية عندما تنفج الحرب لوزلها قريباً، وقد كانت بذلك تتصرف على
لهايتها، وانتهت الحرب بعد قليل بالغزو الثاني، تحت ضربات السلاح الأمريكي
وشاء ربك أن تلب فرنسا دور المنصر الظاهر مع المنتصرين كما هي عادت دائماً
بعد أن كانت تقف في مؤخر صفوف المهزيمين وراق لها أن تلقب بصغرة النول
الكبرى وكبيرة النول الصغرى.

8 ماي 1945:

ففي 8 ماي سنة 1945 احتفل العالم العربي (الحر) بعيد الحرية مع لثانيا وأراد
الجزائريون أن يشاركوا في هذا الاحتفال وأن يستعملوها وسيلة لإظهار عواطفهم
نحو الديمقراطية وإبداء رغائبهم وتغذية أعتابهم ولكن الاستعمار الفرنسي الحرس
كان قد هباً برنامجاً الإبادة واحترار مواقع المعركة، فما كادت المظاهرات السلمية
تعقد بمدينة سطيف صبيحة ذلك اليوم، حتى تحرش بها الفرنسيون بدعوى أن
المتظاهرين كانوا يرفعون أعلاماً جزائرية واغتال محافظ الشرطة بيده الأكمة غلاماً
مسلياً كان يرفع لائحة، وتآلب على المسلمين من الجهة الممتدة بين سطيف
وخرمكة وقالة رجال الحشد الفرنسي بين مشاة وطيارين وفرن مصفحة وكان
رجال البحرية الفرنسية مستعدين على التوابع ورجال الغالية الأوربية الذين
كانوا قد سُلحوا أو استعدوا لذلك اليوم الأحمر الرعب للارتكاب أفعى الحرام
في مذبح من أفقر المذابح الاستعمارية في العالم.

وفتح الفرنسيون موسم الصيد الأدمي، وطورد السلمون في المدن والقرى
والمدن كما تطارد السباع في الغابات وعتت للمذابح والحرائق ففجعت ضحيتها
القرى العديدة فلم ينج من ويلاها رجل ولا امرأة ولا صبي ولا شيخ كبير وكانت
للمصفحات الفرنسية نسج صفاً متراشاً قد قهر القرى على رأس من فيها من رجال
ونساء وأطفال، حتى يسوى لها وما فيها الأرض فكانت القماء تجري غيرة وقد

سُقت الأرض بدمها القاني بصفة بارزة أمكت المصورين من التقاط صورة لها من أعلى الطائرات.

أما بلندن الكبيرة كسطين، وقلمة، فكان رجال "الميليشيا" من المنطوقين الأوربيين يهاجمون الدُمار ويلقون القبض على النخبة الجزائرية المنقطة بذهبون لها عتاج الأسوار ويأمرونها تحت تهديد الرشاشات بحفر القبور الجماعية ثم يقتلون الفوج إثر الفوج ويأمرون كل فوج بدفن الفوج السابق.

أما النساء فقد أمتهن شرّ امتهان وأشبهت حرمانهن انتهاكا حديرا بوحوش مماثل إفريقيا القديمة وأستراليا وقد قُطعت أذانهن لأجل الاستيلاء على الأقراط، وألبسهن من أحل الخوام والخند الفرنسي السفاك يتفاخر أبنائه بالإحراز على أكبر عدد من الخوام والأقراط.

دامت المذبحة أياما وليالي سوداء وأسفرت عن مقتل 48 ألفا من المسلمين، واضمحلال قرى كاملة، وخراب جهات فيسحة وإعدام النخبة للفكرة في كامل الجهة ولولا تدخل رجال أحرار النفعوا ينصرون الحق وينتدون بالمذبحة ولولا ضجة عالية قامت ضد هذه الجريمة الملعونة الظور، لكان قد حل بالمسلمين سنة 1945 ما هو واقع بلادهم اليوم في هذه الثورة الكبرى.

بادرت الحكومة مع كل ذلك بحل "حزب أحباب البيان" الجزائري وألقت القبض من جديد على رئيسها فرحات عباس وأصاره وعلى الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين صحة الأعضاء البارزين من هذه الجمعية أمثال الشيخ العربي النسي، وعدد كبير من الرجال الأحرار منهم أغلب أعضاء "حزب الشعب الجزائري" الذين لم يكونوا في السجون والمعتقلات فكان عدد الموقوف عليهم 4560 جزائريا هم نخبة الأمة ومفكروها وصدرت الأوامر على 1300 رجل منهم 49 حكما بالإعدام، و66 بالأشغال المؤقتة، و529 بالأشغال الدائمة لأجل تطور تطور سمات والبقية بصفة أخرى مستبعدة.

أما من الجانب الأوربي فالمسلمون تمكنوا من قتل 102 من الفرنسيين فقط فلم يستطيعوا أن يدافعوا عن أنفسهم أو يثأروا لموتهم ويتفحوا لأعراضهم بأكثر من ذلك.

فحادثة 8 ماي الرهيبة كانت الأساس الأول الذي بنيت عليه قواعد الثورة الجزائرية العارمة سنة 1954 وغرست شجرة الحرية السائقة في بركة من دماء الشهداء الأبرار.

بقي قادة الأمة في السجن تحت خطر الاغتيال الإحرامي إلى يوم 16 مارس 1946 حيث صدر الأمر بإطلاق سراحهم وكانت الحكومة كما أسلفنا قد قامت بحل حزب "أحباب البيان" الجزائري وحل "حزب الشعب الجزائري" فقام الأستاذ فرحات عباس بتأسيس حزب جديد أسماه : حزب "الاتحاد الديمقراطي للبيان" الجزائري أما رجال "حزب الشعب" فقد أسسوا كذلك حزبا جديدا دعوه : حزب "الانتصار للحرية الديمقراطية" واستعد الجميع لخوض معركة جديدة من وراءها الموت أو من أمامها الحياة.

مالک

هذه أبيات، من إلياذة الجزائر، حَلَّدَها الشاعر مفدي زكرياء حوادث 8 ماي 1945، وقد ختم هذه الحصة بقصيدة حول هذه المغازر إلا أنها تفضل إلى حدّ نشر هذا الكتاب في حكم المفقود.

وَلَمْ تَسِرْ فِي أَرْبَعِينَ وَخَمْسِي
طَرَفًا مَعَ الْخُلَفَاءِ الْفَيَّارِ
فَكَانُوا مَعَ الْعَدُوِّ غَوَا عَلَيْهِا
وَكَاثِلَتْ مَخَارِجَهُمْ بِسَطِيفِ
وَقَسْرٍ لِسْتَرَاذٍ شَعْبًا تَوَالِي
وَعَلِمَتْ أَسْبَارِي الشَّاهَا
وَكَاثِلَتْ تَلَا حِجْقَ أَفْلَاثَا
وَكَاثِلَتْ تَكَا بَعِخْ أَحْزَانَا
فَقَطَّلَ صَوْتُ الرِّمَاسِ الْقَلْبِي
فَقَامَتْ لَعْنَةُ أَكْبَادَا
ثَعْلَانَا الْوَرِي، وَمَلَأْنَا الدُّنْيَا
بِشَجَرِ رُكْنَةٍ كَالْمَلَأَا

ثُمَّ قَالَ الْوَزِيرُ، وَمَلَأْنَا الْكُفَا
بَشَقَرٍ رُغْلَةً كَالسَّلَاةِ
تَسَابِيحَةً مِنْ حَتَاةِ الْخَزَائِرِ

- 1 - مبررة سنة 1945م في سطيف وخرطاك وعن الكعبة وخرطاك وعن خردوخ...
- 2 - المجلد لسنو كرويل، طابعا في سطيف.
- 3 - (الجزيرة) سنة 1945.

فَمَا أَرْتِعِينَ وَغَنَمًا أَيْدِي
قَطَائِعِ خَنَدٍ، فَيَسِي بَلِيدِ
وَأَنَامَ أَخْلَاسٍ خَنُفٍ غَبِيلِ
عَدِيمِ الْحَيَا، كَطَعِيرِ الْيَهُودِ
وَمَا ذِكْرِيكَاتِ السَّعَاءِ الْقَوَالِي
أَيْدِي خَلَائِكَ مِلَّةَ لَيْدِي
وَمَا لَعَنَاتِ السَّعَاءِ الرِّيسِي
صَوَائِقِ، فَوْقَ الظُّلُومِ الْخُفُودِ
وَمَا زَهْرَةً، زَرَعَتْهَا دَعَا
وَقَحْنَهَا بِالصَّبَاحِ الْخَلِيدِ
أَلَا، ضَنْجِي مُهَجَّاتِ الطُّحَايَا
بِخُرَاطَةِ التَّخْدِ رِثَى الْأَسُودِ
ثَنَابُكَ عَمُوشَةُ الْخَالِيدِ
بِنَ، غَيْرًا، فَيَحْنَلُ عِطْرُ الْوُرُودِ
وَقُرِّي بِعَزَّتِي فِي بَيْتِي غَرِيرِ الْمَقَابِيرِ، صَنَدُ الْوُخُودِ
وَيَبْهِي بِمَنْ شَكَّلُوا لِلْبَقَا
وَمَنْ قَرَّرُوا لِلْبِلَادِ الْمَصِيرَ، يُسَوِّرُ الْحِجْصَى، وَيَسَارُ الْوُفُودِ
وَمَنْ كَتَبُوا صَفَحَاتِ الْخُلُودِ

شَقَلْنَا الْوَرَى، وَمَلَأْنَا الدُّنَا
بِشَجَرِ نُورٍ كَالصَّلَاةِ
تَسَايَعَتْ مِنْ حَتَايَا الْخَوَارِزِ

1 - 2 و 3 و 4 حزيران 8 مايو 1945 أشهر من أن يذكر عليها هنا بكتابات وحيدة، وبكفي أن نقول بشكنا في الحزبين
أرادوا المشاركة في الاحتفال في ذلك اليوم مطالبين بالاستقلال التوحيدي فكانت لهم الفرسون الذين أطلقوا الرصاص على الكتلة
ونظفوا حناجر في الملك، وسطيف، وحراطة، وحسونة، ومن غيره. ذهب ضحيتها أكثر من خمسة وأربعين ألف من الحزبين، وهي
الشهيرة بمواقف ماي 1945.

تاريخ الصحافة العربية بالجزائر

جمع وتحقيق

د. أحمد حمدي

"على نبضات الشعب ، وقعت ألحاني
ومن نشوة التحرير، لحنت أوزاني
وأنشدت في أفراح شعبي، وترحمه
روائع، لم يصدع، بإعجازها، ثاني
وخلدت، من مجد العروبة، صفحة
رسمت على عنوانها، وجه قحطان
وتيمني حب الجزائر، فارتوى
نشيدي، في الساحات، من دمها القاني"
"مغدي زكرياء"

المقدمة

"الصحافة في كل شعب ترجع للأصلاء المختلفة التي تتحارب في شتى ميادينها، ومرآة صقيلة تنعكس فيها الأحداث السياسية والاجتماعية التي تضطرب بها آفاق البلاد في مختلف مراحل نموها وتبعاتها".

ذلك هو مفهوم مفدي زكرياء للصحافة، وتلك هي رؤيته لوظيفتها الرائدة في بناء ذاكرة الأمة، وتفعيل دورها في المجال الحضاري. من هذا المنطلق الواضح راح يبحث في مختلف وقائعها، ومراحل تطورها، وزوايا تاريخها الخافئ بالجزائر، حيث أسفر بحثه ذلك عن برنامج إذاعي اشتمل على 23 حلقة، تم بثها عبر الإذاعة التونسية ما بين سنة 1959 وسنة 1961 أثناء الثورة المسلحة، وقد حرص المؤلف على جمعها في هذا الكتاب المتميز، والأول من نوعه، والذي نقدمه للقراء بعد ربع قرن على رحيل صاحبه إلى حوار ربه.

ملاحم من سيرة مفدي زكرياء :

وقبل كل شيء لا بد من الحديث قليلا عن مؤلف هذا الكتاب، فهو مفدي زكرياء بن سليمان من مواليد 12 جمادى الأولى سنة 1325 هـ¹ الموافق 18 جوان 1908 ببلدة بني يزقن - غرداية، وفيها ابتداء حفظ القرآن الكريم، وفي السابعة من عمره انتقل إلى مدينة عنابة مقر تجارة والده، ثم أرسل إلى تونس ضمن البعثة الميزابية، التحق بجامعة الزيتونة سنة 1926.

بدأ العمل السياسي في أوائل الثلاثينيات ضمن صفوف "جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين" وحزب "نجم شمال إفريقيا" ثم "حزب الشعب الجزائري" ثم "حركة الانتصار للحريات الديمقراطية" ثم "جبهة التحرير الوطني".

1 - حسب برنامج التوقيعات الإلكتروني من 12 جمادى الأولى سنة 1325 الموافق 22 جوان 1907، لكن مختلف المراجع توافق ذلك بالمثل سنة 1908.

مقدي زكرياء الصحفي:

لا شك أن مقدي زكرياء يعتبر من أوائل المؤسسين للصحافة الوطنية في تلك الصحافة التي تتميز عن صحافة "الأهالي" وعن صحافة "الكولون" و"الجمعيات"، بكونها صحافة تحمل مشعل الدفاع عن الوطن، وتحت على نوحه الصقوف لتحريره من قبضة المستعمر، وينضوي أغلبها تحت لواء "حزب الشعب الجزائري" بتعدد مسماهاته.

أول خطوة لمقدي في عالم الصحافة كانت مبادرته إلى جانب رفيقه الشاب رمضان حمود، عندما أسسا جمعية "الوفاء" الأدبية التي أصدرت صحيفتها في الفترة ما بين 1925 و1930 في تونس.

ولدى عودته إلى الجزائر أسس جمعية مماثلة، وأصدر لها صحيفة "الحياة" التي صدر منها ثلاثة أعداد فقط سنة 1933.

في هذه الفترة انضم مقدي إلى حزب "نجم شمال إفريقيا" الذي رفع شعار الطليعة المسلمين في شمال إفريقيا، وقد بدأ نشاطه المبكر في صفوف "جمعية الاستعمارية"، تأسس من قبله تحت اسم "حزب الشعب الجزائري" وكان مقدي من ضمن مؤسسيه البارزين. ومن موقعه ذلك أسس صحيفة "الشعب" باللغة العربية باعتبارها لسان حال الحريين لكن السلطات الاستعمارية كانت له بالمرصاد إذ سرعان ما أوقفت الجريدة، ورحلت مقدي مع قادة الحزب في سجناب السجون. ورغم اشتغالاته الوطنية العديدة هذه، فقد ظل مراسلا وها لعدد معتبر من الصحف والمجلات التونسية، بأسماء مستعارة مثل "التميز الوطني" و"أبو فارس" كما كتب لبعض الصحف الجزائرية السورية مثل "الوطن" و"العامل الجزائري".

لمئات كتابات مقدي الصحفية طابعها القومي، وحاشاها القاصر، ولغتها فصاحة وشارقة، عتسا تكون موجهة لخصم الشعب وطامع بالهكم

والسحرية اللادعة عندما تكون موجهة لقوى الطش الاستعماري، وقد غلب على كتابات مقدي في هذه الفترة الطال الصحفي والتعليق، دون إغفال بقية الأجناس الصحفية الأخرى، ويعود سبب ذلك إلى أن مقدي يرفع نمو صحافة الرأي لا صحافة الإثارة، لكن ذلك لا يمنع من أن يكتب بأسلوب صحفي بليغ، طامع تحريضي، وهذبة تعويذ، وسياقة حماس متور.

ولم يكن نشاط مقدي الصحفي محصورا في الصحافة المكتوبة، بل كانت له تجربة متميزة في الصحافة السموعة، حيث أهد مجلة من التوامج الإذاعية العامة، ذات الطابع التخصصي كبرنامجه عن الأدب الجزائري، وكذلك برنامجه للتميم عن تاريخ الجزائر، وخاصة برنامجه عن تاريخ الصحافة العربية في الجزائر. موضوع هذا الكتاب - الذي يعتبر الأول من نوعه في هذا الاختصاص -

ومن خلال تصفح هذا الأحمود يتبين لنا مفهوم مقدي (زكرياء لوطائف ومهام الصحافة، ودورها الفاعل في المجتمع، فد لخصها في قوله المصنوع هذه المقدمة، وهو: "الصحافة في كل شعب ترجيع للأصداة المختلفة التي تحاول في شئ مبادئها، وحرارة حثيئة تنعكس فيها الأحداث السياسية والاجتماعية التي تصطب بها آفاق البلاد في مختلف مراحل نموها وابعائها".

وقد أدرك مناورات الاستعمار وحرصه على إنشاء صحافة استعمارية ناطقة باللغة العربية، وقد عر عن ذلك بقوله:

"إنشاء صحافة عربية لخدم ركاب الاستعمار، وتشيد بمآثر فرنسا، وتسبح بحملها، قصد تركيز الاستعمار وتغريب الشعب الجزائري الذي ما انك يقاوم المحتل ويتور ضد نفوذه في البلد".

وتجدر الإشارة إلى أن بعض فصول "تاريخ الصحافة العربية في الجزائر" - وهذا العنوان من وضع المؤلف - قد تم نشرها في مجلة "الشباب" التي أصدرها قيادة الثورة بتونس سنة 1959.

مفدي زكرياء الأديب:

أما شخصية مفدي الأديب، فتحلى في أسلوبه كثائر من خلال قوته النصية المائلة، وقدرته التقنية العالية في صياغة وكتابة المقال الأدبي، أو غير محاولاته الفنية لكتابة القصة القصيرة، ولا شك أن عبارته الشعرية نظل مشبعة بالخيال الشعري، في العبارة الواضحة، والإيقاع المتواتر، والبلاغة النادرة التي تؤكد عبقرية فذة.

مفدي زكرياء الشاعر:

وحسن مواهب مفدي للتعددية تبرز شخصية الشاعر الملتزم الذي يجسد بكل حذارة وكفاءة وظيفة المثقف العضوي، وتقانيه في خدمة قضيتيه، لكن في الفترة التي بدأ نجم مفدي يسطع كان الشعر الجزائري يعيش مرحلة انحطاط وعزلة تامة عن الجماهير، نتيجة الظلم الاستعماري وسياسة التجهيل ومنع اللغة العربية وآدابها، وعقبات التواصل الثقافي العربي في الجزائر، من هنا كان دور مفدي، إلى جانب محمد العيد آل خليفة ومحمد الأمين العمودي، بارزا في النهوض بالشعر الجزائري من كبوته تلك.

ففي سنة 1927 صدرت أول مختارات شعرية جزائرية بعنوان "شعراء الجزائر" في العصر الحديث" لمحمد المفدي السوسي، التي تعتبر أول الغيث الذي سقى التربة العطشى، وكان حضور مفدي في هذه المجموعة بارزا، والى ذلك تبدأ الصحافة الجزائرية بنشر العديد من القصائد لشعراء جزائريين، حيث تبرز مدرستان متكاملتان، مدرسة بزعيمها محمد العيد بشعره الإصلاحي والاحتجاجي، ومدرسة القاعل في الحياة الثقافية. هذا تبرز مواهب مفدي الشعرية من خلال قدرته، على صياغة العبارة الشعرية بشكلا متناغمة، وقسرة عجيبة على تكتيف المعاني، بحيث تتحول كلماته إلى متفجرات موهبة، وروايات صالحة في لغة بسيطة خالية من التعقيد، لتعد إلى التفتيح بسهولة ويسر.

والجانب المهم في كل ذلك هو أنه استطاع أن يخرج الشعر من قوقعته المعتولة، ويرجعه للعاجي، ليحتله من شؤون الحياة اليومية، لدى مختلف الأوساط والفئات، بغض النظر عن مستواها التعليمي، حيث صارت تصدح به الجاهل في مختلف المناسبات، خاصة من خلال الأناشيد الرائعة المقصدة حماسا، والثرية دلالات.

يتم ذلك بأسلوب مباشر بقاء، خال من الساجيق، يستعمل المفردات في دلالاتها ومعانيها الدقيقة، ولا يجد صعوبة في صياغة ذلك بقوة بالغة، غير حرصه على اختيار الكلمات البسيطة القريبة من روح الشعب، حيث نجد في بعض الأحيان يكتب المقطوعات والأغاني باللهجة الشعبية.

تاريخ الصحافة العربية:

يعود الفضل في المحافظة على نسجها من حلقات حركات الإصلاح الإذاعي التي اعتمدنا عليها كنواة في تحقيق هذا الكتاب، للدكتور سليمان الشليح محل المؤلف، فقد ظلت في وضعية جيدة، مكتوبة بالأحرف الكفيلة على أوراق عادية (صفحة 29 x 21) وعلى شكل حلقات إذاعية، من الحلقة الأولى (وهي منشورة بالعدد 20 من مجلة "الشباب الجزائري" الصادرة في شهر فيفري 1961) إلى الحلقة 23.

وقد اطلع على هذه الحلقات قبلنا كل من الكاتب التونسي الحبيب شيبوب، وهو صديق حميم للمؤلف، والدكتور زهير إحدادن المحقق في تاريخ الصحافة الجزائرية، وكتب كل منهما كلمة تنويه لهذا العمل النادر للمؤلف.

لقد أراد الكاتب أن يقوم بمراجعة النص الإذاعي وتفتيحه ثم إعداده للنشر ككتاب لكن مشاغل الحياة، والظروف القاسية التي مر بها لم تسعفه في ذلك، وهي نفس الظروف التي حالت دون تحقيق أميته الأخرى، وهي تخصيص بحث آخر في الصحافة الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، والتي بلغت في ذلك الوقت أكثر من خمسين صحيفة، حسبما يذكر في الحلقة الأولى.

يبد أنه ومنذ إنشاء "مؤسسة مفدي زكرياء" التي وضعت من ضمن مهامها
المرحلة نشر وطبع تراث مفدي المغمور في حلة تليق بمقام شاعر الثورة الجزائرية
والغرب العربي، وإعادة طبع تراثه المنشور ليكون في متناول أيدي الأجيال
الحديثة، قد طلبت من الكتاب والباحثين المختصين أن يقوموا بواجبهم في هذا
الشأن، خاصة وألما توفر لهم كل ما يمكن توطيره.

ضمن هذا السياق اطلعت على هذه النسخة النادرة، ورحت أراجعتها حلة
حقة، ثم رحت أقارن التواريخ، حيث تكونت لدي فكرة أن المؤلف رغم محدودية
الإمكانات، وقلة المراجع في تونس نهاية الخمسينيات من القرن العشرين، إلا أنه
استطاع أن يحرر شيئا عظيما، فهو الأول من نوعه في تاريخ الصحافة بالجزائر،
وهو العبر عن حيوية الإنسان الجزائري ونجدته للبطش والتجهيل، وهو الذي بدأ
المرآة التي تعاني للكتابة الجزائرية. الخ

ورأيت أن إعداد هذا الكتاب للطبع - بعد مراجعة التواريخ والمعلومات -
يلتزم لحس الصنع الإذاعية، والتوجه بالخطاب إلى المستمعين، وهو ما قمنا به أثناء
عملية الجمع والتحقق، لكن أمانة للبحث العلمي، وحفاظا على الصياغة التي دولها
المؤلف، وتوفرها لمن أراد الرجوع إلى ذلك، فقد أئنا كل تلك الصيغ في الموامش
التي هي من وضع المؤلف وحده.

وبعد ذلك قمنا بتدوين الكتاب إلى ثمانية فصول، عملنا بكل حد على أن
تكون معبرة عن روح الكتاب، من خلال وضع العناوين المناسبة، ومن خلال
ترتيب لا ينجم عنه أي غموض أو لبس لدى القارئ.

وقد تناول الفصل الأول، ظهور الصحافة العربية في الجزائر، حيث تم
استعراض المرحلة الأولى من مسيرة الصحافة في الجزائر مع ذكر العناوين الصحفية
الثانية (المشتر - المصيح - الحق الزماني - الأخبار - كوكب إفريقيا - المغرب -
مجلة الإسراء).

وتتطرق الفصل الثاني إلى الصحافة المقاومة القلمية في الجزائر ومواجهة الاحتلال
وقانون الأندلسيين، كما تم استعراض صحف المرحلة الثانية من مسيرة الصحافة في
الجزائر التي تميزت بنوعين:

نوع مقاوم للاستعمار وهي: (الجزائر - المسلم - الإسلام - الهلال - الهلال
أيضا - البريد الجزائري - ذو الفقار - القاروق - أخبار الحرب - الإقدام -
الصديق).

وصحف موالية للاستعمار وهي: (النجاح - أسان الدين).

وتتناول الفصل الثالث نشأة الصحافة الإصلاحية ومعاركها الفكرية بواسطة
العديد من الوسائل "كنادي الترقى"، والحركات السياسية والثقافية "كجنة
الشمال الإفريقي" و"جمعية العلماء"، ثم يستعرض الصحف التي واكبت ذلك مثل
(المنتقد - الشهاب).

ويركز الفصل الرابع على مجلة "الشهاب" التي قادت معركة الانتماء خاصة
تلك المواقف المتعلقة بالتحسيس، وجمعتها الناجحة على فكرة الاندماج.

وتتناول الفصل الخامس صحيفة "النجاح" ومعركة التحرير العربية وضرورة
التفويض بالأمة، دون أن يغفل طرح قضية فلسطين.

أما الفصل السادس فقد تطرق إلى الصحافة الأفراد ومواصلة الإصلاح، وقد
ذكر بهذا الشأن الصحف المنادية بالإصلاح وهي: (صدى الصحراء - الحق).

أما الصحف المعارضة، فتأتي على رأسها (جريدة البلاغ الجزائري).

وكرس الفصل السابع لشيخ الصحافة ومقاومة القوانين الجائرة الشيخ أي
اليقظان، وصحفته: (وادي ميزاب - ميزاب... الخ).

وكان الفصل الثامن والأخير عبارة عن كرونولوجيا تستعرض الصحافة
الجزائرية التي لم يتمكن المؤلف من تقديمها بشكل مفصل.

منهج مفدي زكرياء في البحث:

اتبع المؤلف في كتابه هذا المنهج التحليلي التاريخي، حيث يقوم بسرد الوقائع التاريخية بمختلف تفاصيلها، وعادة ما تكون الواقعة التاريخية هنا هي تأسيس وميلاد هذه الصحيفة أو ححر ومنع تلك من الصدور، دون أن يغفل تحليل الظروف التي ظهرت فيها، أو تفحص النتائج التي آلت إليها.

ويؤكد المؤلف اتباعه هذا المنهج بقوله في أول حلقة:

"في أحاديثنا المتابعة نشرح عند تحليلنا لكل مرحلة من هذه المراحل أسباب اختيارنا لهذا التقسيم، والظروف التاريخية التي جعلت هذه الصحف ترجمانا صادقا عن الأوضاع السائدة في مختلف أطوار الحياة التي مرت بها."

وقد بدأ حريصا على تقديم كافة المعلومات حول هذه الصحيفة أو تلك، وتحليل تلك المعطيات وفق أسلوب لا يخلو من التشدد إزاء الأهراسيين، أو دعاة التحسيس والاندماج.

ولا شك أن مسألة التوازن بين الفترات التاريخية التي أشار إليها الدكتور زهير إحدادن في تقديمه لهذا الكتاب، تجد كل صيرورتها في هذا الشأن، إذ أنه إضافة إلى نظرة المراجع في ذلك الوقت، فإن المحرص كان شديدا من أجل استعمال كل الوسائل لتحرير الوطن، وعدم الخوض في القضايا الحساسة التي تشتت الأفكار وتصرف الأنظار إلى القضايا الثانوية.

كل ذلك جعل مفدي زكرياء للناضل الوطني الغيور، والفائد السياسي المحنك، أن يعمل على أن تكون كل جهوده مكرمة - حسب معتقداته ومبادئه الوطنية - على الفترات الحساسة والناضلة التي تدعم مطلقا الكفاح الوطني. وهي الفترات التي تركزت فيها الجهود من أجل جمع الصفوف، وتكوين عرى الأخوة والوحدة بين الغرائز.

الدكتور أحمد جدي
مدرس تاريخ في كلية العلوم الإنسانية والعلوم
بجامعة الجزائر

إصدار

أخي القارئ:

بين يديك، حلقات إذاعية، تتناول تاريخ الصحافة الجزائرية بقلم شاعر ثورتها المتشفرة - المرحوم مفدي زكرياء - فكان ألقاها في الإذاعة التونسية خلال العامين الأخيرين للثورة.

والذي يهمك منها، هو أن - مفدي - ليس شاعرا ملهما فحسب، وإنما له جوانب متعددة كثيرة منها: الجانب الصحفي الذي لا يتمثل في الكتابة الصحفية بصحف تونس والجزائر والمغرب وإنما بالممارسة العملية، حيث أن - مفدي - منذ صباه كان يعثي نفسه بإصدار صحيفة يومية صغيرة، تعالج القضايا الوطنية والقصرية بأسلوب عصري محب للقراء. ولكن لم تساعد الظروف على تحقيق طموحه الكبير، فإنها مكنته من مجهودين صحفيين لا يمكن نسيانهما بحال وهما: إصداره لجريدتي "الحياة" و"الشعب" اللتين لم تعمرا بسبب العنف الاستعماري.

ومن يطالع هاتين الصحيفتين يدرك ما لمفدي من ذوق رفيع، والعمق الصحفي، وقلم ناري ملتهب، حاد اللسان.

لذا كانت أحاديث مفدي عن الصحافة الجزائرية حديث المثلث الخبير، والناقد البصير، العارف بخباياها وأسرارها والمتتبع لمسيرتها تتبع الذي يقول للمحسن أحسن وللعمسي أسات، وللتاريخ القول الفصل.

ومهما يكن من أمر فإنك ستخرج من مطالعة هذا السفر معجبا بحيوية وجهاد صاحبه الذي وهب عمره لخدمة بلاده بكل ما أوتي من جهد، في جميع المجالات وعمسى الأيام تساعد على جمع تراثه وطبعه، فتكون أدينا الأمانة نحو شاعر المغرب العربي مفدي زكرياء رحمة الله عليه.

الحبيب شيبوب

تونس في 04/01/1993

نقطة

تعتبر هذه المجموعة من المقالات الإذاعية أول محاولة لكتابة تاريخ الصحافة الجزائرية الإسلامية. فلا نحس أنها كتبت ما بين سنة 1959 وسنة 1961 أثناء الحرب التحريرية، وفي هذا التاريخ لم يظهر الاعتناء بالكتابة عن الصحافة الجزائرية سواء كانت مكتوبة باللغة العربية أو باللغة الفرنسية، وسواء كانت استعمارية أو إسلامية. مفدي زكرياء أول من اهتم بدراسة هذا التراث الفكري الجزائري رغم الصعوبات التي كان يعرف أنه سيجدها. فمن جهة كانت الحرب التحريرية مشتعلة وكانت تفرض التزامات سياسية وفكرية لأبد من اعتبارها حتى في كتابة التاريخ، ومن جهة أخرى الوثائق والمراجع التي يعتمد عليها الباحث لم تكن متوفرة وحتى إذا توفر البعض منها فإنه يصعب أن يكون الاعتماد عليها مطلقا. ومفدي زكرياء يعلم كل هذا ولكنه يعلم كذلك أن الحديث عن الصحافة الجزائرية ليس هو إلا حديثا سياسيا يغذي الثورة الجزائرية ويقويها ويعرف بأصولها وفروعها. والصحافة الجزائرية شكل من أشكال الكفاح السياسي الذي خاضه الشعب الجزائري ضد الاستعمار. وإذا أخذنا باعتبار هذه الظروف، فإن هذه السلسلة من المقالات تأخذ أهمية كبيرة جدا، وقبل أن تكون وثيقة تاريخية، أو دراسة تاريخية، فهي شهادة عيان لرجل عايش الأحداث التي يحكي عنها وشارك في إيجادها وتطويرها.

إن مفدي زكرياء من مواليد السنوات الأولى من القرن العشرين واقترب شبابه بانطلاقة الصحافة الجزائرية الإسلامية قبيل وبعد الحرب العالمية الأولى وترعرع مع هذه الصحافة وفي كفنها، وعرف أفراحها ونكساتها وجمال مع رجالها وخاض أغوارها، فهو بهذا أحق الناس بالحديث عنها.

ونجد الكاتب يعطي أهمية أكثر للفترة الزمانية التي تشبع منها أكثر فهو يخصص 15 حصة من بين 23 المنشورة -اليوم- للسنوات التي عرفت ميلاد جمعية العلماء الجزائريين والحركة الوطنية

الأصلية يعني ما بين سنة 1925 وسنة 1930 في حين أنه لم يخص إلا 7 حصص قبل 1925
وحصة واحدة بعد 1930. ونحن نعرف أن الفترة التي جاءت بعد 1930 ثرية بالأحداث
الصحفية ومن بينها تلك التي عرفت بـ "جريدة الشعب" الناطقة باسم حزب الشعب الجزائري
والتي كان مفدي زكرياء ينزل رئاسة تحريرها، وقد يبدو هذا كقصير من طرف مفدي زكرياء
ولكن التمس في هذه السلسلة يرى أن مفدي زكرياء لم تساعده الظروف لكي يخص هذه الفترة
حصصاً أخرى مثل ما فعل بالفترة التي سبقتها.

ورغم هذا التمس فإن المؤرخ يعلم أن الفترة التي جاءت بعد سنة 1930 أقرب إلينا وأن
أحداثها الصحفية معروفة أكثر من الفترة التي سبقت 1930، فمن هذه الناحية تبقى أحاديث
مفدي زكرياء قيمة بما تكشف عنه من معلومات ووقائع وشروح وتحليلات تساعدها من جهة
أخرى على معرفة جوانب من شخصية مفدي زكرياء الشاعر والمناضل.

ولهذا يظهر أنه من الفائدة العامة وضع هذه السلسلة في متناول الجميع ونشرها بين القراء
حتى ينتفع بها العام والخاص، خدمة للفكر الجزائري والثراء للثقافة الجزائرية.

الدكتور زهير إحدادن

الفصل الأول

ظهور الصحافة العربية في الجزائر

مراحل الصحافة العربية في الجزائر:

إذا حاولنا استعراض تاريخ الصحافة العربية¹ بالقطر الجزائري وجدنا أنفسنا أمام ما يقرب من مائة جريدة ومجلة عربية صدرت بالجزائر من عهد الاحتلال الفرنسي سنة 1830 إلى يومنا هذا² عدى مجموعة الصحف الأخرى الجزائرية باللغة الفرنسية ربما بلغت الخمسين متورد لها حديثا خاصا بعد فراغنا من الحديث عن الصحافة العربية المحضة بحول الله³. ولا يسعنا أن نأخذ صورة صادقة عن هذه الجرائد والمواضيع التي تعالجها إلا إذا ألقينا نظرة خاطفة على الظروف التي صدرت فيها والملايسات السياسية والاجتماعية التي تكتنفها، إذ أن الصحافة في كل شعب ترجيع للأصداء المختلفة التي تتحارب في شتى مياديتها، ومرآة صقيلة تنعكس فيها الأحداث السياسية والاجتماعية التي تضطرب بها آفاق البلاد في مختلف مراحل نموها وبعائها.

وعلى هذا الاعتبار يمكننا تقسيم الصحافة العربية بالجزائر إلى خمسة أدوار ويمكن أن نسميها مراحل تاريخية:

- المرحلة الأولى: ما بين سنة 1830 عهد الاحتلال إلى سنة 1907.
- المرحلة الثانية: من سنة 1907 إلى سنة 1923.
- المرحلة الثالثة: من سنة 1923 إلى سنة 1936.

1 - نشرت الحلقة الأولى من "تاريخ الصحافة العربية في الجزائر" في صحيفة "كشبات الخوازي" الصادرة بونس، السنة الثانية، العدد 20 فيفري 1961. أما العناوين الفرعية فهي من وضع المؤلف.

2 - بين بقيل اليوم، يوم صدور الحلقة كمدخل في بحث الشباب فيفري 1961.

3 - في حدود معلوماتنا لم نستطع الظروف للوقوف لتسلسل هذه الأسماء.

* المرحلة الرابعة: من سنة 1936 إلى سنة 1954.

* المرحلة الخامسة: من سنة 1954 إلى سنة 1960.

وفي أحداثنا المتتابعة نشرح عند تحليلنا لكل مرحلة من هذه المراحل أسباب اختيارنا لهذا التقسيم، والظروف التاريخية التي جعلت هذه الصحف ترجمانا صادقاً عن الأوضاع السائدة في مختلف أطوار الحياة التي مرت بها، ونبدأ بالمرحلة الأولى.

أهداف السياسة الفرنسية :

ما كادت تستقر أقدام الجند الفرنسي ببعض جهات البلاد الجزائرية رغم المقاومة والمخربون المستمرة حتى أصبحت سياسة حكومة فرنسا تتطور حول ثلاث غايات:

الغاية الأولى: إقطاع الأرض للفرنسيين، والإتيان بأكثر عدد منهم إلى البلاد حتى تغدو أرضاً لائنية مسيحية بعد تحريرها من صبغتها العربية الإسلامية.

الغاية الثانية: حكم البلاد حكماً مباشراً لا تدخل لأهل البلاد فيه، فكانت بلاد الجزائر تحكم بادئ ذي بدء، بواسطة قادة جيش الاحتلال. وقد اشتهر الكثير منهم بأعمال التنكيل والمذابح الجماعية، وكان شعار المارشال "بيجو" السطاح الشهير "احتلال الجزائر بالسيف والمحرقات" السيف في رقاب العرب والمحرقات بيد المستعمر الفرنسي.

الغاية الثالثة: القيام بسياسة تعليم الشعب وتثقيبه في واجهتين:

- والجهة يقوم بها المشركون المسيحيون في المدن والقرى بإظهار الاستعمار الفرنسي في مظهر رسول الرحمة والسلام، وقد رصدت الحكومة ميزانية ضخمة لتعدي هذه الدعاية التي تقوم على التمدح والذم، واسطناع البر والإحسان إزاء الأهالي المعوزين، والمرضى والمجانين.

- والواجهة الثانية: إنشاء صحافة عربية تقدم ركاب الاستعمار وتشيد بمآثر فرنسا، وتسبح أعمالها، قصد تركيز الانتعاش والتغريب الشعب الجزائري الذي ما فتئ يقاوم المحتل ويثور ضد نفوذه في البلد بالطرق السلمية تارة وبالسلح تارة أخرى.

وقد عجزت الحكومة الفرنسية عن إيجاد عملاء ومضامير من المسلمين الجزائريين تستند إليهم أمر تحرير هذه الصحف وإدارتها، فاعتمدت على بعض الفرنسيين الذين كانوا من طلائع الحملات الاحتلالية الفرنسية إلى جانب الجهاد الشيعي المسيحي.

فيما يسجل تاريخ الصحافة في ذلك العهد أسماء: أدوار غزلان اليهودي، ومكتور باروكان، وبطرس فرطان المسيحيين، لا يسجل إلا اسم محمود كحول من المسلمين، ومحمود كحول هذا خلقه الاستعمار خلقاً مثالياً، وصنع بوقاً من أصدع أبواقه، إلى أن حطمه سنة 1936 ونهب به قربانا للمؤامرة التي دبرها مدير الشؤون الإسلامية إذ ذاك ضد الحركة الإصلاحية من وراء ذلك.

في ذكر الصحف الأولى

ونحن نذكر أسماء جرائد هذه المرحلة ملهبة سيئات عن محرريها والأحرار التي تبارلتها مع الاستدلاء ببعض النصوص المدرجة فيها كنموذج حي من أيدي القارئ الكريم.

أولاً - جريدة المبشر

أصدرتها الحكومة سنة 1847¹ وجعلتها اللسان الرسمي للولاية العامة، وبقيت كذلك إلى سنة 1927 أي ما يقرب من قرن، إلى أن استيفلت بالجريدة الرسمية. وجريدة "المبشر" تطبع باللغتين العربية والفرنسية، وبشرف على تحريرها مدير مصالح الشؤون الإسلامية بالجزائر، وقد كان محمود كحول من أبرز محرريها، وهي نشر البلاغات ونصوص القوانين والقرارات، والنصوص القضائية، ولا تقتصر على هذا بل تتناول مواضيع أخرى سياسية في محيط التحليل السياسي وتبوير السياسة الاستعمارية بالجزائر.

1 - في النص الأصلي للتوثيق: كان مبدعها سنة 1836 وتولتها سنة 1930 بعد أن تلقت الترخيص من قبل الحكومة الفرنسية. كما يذكر التوثيق فيما بعد، وهي تلك صحيفة نافذة بالفرنسية في الشرق وأول صحيفة في المغرب العربي، أنشأها السلطات الفرنسية بهدف تحييد الجزائريين وجعلها امتداداً لسلطانها في تلك من الأقاليم. وهذه الصحيفة قد كانت هذه الصحيفة أحد أدوات السياسة الاستعمارية لفتح القلوب المغلقة، وعندما تم تعليق إصدارها توقفت عن الصدور سنة 1927 وقد تورت بأكثر من 1000 نسخة منها في المكتبة العامة في الجزائر.

وقد صارت تصدر باللغتين العربية والفرنسية ابتداء من يوم 5 شوال سنة 1263 هجرية الموافق لـ 15 سبتمبر/أيلول سنة 1847 وكان محررها الأول الشيخ أحمد البدوي إلى سنة 1886 حيث خلفه السيد علي بن عمر، ثم بن سماعة ثم السيد محمد بن مصطفى بن الخوجة ثم السيد شرشالي ومحمد بن أحمد وغيرهما حتى انتهت إلى الشيخ كحول سنة 1907.

وقد تكلمت عن المشر حريدة "الحاضرة" بتونس في عددها 408 المورخ يوم 7 جويلية/تموز سنة 1896¹ فقالت:

"وردت لنا من تلمسان القصيدة الآتية من إنشاد الأديب البارع الكامل السيد أحمد ابن سعيد الحسني في تهنئة الفاضل الماجد الشاعر البليغ أبي المحاسن السيد محمد بن مصطفى ابن الخوجة الجزائري الكاتب في الولاية العامة ومحرر الجريدة الرسمية (المشر) بمحلة التدريس في جامع سفير من عاصمة الجزائر. ولا يخفى أن الممدوح من فضلاء المششين وله الرسائل العديدة في مواضيع شتى كرسائله الموسومة "بالأكثرات في حقوق الإناث" والرسالة المفيدة التي ألقاها في وجوه التحقق من الوباء. وللملك أحينا المشاركة في تهنئة بإدراج القصيدة."

ثم نشرت القصيدة.

وقد تكلمت أيضا عن "المشر" حريدة "الترقي" التونسية الصادرة في 5 نوفمبر/نشرين 2 سنة 1905 حيث قالت عن محررها آنذاك:

"سرنا بحر تسمية رفيقا السيد شرشالي محمد بن أحمد محرر حريدة المشر الرسمية بالجزائر فاضيا عدلا بالمنصورة وقد كان تلميذا بمدرسة الجزائر وله منها شهادة عليا في اللغة العربية كما أن له خبرة واسعة باللغة الفرنسية فتقدم لهننا لرفيقنا الكريم وتتمنى له طول السعادة والبقاء."

ثانيا- جريدة النصيح

صدرت بعاصمة الجزائر في حدود سنة 1899 أصدرها مستعرب فرنسي من أصل يهودي اسمه (ادوار بوزان) كان هذا الرجل من موظفي الولايات العامة وأحيل على المعاش، وهو إلى جانب ذلك يشتغل بالتأليف، ومن مؤلفاته قاموس فرنسي عربي صغير باللغة الدارجة. كانت هذه الجريدة صغيرة الحجم كبيرة الحروف تحري على أخبار ملفقة ودعاية مزيفة على بعض الحوادث المحلية والتعليق عليها بما فيه خدمة للاستعمار الفرنسي وتضليل للقراء المسلمين ونطع في مطبعة صغيرة يملكها مؤسس الجريدة.

ولم يقع عليها أي إقبال حتى كادت تكون من التكرات التي لا يشعر القارئ بوجودها. وساعد صاحب الجريدة المذكورة في التحرير أحد تلامذة المدرسة الرسمية التي سميت فيما بعد بالمدرسة الثعالبية. ونعطلت هذه الجريدة قبل الحرب العالمية الأولى¹.

ثم أعادت الولاية العامة بعضها من جديد بعد الحرب تحت إدارة الشيخ "صواخ"² ومن محرريها في هذا العهد مفتي الجزائر المشهور الشيخ أبو علي الرواوي بعد رجوعه من الشام فارا بنفسه من عدوان الأتراك.

ثالثا- جريدة الحق الوهراني

صدرت هذه الجريدة بالفرنسية في مدينة وهران سنة 1902³ لصاحبها مسيو "طافقي" المستشرق الذي كان قد قضى زمنا طويلا بمصر حتى أنه سمى ابنه السعدي. وكانت معتدلة اللهجة ذات مشرب نزيه.

1 - صدرت صحيفة "النصح" يوم 1899/10/11 بالجزائر العاصمة وتوقفت عن الصدور يوم 1902/5/21
2 - في ذلك المذكور زعموا احتلال أن صحيفة "النصح" ثانيا أسسها الشيخ صواخ سنة 1921 ويقال أنه ليست ورقة صحفية الأولى
3 - صدر لأول مرة من صحيفة "الحق" الوهرانية سنة 1901 وتوقفت سنة 1914 وكانت إلى غاية سنة 1912 تصدر بالفرنسية ويدا مشطها العربي بتاريخ 1912/5/01

لتوسيع وسائلها ونشر النفوذ الفرنسي في اللغة في الشعوب المنشورة إليها، ثم إن عقد الاتفاق تضمن أمورا هامة تتعلق بمعاملة وأساليب محاكمة الرعايا الفرنسيين من سكان المغرب والبلاد الجزائرية والتونسية، وقد تطبق حسب الإدارة الفرنسية لسياسة هذه المسائل الموقوفة منذ حين.

— ولعل القارئ الكريم نموذجاً عن الأخبار المنشورة في هذه الجريدة وفي نفس العدد: (المغرب الأقصى: حضور الأعراش)

"خرج الجنرال هني بقوة من الصباحية فحال جولة سياسية وحربية، وجاءه رسل الأعراش المراكشيين "زايان آل آيتو" طلبوا الأمان بشروط. وقد أشعر كومنندان "قصة تادلة" بأن أعراشا من برابرة الحمال اغتصبوا قطعانا من المواشي للأعراش الخاضعة، فوجه لهم جيش من أشباغ "آيت رندا" وعضده بفصيلتين من الصباحية فالحرم الثوار وقروا إلى الحمال.

سادسا- جريدة المغرب

صدر العدد الأول من هذه الجريدة بعاصمة الجزائر يوم 10 أبريل سنة 1903¹ ومؤسسها هو "بطرس فونطانا" أحدثها ليشتغل بها المطبعة الحرة التي أضافها إلى مطبعة الفرنسية وطبع بها بعض الكتب كرحلة الورتيلاني وغيرها من الرحلات، وهي أسبوعية الملحق بجريدة البشير الرسمية لأنها تطبع على نفقة الولاية العامة ويحررها السيد مصطفى الرشاني الموظف بالولاية العامة الجزائرية، ويقول الشيخ عمر راسم في رسالته المؤرخة في 13 رجب سنة 1382 التي بعث بها إلى المرحوم البشير القورلي بتونس:

"إن سبب نشر هذه الجريدة هو أن الوالي العام "جونار" الذي كان أحد أعضاء الوفد الفرنسي لدى شركة قناة السويس كان كثيرا ما يتردد على مصر ولاهتمامه بشؤون الجزائر تحدث مع الشيخ علي يوسف فيما ينشره بجريدة (المؤيد)

من الانتقادات نحو معاملة فرنسا لرعاياها الجزائريين، تلك الانتقادات الواردة عليها من بعض المراسلين الجزائريين، ووجد منه تأييدا لما نشره لمكاتيبه، وقال إن سبب ذلك عدم وجود جريدة بالجزائر. فالتفت جونار تلك الفرصة معتقدا أن سبب ذلك هو عدم وجود جريدة عربية بالجزائر من شأنه أن يرضي الجزائريين فيثرون فيها ما يهمهم وبذلك يصرفون عن الالتفات إلى الخارج ويستغنون عن النشر في الصحافة الشرقية التي كانت لا تتردد على الجزائر إلا عن طريق التهريب والخفاء لأن الحكومة كانت تمنح دخولها، كل ذلك دعاء لإحداث جريدة (المغرب) التي كانت تنشر الأخبار الرسمية أو ما تنقله من كتب الأدب والوعظ ومشايخ المدرسة وفي مقدمتهم الشيخ عبد القادر المهاوي رحمه الله.

وقد تعرضت جريدة "الحاضرة" بتونس لذكر جريدة "المغرب" الجزائرية في عددها رقم 733 الصادر في 12 ماي 1903 فقالت تحت عنوان "صحافة الجزائر":

"اتصلنا بالعديد من الأول والثاني من صحيفة المغرب التي كنا أحيونا بظهورها في عالم المطبوعات بعاصمة الجزائر، وهي صحيفة سياسية أدبية علمية اقتصادية تجارية تصدر يوم الثلاثاء والجمعة من كل أسبوع مطبوعة مسيو فونطانا صاحب امتيازها، الاشتراك منها في تونس 15 فرنكا في السنة و08 فرنكات في السنة أشهر و05 فرنكات في الثلاثة أشهر وقد نصفحنها فالفيناها جريدة هبة صحيحة العبارة طافحة بالإفادات التجارية والأخبار السياسية، فترحب بقدمها وترجو لها الإقبال".

سابعا- مجلة الإحياء

صدرت هذه المجلة بعاصمة الجزائر يوم 14 فيفري سنة 1907¹ وهي مجلة أدبية اجتماعية، تعد أول صحيفة فصححة عربية صدرت في الجزائر في تاريخ إنشاء الصحافة العربية بها إلى ذلك العهد.

¹ - تولدت مجلة "الإحياء" من الصدور يوم 14/5/1907

ومؤسسة المجلة فتاة فرنسية أسهم والدها: "دوريو" الذي كان أستاذا بالمدرسة الفرنسية الثانوية بمدينة البليدة، فهو رجل متصف نزيه تعلمت ابنته التي سميت نفسها فيما بعد "جمانة رياض" اللغة العربية كتابة ونطقا، حتى أصبحت مشغوفة بها إلى حد بعيد، وساعدها على تجويد هذه المجلة بعض تلاميذ المدرسة، ولم تصدر منها إلا بعض الأعداد، حيث أن مؤسستها "جمانة رياض" ماتت قبل أن تبلغ العشرين ربيعا من عمرها، وقد ترجم لها المؤلف "فيليب دي طراز" في كتابه "تاريخ الصحافة العربية" في الجزء الأول صفحة 13 وفي الصفحة 25 من الجزء الرابع قال:

"وهذه السيدة الفرنسية الأصل هي منشئة باكورة المجلات العربية في عاصمة الجزائر، وتعرف في كتاباتها ومؤلفاتها باسم (جمانة رياض أو فاطمة الزهراء) وقد أحرزت الجائزة الأولى في آداب اللغة العربية عام 1911 بين جميع طلبة مدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس، وكانت وفاتها عام 1914 في العاصمة المذكورة فكان أسى شديدا لدى عارفي فضلها من الأدباء والمستشرقين ولدينا من أثرها رحمها الله تعالى، رسالة مكتوبة، في الجزائر ما بين عام 1888 وبين عام 1907 حيث تبدأ المرحلة الثانية، وهي مرحلة الامتعاظ والامتناء من التصرفات الاستعمارية الجائرة في بلاد الجزائر، وبداية التعلم والاحتجاج بالقلم، وقد تبين من استعراضها لوصف المرحلة الأولى حيث كانت الحكومة الفرنسية ترمي من وراء إنشاء هذه الصحف إلى تركيز الفكرة الاستعمارية بالبلاد، وحمل الشعب على استساغتها، والافتناع بعدالة أغراضها، وقراءة رسالتها الدينية، هذا إذا ما استثنينا طائفة من هذه الصحف كصحيفة "الحق" الوهراني ومجلة "الإحياء" اللتين كانتا تتمتعان نسبيا بحماية من الزعامة وصدق اللهجة والمعارضة المحتشمة¹.

الفصل الثاني

1 - جاء في حاتم هذا المجلد: وهذا هو تاريخ صحافة الجزائر القديم إلى القديم في سلكها الألبا حيث لم يبق استعراض بلغة مرادف تاريخ الصحافة الجزائرية والجزائرية.

صحافة المقاومة القلمية في الجزائر

في مواجهة الاحتلال :

كما أسلفنا الحديث¹ عن المرحلة الأولى من تاريخ الصحافة العربية بالقطر الجزائري أعني المرحلة المتراوحة بين عهد الاحتلال سنة 1830 وبين عهد التحرير وتركيز أقدام الاستعمار بوسائل الإغراء والترغيب نارة ووسائل القمع والترهيب نارة أخرى واليوم نحدث القارئ الكريم عن تاريخ الصحافة الجزائرية في مرحلتها الثانية مرحلة المقاومة القلمية والكفاح السياسي بعد المكافحة بالغضب الصاعق طيلة سنوات.

فالجزائر المسلمة العربية الضنينة بتراثها وتراثها على الأجنبي الغاصب، وبدينها على محاولات التنصير والتمسيح التي يقوم بها الآباء البيض في أقصى البلاد، لم يفت من عضدها، أو يخمد من جذوة حماسها شيئا، رغم تلك الوسائل الشيطانية العجية إلا أنها ظلت صامدة كالقدر، تتحدى الأعطار، وتسخر من الأحداث العادية، وتصرخ في وجه المستعمر الغاصب بسلاحها، وقلمها، ولسانها. فللمقاومة الجزائرية العتيدة قد استقرت في الميدان، منذ سقوط السيف من يده، وهي مشحنة بالجراح، وليس لأحد أن ينسى تلك المقاومة الصارمة التي وقعت بجنوب البلاد الجزائرية، خاصة بواحة الزعاطشة سنة 1853 ولا واقعة (الأغواط) المشهورة، ولا مقاومة (أولاد سيدي الشيخ) التي قام بها سنة 1864 بطل من أبطال الجنوب الغربي

1 - في النص اللامع بعد عبارة (كما أسلفنا الحديث في المقتضب السابقين من المرحلة الأولى)

للثورة الجزائرية الباشا سليمان بن حمزة بن بونكر، ولا ثورة جبال المرحمة إلا معقل الأمة والشرف سنة 1871 تحت قيادة الباشا السيد الحاج محمد المقراني وأخاه الشيخ محمد بن الخداد، ولا انتفاضة السيد محمد البدوي في نفس الأمة وبالعاصمة الجزائر نفسها، حيث وقف في ساحة الحكومة، وأعلن استقلال البلاد في نفوسها المرار العديدة نيولاً حامية على الفرنسيين الغاصيين وأهمها ثورة 1953 التي كانت مقاومتهم للاستعمار مستمرة وكانت الحرب بينهم وبين فرنسا محلاً وكانت الوقائع متوالية فما انتصر الفرنسيون مرة إلا أعاد الجزائريون الأحرار الثورة مرة أخرى إلى أن كانت الثورة المقدسة الكبرى سنة 1954.

أشكال المقاومة السياسية:

أما للمقاومة السياسية فقد اتخذت أشكالاً مختلفة منذ توطن قدم الاحتلال بالبلاد إلى قيام الثورة الكبرى، وقبل أن نتكلم عن دور الصحافة العربية في هذه المقاومة، يمكننا أن نقسم مرحلة المقاومة الأولى "اللاحرية" إلى ثلاثة أدوار:

— دور سلمي

— ثم دور إغالي أول من 1905 إلى 1918.

— ودور إغالي ثلث من 1918 إلى 1935.

الدور السلمي:

كانت المظاهرات الأولى التي قام بها الجزائريون بعد إسقاط الثورات المتعاقبة، هي للهجرة الجزائرية للبلاد الإسلامية الحرة، فما كادت جموع الجزائريين تعتقد أنه حكم عليها بالذلة والموت تحت الشو الفرنسي القوي، حتى أعلنت لغادر البلاد إرغاعات ووحدات فقتل بعضها البلاد التونسية الشقيقة، وسار البعض الآخر إلى

الإسكندرية وبلاد الشام وفلسطين حيث وجدوا إخواناً في الله والعروبة القويين لهم أقم غير غرباء في بلاد إسلامية عربية تقاسمهم الأفراح والبؤاس، ولم يزل أبناء هؤلاء المهاجرين يعبرون تلك الجهات كمواطنين صالحين. ولما أعلنت فرنسا سنة 1912 قانون التحديد الإحصائي للمسلمين ازدادت هجرة الجزائريين إلى البلاد الإسلامية الأخرى كي لا يقاتلوا تحت الراية التي حاربوها عشرات السنين.

الدور الأول الإغالي:

— حمدان خوجة

قبل أن نتحدث عن المقاومة الصحافية نجدر بنا "صيالة لرسالة التاريخ" أن نتحدث عن السيد حمدان عثمان خوجة¹، فلقد كان أول جزائري رفع عقوته بالاستحجاج الصارخ منذ فجر الاحتلال الغيبي، إذ أوفده أهل مدينة الجزائر سنة 1832 على رأس وفد يطالب حكومة فرنسا:

— بالإقلاع عن مظالمها وشرورها

— وإرجاع ممتلكات المسلمين إلى أيديهم

— والاعتراف لهم بحق الحياة.

وقد ترك لنا هذا الشهم الكريم أقدس وثيقة، من أئمن وناقى التاريخ الحديث، إذ ألف كتاباً ضخماً سماه "مرآة الأحوال" نقله إلى الفرنسية أحد الكتاب السابقين² وطبع في مغلط ضخمة سنة 1833³ بمدينة باريس وما انتار به هذا السفر الجليل:

1 - حمدان بن عثمان خوجة، كاتب وزعيم سياسي، ولد بالجزيرة العباسية وهاجرت له في طوم الله والظفر والشمسة والتاريخ والطب والفن اللغات التركية والفرنسية والإنجليزية وله اطلاع واسع على الأفكار الأوروبية والفرنسية والبريطانية التي كانت تروى من يدالي حيون، دار العديد من البعثات الأوروبية منها منذ الستة 1820 رار فرنسا وشارت بأوروبا هذه 17 سنة استك حيوياً بكتاب أدباء ومفكرين عصر النهضة الأوروبية وجد احتلال الجزائر سنة 1830 ليس لها الصلة التي تصور أول حزب سياسي جزائري للقومية والاستعمار وحظ بالبلاد وراسل ملك فرنسا على أن فرنسا تقيم لها من 1833 - 1836 ثم إلى القسطنطينية حيث انترف على لمرور هذا صحت وهو بذلك أول صحفي جزائري ورأس لمرور حريدا (تتروم وقائع) من مؤلفات كتاب (التراف) سنة 1833 وهو حوجة لمرور في العام الفرنسي وكتاب والده المصنوع والآباء في الأحرار من فرنسا وكتاب (مسكنة العارف).

2 - من قام بمساعدة حمدان خوجة في ترجمة كتابه إلى الفرنسية هو حسونة الدين لمرور في العام 1833 وكان يكون لمرور له عقد أن لمرور مع يتي إلى طرابلس الشام.

3 - صدر كتاب لمرور سنة 1833 بباريس، ونشر 1883 كما كان في المخطوط.

أ- إثبات أن عدد سكان القطر الجزائري كان عند الاحتلال عشرة ملايين من
القبائل (والسيد حمدان هذا كان المدير بمصلحة الضرائب في الحكومة الوطنية
الجزائرية قبل الاحتلال).

ب- سجل أعمال اللصوصية والنهب التي قام بها الجند الفرنسي، وصور أشنع
صورة لتلك المنكرات التي ارتكبتها فرنسا دون وازع من ضمير، وأثبت بوثيقة
فرنسية على يد عضو فرنسي أن الفرنسيين كانوا يسرقون عظام موتى المسلمين من
القابر الإسلامية، ويورسلون بها ضمن عظام الحيوانات لمعامل تكرير السكر
فرنسية.

ج- بيان عن الأملاك والأوراق المصادرة التي اختلسها الطغاة أثناء الاحتلال،
وحكاية ما رأى المؤلف منها رأي العين.

وقد رجع السيد حمدان من فرنسا خائبا بعد المجهود الذي بذله ولم يرجع
الاستعمار عن عهده بل أعمن في طغيانه وبقي كتاب "مرآة الأحوال" مرآة
للأجيال.

وحاء دور الصحافة في المقاومة نتيجة لأحداث سياسية كثيرة عطفة بالقطر
الجزائري منها أن فرنسا أحدثت سنة 1901 مجلس النواب المحلي، إذ اعترفت
فرنسا للجزائر بمبدأ الاستقلال المالي صوريا، إلا أن تلك المجالس كانت تتكون من
ثلاثين فرنسيا إزاء ثلث من الجزائريين، بعد تدخل الحكومة في انتخابهم تدخل
ساحق، لكن النهضة التركية أو الانقلاب العثماني الذي تسميه أوروبا إذاك، وفي
طلبعتها فرنسا، "حركة شباب الأتراك" Mouvement Des jeunes Turques هذا
الانقلاب العثماني قد أحدث تغييرا في حالة البلاد المعنوية. وكان العدوان الطلياني
على ولايتي طرابلس وبرقة ضغطا على الإهالة فأخذ المسلمون يتململون ويتذمرون،
ولشأت في البلاد صحافة ضعيفة أحدثت نعر عن استياء الرأي العام الإسلامي في
حالاته الوحشية.

قانون الأندلس

أصدرت الحكومة الفرنسية آنذاك قانونا استثنائيا خاصا يسمى بقانون
"الأندلس" يطبق على المسلمين، فقط فكانت أهم بنوده:

1. يعاقب بالسجن كل من لم يدفع الضريبة حالا.
2. يسجن كل من سكن في حجة نائية ويحطم بيته.
3. ومن اجتمع مع إخوانه فكانوا فوق الخمسة عوقبوا بتهمة عقد اجتماع
دون ترخيص.

4. لا يمكن للجزائري أن ينتقل من بلدة إلى بلدة أخرى وإن كانت مجاورة له
إلا بإذن خاص.

أما القبائل الجزائرية كلها في السهول وفي الجبال، فقد كانت خاضعة لحكم
(الضمان الجماعي)¹ بحيث إذا احترقت غابة أو وقعت حناية فسائر أهل القبيلة
شركاء في المسؤولية.

وهذا الجو السياسي الجديد مع ما يكتنفه من أحداث في الشرق وما يتأجج
في صدر كل جزائري من ثورة على العنف والعدوان، كل ذلك كان عاملا يبعث
صحافة عربية بالبلاد، مثل "المسلم" و"الإسلام" و"الفلال" و"الإقدام" و"الفاروق"
و"الصديق" و"البريد" الجزائرية و"دو الفقار" وكما كان باعنا رجالا رجال
مكافحين أمثال "أحمد بن إسماعيل بوضربة" و"الحاج عمار" و"الصادق دندن"
و"عمر قندور" والأمير "عالم" و"ابن الرحال" و"البهلول" و"التاجر محمد بن بكير"
ومحمد عز الدين الغلال وأبي منصور الصنهاجي وغيرهم.

ولم تقف الحكومة مكتوفة اليدين إزاء هذه الانتفاضة الجديدة على صنعها
فكانت تساند بعض المرائد كالتحاج ولسان الدين وتستثني البعض الآخر كأخبار

1 - لغة ربة أن يقول "المسؤولية الجماعية" La Responsabilité collective

الحرب لتقيام سياسة التضييق التقليدية التي كانت أن تكون من انحصار الاستعمار في كل بلد بنفسه بأقداره القليلة غير عالة أن تلك السياسة تعود وتنتج للعكس كالمرب الذي يقول علوي.

في ذكر صفح المرحلة الثانية:

وعلى ضوء هذا الإطار التاريخي الذي قدمناه بين يدي القارئ الكريم نبدأ من صفح هذه المرحلة حسب الترتيب الآتي:

أولاً- مجلة الجزائر:

أُنشأت هذه المجلة بعاصمة الجزائر وصدر العدد الأول عنها يوم 27 أكتوبر تشرين أول 1908 أنشأها الفنان المرحوم الشيخ عمر راسم ولم يتمكن إلا من إصدار عددين منها فقط وذلك لانعدام المطابع العربية بالجزائر. حيث أن كل الحروف التي تمكنها من تصفيف مجلة لم تكف إلا لطبع أربع صفحات ولذلك كانت صغيرة الحجم.

وقد صادفت هذه المجلة إقبالا عظيما لأنها كانت تعالج مواضيع حية كالاحتجاج ضد التعبد الإمبرياري وفداحة الضرائب - وكان على الجزائر آنذاك الشيخ محمد السعيد بن زكري، قد طلب من صاحبها أن يحرر منشورا كرسالة يحضها بخط يده تنشر في المجلات للدعاية لها وترغب الأمة في قرائها. وقد صدر لها الحكومة الفرنسية بعد أشهر من ولادتها لصدق لمحتها وإقبال الشعب على اقتنائها.

ثانيا- جريدة المسلم:

صدرت هذه الجريدة بعاصمة الجزائر يوم 14 أكتوبر (تشرين الأول) سنة 1909 وكان مقرها السيد "دليس" ولم تعمر طويلا بحيث كانت الإدارة تعاقبها إلى أن احتضت أنفاسها بعد سنة أشهر من صدورها.

ثالثا- جريدة الإسلام:

صدرت بعاصمة الجزائر يوم 18 ديسمبر (كانون الأول) سنة 1909 وكان مقرها الوطني السيد الصادق دندك وكان يشهد فيها الحملات ضد الإدارة ويخرج بلهجة صادقة ضد السياسة العنصرية التي كانت تسلكها فرنسا في الجزائر قصدت إعداء والبعضاء بين الطوائف الإسلامية الشاذية في البلاد. وقد صدر لها الحكومة بعد سنة من صدورها كشفا مع سائر الصحف العربية ذات النزعة القومية الصادقة¹.

رابعا- جريدة الهلال:

صدرت هذه الجريدة ببلدة سكيكدة من مراسي عمالة قسنطينة أنشأها المستشرق المغربي "اندراوس لانتو" يوم 30 أبريل نيسان سنة 1910² وكانت لهاجم بلسة سياسة الحكومة التعسفية إزاء الأهالي المسلمين وتطالب في مجلة حيلة وإلغاء قوانين "لاندجنانا" الاستثنائية الجائرة السلطة على السكان المسلمين خاصة وقد ضايقها الحكومة حتى أصدرت أمرا بتعطيلها في أكتوبر (تشرين أول) سنة 1911.

خامسا- جريدة الهلال أيضا:

بعد احتجاج جريدة الهلال التي كان يصدرها السيد اندراوس لانتو إثر قرار تعطيلها، أنشأ السيدان الصادق دندك وعمر الدين القلال بعاصمة الجزائر جريدة تعمل باسم "الهلال" وذلك يوم 2 أوت سنة 1913 ومثلت الجريدة مسلك سميتها للزودة فكان لها نفس المصير الذي عرفته من لدن الإدارة الاستعمارية بالجزائر.

1 - صدرت جريدة "الإسلام" ببلدة سكيكدة من مراسي عمالة قسنطينة أنشأها المستشرق المغربي "اندراوس لانتو" يوم 30 أبريل نيسان سنة 1910² وكانت لهاجم بلسة سياسة الحكومة التعسفية إزاء الأهالي المسلمين وتطالب في مجلة حيلة وإلغاء قوانين "لاندجنانا" الاستثنائية الجائرة السلطة على السكان المسلمين خاصة وقد ضايقها الحكومة حتى أصدرت أمرا بتعطيلها في أكتوبر (تشرين أول) سنة 1911.

2 - صدرت جريدة "الهلال" ببلدة سكيكدة من مراسي عمالة قسنطينة أنشأها المستشرق المغربي "اندراوس لانتو" يوم 30 أبريل نيسان سنة 1910² وكانت لهاجم بلسة سياسة الحكومة التعسفية إزاء الأهالي المسلمين وتطالب في مجلة حيلة وإلغاء قوانين "لاندجنانا" الاستثنائية الجائرة السلطة على السكان المسلمين خاصة وقد ضايقها الحكومة حتى أصدرت أمرا بتعطيلها في أكتوبر (تشرين أول) سنة 1911.

وهي جريدة أسبوعية إخبارية أصدرها بعاصمتها الجزائر السيد محمد عز الدين القلال يوم 28 أوت/ آب سنة 1913¹ وقد ترجم لصاحبها المؤلف السيد قليب دي طرزي في الصفحة 260 من كتابه "تاريخ الصحافة العربية" فقال:

"بعد هذا الأديب من أكتب الصحفيين في المغرب الأوسط وأرقاهم، وقد تطلعت فقطم تقريرا شعريا لكتابنا هذا فقبلناه بالثناء الوافر ونشره بمزيد الافتخار."

وقد تكلمت عن السيد عز الدين القلال "إظهار الحق" التونسية في عددها رقم 91 المخرج يوم 2 محرم 1324 الموافق ليوم 25 فيفري شباط سنة 1906 ويتبين من كلامها أن السيد محمد عز الدين القلال كان في ذلك العهد مديرا لجريدة تسمى "الاتحاد" غير أننا لم نعر على ذكر هذه الجريدة في أي مصدر من المصادر التي بين أيدينا، قالت الجريدة:

"حل في هذا الأسبوع بالديار التونسية الفاضل الوحيد السيد عز الدين القلال صاحب امتياز جريدة الاتحاد وقد تراكب مع جناب المسير فيكتور بارو وكان مدير جريدة "الأخبار" الجزائرية وصار محررها الأول وقد صاحبه في هذه زيارة المدير المذكور حيث بقيما بين ظهراني أسبوعا ويتوجهان معا إلى الديار الباريسية لتقضاء مهمات سياسية فرحب بقدميهما وسأل لهما السام في الضعن والإقامة."

سابعا- جريدة ذو الفقار :

صدرت هذه الجريدة بعاصمة الجزائر في أكتوبر/ تشرين الأول سنة 1913² اشترك في إنشائها السيد أبو منصور الصحاحي وعمر راسم، والأول هو صاحب امتيازها، أما الثاني فكان محررها ويكتبها ويصورها بيدها وهي جريدة انتقادية

1- أول جريدة "جزيرة الجزائر" من قبل السيد محمد عز الدين القلال في 28 أوت 1913.
2- صدر أول عدد من جريدة "ذو الفقار" في 10 أكتوبر 1913.
هو عمر راسم، أما أبو منصور الصحاحي فهو أحد أعضاء اللجنة التنفيذية في جريدة "الاتحاد".

منظرة كانت تحمل الحملات الشعواء على الصهيونية والحقبة المظلمة وكان محررها يحاول أن يقتدي بالإمام محمد في إصلاح المجتمع الجزائري، ولم يصدر من هذه الجريدة غير أربعة أعداد، وتوقفت في الصدور، لأن الإدارة الاستعمارية عذبت صاحبها وأرادت أن تفرض عليه ما لا يوافق عليه وذلك إثر ظهور بوادر الحرب العالمية الأولى.

ثامنا- جريدة الفاروق :

صدر العدد الأول من هذه الجريدة بعاصمة الجزائر يوم 28 فيفري (شباط) سنة 1913¹ وهي جريدة عصبية علمية إخبارية اجتماعية أدبية مصورة تصدر كل يوم جمعة، اشترك في إنشائها السيدان أبو حفص عمر بن قنور وعمر راسم، فالأول كان محرر قسم الأخبار منها والثاني كان محرر افتتاحيتها بلون إمضاء وهو الذي اختار لها هذا الاسم حيث أن السيد عمر بن قنور كان يشتغل مصفقا مطبعة "كريواشو" الإيطالي، رغب من زميله عمر راسم أن ينشئ جريدة لمساعدته فأجابته لذلك. إلا أن المعاشرة لم تطل بين الزميلين فانسحب عمر راسم تاركا زميله عمر بن قنور وحده على رأس الجريدة إلى أن اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى، ففر إلى مدينة الأغواط بجنوب الجزائر ومكث هناك كامل مدة الحرب، وما وضعت الحرب أوزارها سمح له بالعودة إلى العاصمة الجزائرية، حيث استأنف نشاطه الصحفي وأصدر "الفاروق" من جديد في شكل مجلة، وكانت الجريدة واحدة تطبعان بالمطبعة الإيطالية المذكورة وهي مطبعة حمربة.

ثامنا- جريدة أخبار الحرب :

أصدرت الحكومة الفرنسية هذه الجريدة بعاصمة الجزائر في الأيام الأولى من قيام الحرب العالمية الأولى سنة 1914 وكان محررها بالولاية العامة بعض عملاء مصالح الشؤون الأهلية وفي مطبعتهم بمحيط كحول.

1- أول جريدة الفاروق من الصدور في 28 فيفري 1913.



وتطبع بالطبعة الحجرية وتنتشر فيها، عدا البلاغات الحربية، مقالات طويلة في الدعاية لفرنسا وحلفائها واستدراج المسلمين للتطوع في الحرب، وقد كان عددنا الأول خاصا لنشر الفتاوى الدينية والتوصيات التي كانت توحى بها الإدارة الفرنسية إلى الموظفين الرسميين في المساجد والزوايا وإلى أولياء الأمر الخياليين في كل من تونس والمغرب الأقصى وقد صدرت ذلك في مثال عريض بعنوان:

"خالص صدق مسلمي إفريقيا لأم أوطانهم الأمة الفرنسية" وبعد أن حمل الكاتب على تركيا وأتور باشا (جان تورك) لدخول تركيا إلى جانب ألمانيا في الحرب قال:

"أما المسلمون القاطنون في المستعمرات الفرنسية بأفريقيا، بين رعايا الحماية، فقد اتهموا هذه الحادثة فرصة لإفصاح عن صدقهم التام ومحبتهم الأكيدة لفرنسا. فإن المقاتلي القضاة وغيرهم من المشايخ والعلماء الذين لهم الباع الطويل في الشريعة الحميدة والدين الخفيف الشريف... والأعضاء المسلمين في المجالس التي ينتخبها الأهالي والرؤساء المسلمين والأعيان وحتى الأصاغر من الفلاحين فقد قاموا للإعراب عما في ضمائرهم لدولتهم الفرنسية الفخيمة من خالص الصديق وكامل التعلق وصميم المودة التي لا يملها الزمان ولا يغنيها تعاقب العدوان وقد اصطفتنا من بين الألوف المؤلفة من تصرعاتهم للمقالات الصادرة من مشايخ الطرق الصوفية نشرناها هنا بعد خطاب جلالة سلطان المغرب الأقصى وحضرة باي تونس. ومن نصيحها بجدها مفيدة بلغة مطابقة للشرع وللطبع، تتحقق من مغروها من أمر واضح لا يختلف فيه اثنان ولا يتطاح في عدوان ولا بعد المعارض له سبلا وهو أن رجال دولة تركيا احتوا جنونا عظيما بإشراك المملكة العثمانية مع ألمانيا في الحرب وهي جنابة فظيعة مرقوا بها من رنقة الإسلام، وتصلوا من الخيانة الحميدة".

وبعد هذا المقال الافتتاحي الطويل يأتي في هذا العدد الخالص لنشرة الفتاوى والتوصيات على الترتيب الآتي:

1. من داودي أحمد بن محمد شيخ زاوية سيدي منصور ابن جيه من قائل زاوية
2. خطاب جلالة مولاي يوسف
3. خطاب الحضرة العلية محمد الناصر
4. من محمد الكبير بن محمد الشير بن أحمد التحاني إلى أحباب طريقة حده في جميع البلدان
5. من محمد العروسي شيخ زاوية "قمار" التيجانية
6. من محمد الصغير بن الشيخ المختار شيخ الطريقة الرحمانية بأولاد حلال
7. من عمر بن علي بن عثمان شيخ الطريقة العثمانية بزاوية "طولقة"
8. من الشريف تكوك أحمد شارف شيخ الطريقة السنوسية في زاوية أولاد شافع
9. من إشراف دار وزاف إلى فقراء طريقتهم الطيبة
10. من محمد الهاشمي بن إبراهيم شيخ الطريقة القادرية بتورت وعميش
11. من عبد الرحمن بن الشيخ الميسوم شيخ الطريقة الشاذلية بقصر البخاري
12. من الشيخ سيدي إبراهيم كبير الزاوية القندوسية "بقنادسة"
13. من مفتي المالكية ومفتي الحنفية بالجزائر
14. من المفتي المالكي بن الموهوب والمفتي الحنفي باش تارزي بقسنطينة
15. من كبار مشايخ الطرق القادرية والرحمانية والعساوية بتونس إلى جناب معتمد فرنسا المقيم العام بتونس
16. من شيخ زاوية سيدي الخلفاوي محمد الخلفاوي بتونس
17. من محمد الصادق الباهي شيخ زاوية سيدي الباهي

18. من عبد الواحد الخورزي شيخ زاوية سيدي عمرز

19. من الشاذلي البكري شيخ زاوية سيدي البكري

20. من الشيخ الطاهر الشريف شيخ الطريقة العيساوية بتونس

21. من الشريف شيخ الطريقة الاسلامية بتونس.

وإلى القارئ الكريم نموذجاً صغيراً في مضمون تلك التوصيات:

"من زوايا الجزائر إلى كافة مقادمتنا وإخواننا، بعد السلام، فغير خفي عنكم في زوايانا بينها وبين الدولة الفرنسية العزيرة، تعلق لا مزيد عليه حتى صرنا معاً كالأصابع المنصقة بالراحة، فتحن وإياها ذات واحدة، وما يصيب أحد الطرفين يؤلم الآخر، فعليه فإننا نقضع أفعال دولة تركيا الرديئة التي عدلت عن طريق الصواب، وحرحت عن الدين الإسلامي بانضمامها إلى الألمان.. إلخ".

وهذا نموذج آخر عن توصيات زوايا تونس:

"نحن ندعو الله بتأييد دولتنا الحامية، ونصرها على العدو الوحشي، لأن نصر فرنسا نصر للإسلام الذي تحترم فرنسا دائماً وأبداً قواعده وعوائده".

وهذا نموذج آخر عن بعض صانعي مقالاتها:

- المماريع المسلمون من جيش فرنسا بحري وعلى بحري
- المزارع تركيا أمام حيوات الخلفاء
- الخاتون مقام لانيور قرية سمو الرالي العام على البحر الجزائري تنفق المرضى والمماريع من العسكريين المسلمين وتتصدق عليهم بالخلويات
- رسالة من تونسيين مسلمين إلى صيف القتال... ورئيس الجمهورية بونكارتي في صيف القتال

وهذه بعض النماذج عن هذه الطريقة التي كانت الحكومة إلى جانب ذلك لعدم فيها الوعود المعسولة للجزائريين بتكليفهم من حقوقهم المشروعة بمجرد انتهاء

الحرب، تلك الوعود التي لم تحرك في القضاء كما تحركت دماء أبناء الجزائر في القضاء قرباناً لنصرة فرنسا على أعدائها في الحرب، فكان جزاؤهم منها جزاء "ستار"!

الدور الإيجابي الثاني:

كان من نتائج² هذه المقاومة المتواصلة عبر السنين، هذه الثورة الكبرى العارمة ثورة نوفمبر/ تشرين الثاني 1954 والتي منتهى بالنصر الحق للأمة الجزائرية المجاهدة، الصاعدة كالعلائق المارد تبني فرض وجودها في دنيا الأحرار، بتنهى الدور الأول الذي حدثنا القارئ عنه مع انتهاء الحرب العالمية الأولى وقد جندت لها فرنسا من مسلمي الجزائر ما يزيد عن الأربعمئة ألف رجل، مات منهم في ميدان الحرب ما يزيد عن الثمانين ألف علاوة على أن فرنسا إلى جانب ذلك جهزت لثمانين ألف من الجزائريين يعملون في المعامل الحربية والمدنية بفرنسا.

وإذا كان الجزائريون يقومون بذلك المجهود الحربي العظيم إيجابياً كانت النخبة منهم تطالب برفع المظالم وبالنسوية في الحقوق وتندد بمساوئ النظام الاستعماري العفن. وقد مع من هذه الطبقة أمثال عمر بوضربة وعيسى بن حمادة الذي اغتاله الاستعمار غلداً ببلدة تبسة، وهو أول من أسس مدرسة حرة عام 1913 تبسة، ولم ينحصر نشاط هؤلاء الرجال بالجزائر بل انتشرت القضية في فرنسا واحتضنها ذوو الضمير الحر من الاشتراكيين - أيام كانت الاشتراكية بفرنسا صادقة وقد تولى الاتصال فيها عن حقوق المسلمين الجزائريين رجال في أمثال جوليوس الزعيم الاشتراكي الكبير واليان روزي وغيرها.

1 - كانت نهاية هذه الحلقة الرابعة بالمعركة التالية: (وإلى هنا ينتهي الدور الأول الإيجابي من الكفاح القلبي بالجزائر وبأن الدور الإيجابي الثاني من المرحلة الثانية من مراحل تاريخ النضال العربي بالنظر الجزائري ومعهمة مع النضال الكبير في الحلقة القادمة من هذه الحلقة والسلام عليكم ورحمة الله).

2 - لهذا الكتاب هذه الحلقة الخامسة بالمعركة التالية: وأنها النضال الكبير... كما تحدثنا إليه في صفحة تامة عن الدور الثاني من الدور الأول الإيجابي من الكفاح القلبي الذي قام به الشعب الجزائري في ألي بولونه وحصلت العربية ما بين سنة 1907 إلى 1918 ولم يزل اليوم تحدث إليه عن الدور الثاني الإيجابي من هذه المقاومة عبر السنين والتي كان من نتائجها هذه الثورة الكبرى!

ثم ماذا كان نصيب الأمة الجزائرية مقابل جهودها ولما لدعائها سوى ذلك الوعود المعسولة التي كانت فرنسا تغلقها عليهم بسخاء وبدون حساب؟ بد فارغة وأخرى لأشياء فيها.. وعند ينقل بعد الحرب.

على أن جبال الأوراس لم تقتنع بهذه المطالبة وهذه الوعود فامتعت عن تسليم أبنائها للخدمة القترسية، ونطق البارود من جديد بين الجانبين. بينما التحا ما يريد عن المائة ألف من الشبان المسلمين الجزائريين إلى الغابات والجبال فرارا من العمل تحت الراية الفرنسية الاستعمارية.

انتهت الحرب الكبرى، ورأت فرنسا أنه لا بد لها من عمل شيء للجزائريين من قبل التخلي، وذر الرماد في العيون على الأقل، فأصدرت يوم 4 فيفري/ شباط سنة 1919 قوانين تلغي بها "الاندجينا" التي تحدثنا عنها في — سابقا — وتسوى فيها بين ساكن السكان من حيث الضرائب، فقد كان الجزائريون يدفعون أضعاف ما يدفعه الأوروبيون، وكانت عليهم إلى جانب ذلك ضرائب خاصة. أما من حيث الحقوق السياسية فقد اكتفت قوانين 4 فيفري/ شباط بزيادة عدد الناحيين الجزائريين بعدما كانوا في دائرة خاصة ضيقة لا يشارك فيها إلا التجار وأرباب الأملاك. وهكذا حيث فرنسا بهذه الإصلاحات السخيلة آمال الجزائريين.

— الأمير خالد

ولأول مرة في تاريخ الجزائر ورأت الأمة زعيما سياسيا مقداما جريئا.. هو الأمير خالد بن محي الدين بن الأمير عبد القادر الجزائري رحمه الله. وقد كان هذا الأمير عمل برية ضابط كبير في الجندية الفرنسية، وشارك الفرنسيين حروبهم والأممهم، فما انتهت الحرب حتى شكل وفدا لم به ساحة (فرماني) حيث كان الرئيس الأمريكي (ولسون) يحاول عتلا فرض مادته التي نادى بها زمن الحرب، ومنها حرية ساكن الأمم في تقرير مصائرهم.. ولكن سرعان ما علم الجزائريون — كما علم التونسيون والمغاربة والعالم أجمع — إن تلك المسألة لم تكن في نظر أوروبا

إلا عذبة من عذخ الحرب، وأن المنتصر الحقيقي في الحرب الكبرى الأولى، إنما هو الاستعمار والظلم الأوروي.

رجع الوفد الجزائري حاليا، وجمع الأمر لأول مرة بالجزائر هيئة سياسية إجماعا "اتحاد النواب المسلمين" وقد كان الأمر يخوض للمعارك الانتخابية أثناء ذلك فانتخبت الأمة مستشارا بلديا ثم مستشارا عاما ثم مستشارا عاما، ورأى ضرورة إنشاء جريدة تكون لسان حال هيئة السياسة فأسس جريدة "الإقدام"

جريدة "الإقدام"

تأسست الإقدام بعاصمة الجزائر يوم 4 ماي/ أيار سنة 1920¹ فكان يعالج فيها آفات المجتمع ويناهض السياسة الاستعمارية بالبلاد ويندد بالحقنة والعلاء وينادي بوجوب إصلاح الحالة بالجزائر على قاعدة تسوية الجزائريين بالفرنسيين في كل شيء ودخول الجزائريين لمجلس النواب الفرنسي، وهي في الحقيقة سياسة اندماج وهو منتهى ما سمحت به الظروف آنذاك على أن الاستعماريين كانوا يرون فيها الخطر الداهم الذي يهدد مصالحهم ونفوذهم بالبلاد.

وإلى القارئ بعض النماذج من فصول جريدة الإقدام التي كانت تصدر بالعربية والفرنسية ويشارك في تحريرها أفلام حرة صادقة.

في السياسات:

في العدد 29 الصادر يوم الجمعة 30 شعبان 1339/ 29 أبريل سنة 1921 تحت عنوان "كتاب مفتوح إلى وزير الحرية" بقلم الأمير خالد:

"كانت الأمة الإسلامية الجزائرية تنتظر قدومكم انتظارها للمسيح فحسبته أن لسفركم غرضا غير زيارة المعرض، وإنكم تستمعون إلى رغائبها، وتشاهدون حالها

1 - ظهرت "الإقدام" في يوم 1919/3/07 بإدارة كل من الصادق بنات وحاتم عمر وكان لها الأثر السياسي الذي كان يدعو إليه الأمير خالد. وفي سنة 1921 أسست إدارة الجريدة إلى الأمير خالد وتولت من الصدور يوم 1923/4/6 لتظهر مرة أخرى في مارس سنة 1927 لكن لم تعمر طويلا.

بعين الإنصاف، وتذكر كون ما تقاسيه من الآلام وعلى الأخص في هذا العام اليأس كان في حلقها أنكم تزورون على الأخص العمارات التي أهلكها المجاعة. ولكن رأيت وبيا أسفاه أن المضيف وأعوانه أحاطوا بكم إحاطة السوار بالمعصم وأقاموا لكم من أنواع الزينة في الاحتفال بقدمكم ما يبهر عيونكم ويشغلكم عن النظر ما وراء المهرجان في مأس وآلام... والله يعلم أن هذه الاحتفالات الرائقة والابتهاالات الرنانة، والشطح والرقص والسابقة بالخيل والملاعبة بالأزهار إنما أقامت لتعطى أنظاركم عن النظر إلى الحقيقة ولتضرب على حال التعساء المنكوبين بحجاب كفيف.

ثم راح على هذا النوال يشرح آلام الشعب ويبسط مطالبه العادلة في أسلوب كله حكمة واتزان.

وفي الاجتماعيات:

نشر الأمير في "الإقدام" عدد 38 من يوم الجمعة 30 ذي القعدة 1339-5 أوت 1921 تحت عنوان "المجاعة بأبوابنا":

"إن طلائع جماعات المساكين أخذت تظهر، وكذلك صدرت في البلدان الأوامر بإلقاء القبط على التعساء النازحين من الجنوب ونواحي أخرى، وإجبارهم على الرجوع إلى بلدانهم. هذه معنة محزنة تقوم بها الإدارة، وهذه جريمة كبرى يقوم بها الأغنياء الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبل تخفيف الآلام عن تعساء الأمة وفقرائها البلاد."

وفي الدينيات:

نشر في نفس العدد تحت عنوان "الاهتمام بالباطل" مقال:

"يوم الأربعاء الثالث والعشرين من ربيع الأول انعقدت جلسة الجمعية الدينية بالجامع الأعظم تحت رئاسة علي النكبة، وهذه الجلسة انعقدت بصفة محكمة

للإطلاع والمفاوضة في جنازة الشيخ محمد بن القائد علي، الإمام بجامع سلق، وبعد أن وغلوه أشد التوبيخ على ما صدر منه، هددوه بالعرل إن هو صمم على الأمر والنهي باللغة الجارية ومحاطة الناس بما يلهمون (هكذا في النص).

ما أعظمه من ذنب وأكبرها جنازة،

هذه كانت لحظة "الإقدام" الصادقة إلى حالب المطالبة برفع النظام المختلفة.

وقد انتف المسلمون حول الأمر خالدا، ثم أخذت الأيام تبدي في شدة شكيمة الجزائريين، ومن صلاتهم في المطالبة بحقوقهم مما أزعج مضامع الأمير، ونكاليوا وقاموا في الجزائر وقرنسا بحملات شعواء على المسلمين، واندفعوا ضد مطالبهم المشروعة. واشتد ضغط المستعمرين على الحكومة الجزائرية اضطروا لإرجاع قوانين "الاندجينا" من جديد، وإخراج الأمير أحمد بن محمد من الجزائر.

لكن المقاومة لم ترد إلا شدة وإيعاثا واستمر الجزائريون يطالبون بواسطة نوابهم بتحقيق برنامج الأمير خالد الذي أصبح في تلك الأثناء إلى ساعة قيام الحركة الوطنية الكبرى سنة 1926 ميثاقا قوميا جزائريا لا تقوم حركة إلا على أساسه. وقد احتضنت فكرة الأمير صحفا أخرى تعاقبت على الجزائر بعد احتراق أنفاس جريدة "الإقدام".¹

جريدة الصديق:

صدر² عددها الأول يوم 12 أوت/اب 1920 وهي جريدة علمية أدبية سياسية اقتصادية، مديرها وصاحب امتيازها "محمد بن بكير التاجر" من فضلاء بني ميزاب، وقد تولى رئاسة تحريرها المولود بن محمد الزريبي الأزهرى، وتطبع بمطبعة "سرلال"

1 - كان حاتم هذه الحلقة بالعبارة التالية: "استحدثت فيها في حيث ملل قول القاء والسلام عليكم ورحمة الله".
2 - بداية الحلقة كالتالي: (أيتها القارئ الكريم، لقدنا إليك في حصنة الأمانة عن بداية الدور الثاني الإلهي من كفاح الشعب الجزائري بواسطة القلم والصحافة، فحدثناك عن جريدة الإقدام التي أصدرها الأمير خالد بجماعة الجزائر في ماي وأيار 1920 والآن نحدثك عن جريدة الصديق).

بعد أن كانت تطبع أولا بمطبعة "كريزاتشو" الإيطالية، وقد ساهم في إنشاء "الصديق" الأستاذ عمر بن قدور الذي كان يعمل مصفقا بالمطبعة الإيطالية المذكورة، وكانت هذه الجريدة من أشد جرائد عصرها تحكما على السياسة الاستعمارية وعلى الخونة من عملائها. ولقد كان مآلها مآل سابقاتها من الصحف التي لا تقصمها معدة الحكومة في ذلك العهد الأظلم البغيض¹.

مجلة الفاروق (بعد الحرب)

وعلى إثر تعطيل جريدة "الصديق" (أعاد السيد عمر بن قدور إصدار مجلة "الفاروق" بعاصمة الجزائر). صدر العدد الأول منها يوم 08 أكتوبر تشرين الأول سنة 1920 أصدرها مديرها إثر عودته من منفاه بالأغواط عقب الحرب العالمية الأولى. وهي مجلة دينية كنتم كثيرا بشؤون التصوف والطرق والزوايا وما إلى ذلك، حاول صاحبها أن يقلد فيها الأستاذ فريد وجدي في مجلتيه "الوحديات" و"الحياة"، فكتب في الطبيعة والمادة والفلسفة، وكان ينشر هذه الدراسات تحت عنوان "منبر الفكر".

وقد طلب زميله القديم الشيخ عمر راسم من صديقه الشيخ سليمان الجادوي صاحب جريدة "المُرشد" بتونس أن ينقل تلك الآراء من "الفاروق" في "المُرشد" فأجاب: (لا أنشر كلام المجانين). وقد تكلمت عن "الفاروق" جريدة "المضحك" التونسية في عددها رقم 43 الصادر يوم 24 جويلية تموز سنة 1921 فقالت:

"كاد نبحر عن وصف السرور الذي حالج الفواد مناء، بحلول الكاتب الشهير والفكر الكبير صديقنا السيد عمر بن قدور صاحب جريدة "الفاروق" الجزائرية بين شهابنا، ولا ينكر أحد ما كان يدعجه براع هذا الكاتب البليغ من التحارير

1 - كما نرى في تاريخ نشر "الصديق" في الجزائر وأوروبا فكلما كانت في الجزائر
1922/1923

الإصلاحية الوافية، فمثله من يقيد البلاد باستطلاعاته، ويشرفها بزياراته، ونحن نرحب بقدومه المبارك ونرجو له السلامة"

وقد تحدثت عن صاحب "الفاروق" أيضا جريدة "النور" التونسية للشيخ الشاذلي المرالي في عددها رقم 222 الصادر يوم 3 مارس/ آذار سنة 1932، حيث قالت:

"عت أخبار الجزائر صحفيا من أصحاب الغيرة والإخلاص وأستاذنا علما نصوحا، ألا وهو السيد عمر بن قدور صاحب جريدة مجلة "الفاروق" سابقا، والكاتب الشهير للصحافة الشرقية عموما والتونسية خصوصا. ولقد قاسى في حياته السياسية مشاق كانت خالصة في سبيل الحق والوطن، وقليل في أبناء بلده من اعترف له بالجميل وقدر مواهبه حق قدرها. ولقد فقدت الجزائر لوفاته فنا كريما فرحه الله ورزق الجزائر من أمثاله"

— الصحف الموالية للاستعمار:

ولم تكن الحكومة كعادتها مكتوفة اليدين إزاء هذه الحركة الجارفة من المقاومة القلمية فعملت على خلق:

جريدة "النجاح"

صدرت بقسنطينة يوم 14 أوت/ آب سنة 1920 اشترك في تحريرها وإدارتها السيدان عبد الحفيظ بن الهاشمي ومامي إسماعيل وكانت بمثابة "البشر" في نشر الأخبار القضائية والترقيات الوظيفية، وتصريحات المسؤولين الاستعماريين ومناهضة الإصلاح والحركات السياسية التحريرية، وقد عاشت هذه الجريدة إلى سنة 1957¹ حيث مانت بموت محررها مامي إسماعيل واشتغال مديرها عبد الحفيظ بن الهاشمي بخطة الإفتاء.

1 - كانت النجاح في بدايتها وإلى سنة 1932 وطنية الإلهام لكنها بعد هذا التاريخ أصبحت موالية للاستعمار، ونشر أغلب المراجع لها تولفت عن الصدور سنة 1955.

أوعزت الحكومة إلى الطائفة العلوية بإنشاء جريدة تكون لسان حالها، وذلك عند ظهور بوادر الدعوة الإصلاحية التي كان يقوم بها الأستاذ الإمام المرحوم الشيخ عبد الحميد بن باديس صحبة زملائه المشائخ، الطيب العقبي، والبشير الإبراهيمي، فأصدر العلويون جريدة "لسان الدين".

صدرت يوم 2 جانفي/كانون الثاني سنة 1923 بعاصمة الجزائر ثم انتقلت إدارتها لبلدة مستغانم وكان محررها الأول السيد مصطفى حفيظ ثم تولى تحريرها بعده بن عليوة السيد الحاج عدة بن تونس صهر الشيخ أحمد بن عليوة. وكانت تقوم بنشر ضلالات بن عليوة والدعوة إلى مناصرة الطرق بالجزائر ومخاربة الإصلاح إلى جانب مؤازرة السياسة الاستعمارية وتحييد أوضاعها وتبرير أساليبها الإحرامية بالبلاد.

وكان في صدور هذه الجريدة فاتحة لعهد جديد في تاريخ الكفاح القلبي بالجزائر حيث ابتدأت المعركة الإصلاحية العتيدة التي انحصرت في واجهتين: واجهة الحكومة والطرق، وواجهة الشعب والحركة الإصلاحية¹.

الفصل الثالث

1 - كان من جملة الخلفاء الصادرة عنها دعوة إلى العودة إلى الطريقة الكروم في المعتقدات، التقلد من هذه الطريقة الخاصة في تاريخ المنطقة الغربية بالجزائر إلى عهد القاء الإسلام بتركها.

معركة الصحافة الإصلاحية

انطلاق الحركة الإصلاحية :

كنا نتحدثنا في الصفحات السابقة¹ عن تاريخ الصحافة العربية بالفطر الجزائري من سنة 1838 إلى سنة 1920 وانتهينا في حلقتنا السالفة إلى طور المقاومة القلمية التي كان يقودها البطل الجزائري الأمير خالد الهاشمي صحة جماعة من أحرار الجزائر، وذلك إثر الخيبة المريرة التي لقيها الشعب الجزائري من فرنسا بعد الحرب العالمية الأولى، وقد كان ثمن الدماء الجزائرية المرافقة في الميادين الحربية، إرجاع قانون الاندجين من جديد، ونفي الأمير خالد، والقضاء على بقية أنصاره بطرق تختلف باختلاف الظروف المحيطة بها، ورأينا كيف أن حكومة الاستعمار الفرنسي بالجزائر، عمدت إلى نوع جديد من سياسة النفاق والتضليل فسخرت شرذمة من رجال الزوايا الطرقية الذين انحرفوا عن مبادئ الطريقة الصوفية الصحيحة، ودفعتهم عملاء لخدمة سياستها التهديمية بواسطة إنشاء صحف مآجورة ورأينا كيف أن هذه المحاولة الماكرة انقلبت نتائجها لفائدة الانبعاث الجزائري، وكانت نقطة تحول في تاريخ كفاحها المجيد، حيث أنها ساهمت بطريقة غير مباشرة في انطلاق الحركة الإصلاحية الجارفة واتخاذها شكلا إيجابيا في المقاومة الصارخة بواسطة الدعاية في النوادي، وإنشاء الصحف العربية الغريبة الصادقة، تلك الحركة التي انبثقت عنها بعد خمس سنين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

1 - كانت بداية الحلقة السابعة تضمنت العبارة التالية: (كما تحدثنا إلى السمع الكريم عن تاريخ -الخ)

الحزب القوي المؤقت حاليا جمعية المرحوم الدكتور سعدان والأستاذ أحمد بومسجل الدين
باسم الحكومة الجزائرية حاليا، ومستعرض لذكر هاتين الطريقتين بإسهاب عن
الحدث عن صحافتها.

جمعية العلماء : ابن باديس

وحيث أن الزعيم الأول للحركة الإصلاحية هو الإمام عبد الحميد ابن باديس
نرى لزاما علينا قبل أن نتعرض للحديث عن الصحف الإصلاحية أن نعيد القارئ
الكرام بموجز حياة هذا الرجل العظيم الذي كان باعث الانتفاضة الأولى بالقطر
المعزوي، ولا يبالغ إذا قلنا بالمغرب العربي كله وقد جاهد في ميدان الصحافة مدة
10 سنين كاملة.

المن هو عبد الحميد ابن باديس؟

إن ابن باديس الصنهاجي هو ذلك الرجل الذي أقسم لبلاده يوم أن رجع من تونس حاملا شهادة العالمية سنة 1912 وانتصب بقسنطينة بيتي العقول وبشي الأحياء قال ابن باديس:

“هالكا ذا أعاهدكم على أن أحمل حياني وقلنا مؤيدا على الإسلام عموما والأمة الجزئية خصوصا ما نفيت الروح. ومن بدل أو غير فليطبق عليه: (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من الآيات والهدى، من بعد ما بيناه للناس في الكتاب، أولئك يلعنهم الله، ويلعنهم اللاعنون” صدق الله العظيم).¹

لم يكن ابن باديس² مصلحا دينيا محسب، ولا وطنيا صادقا وصحفيا واعيا فقط كما يقولون، إنما ابن باديس كان أمية، إن ابن باديس كان أبا لحيل، ذلك

[illegible]

الميل الصاعد الذي ابتداء سنة 1923 بالثورة على الجهالة والظلال وانتهى سنة 1954 بالثورة على السلاسل والأغلال. إنه يفتخر بهذه الأيقونة، إنه يقول: "لما لم يصب لولادنا.. ولكنني أحب لأن كل الجزائريين أيتام".

ولد ابن باديس في قسنطينة سنة 1889 في أحضان عائلة مثقفة تتمتع بمركز اجتماعي ممتاز، وكان والده محمد مصطفى من أغنياء البلاد ووجهاتها المطرولين، ولو شاء عبد الحميد لعاش مثل أبيه وأفراد عائلته في بحبوحة من العيش ووفرة من الثراء وجانب من تقدير السلطة الحاكمة، وأن يبقى مثيلاً كما كان صيا، ولما حرق محله ولحق جسمه بالعمل العكري الكادح، وكان في إمكانه أن يتمتع بالحياة الزوجية الدافئة، ككثير أمثاله من أبناء الدوات الثرفين، ولكنه استغل الحياة يوم أن استقبلته الحياة، وهو يصرخ في وجهها: علقت للحرار وسأعيت للحرار.

أدخله والده أحد الكتائب القرآنية وهو في الخامسة من عمره، فحفظ القرآن على الشيخ محمد المداسي، ثم درس العلوم الدينية في قسطنطينة على الشيخ محمد تونيسي، وقد كان يحلّره من الالتحاق بأي وظيفة، وهي أغلى نصيحة سمعها في حياته.

أرسله والده مصطفى إلى تونس ليأخذ نصيبه الأول من المعارف فعكف على التحصيل وأتم¹ دراسته سنة 1908 حيث تحصل على شهادة التدريس العليا ثم رجع إلى قسنطينة مسقط رأسه، وسافر إلى القباة المقدسة سنة 1912 لأداء فريضة الحج، وطاف بالأقطار العربية (سوريا، لبنان، مصر وفلسطين) واتصل بعلماء هذه الأقطار العربية وأحازه المرحوم الشيخ محمد نخت إجازة العالمية. وفي رحلته هذه التقى في الحجاز بكل من الشيوخ البشير الإبراهيمي والطيب العقبي، حيث كان

١ - في الحقيقة سافر من باريس في هذا التاريخ 1978 إلى تونس والسبب في تراجع القزويني حيث أنه بطور الترقية الإسلامية من كبار علماءها أمثال محمد السحلي وعبد الطاهر بن عاتق وعبد القادر عيسى الطريقي وأخرج منها بلقاء بطريق سنة 1912/1911

الأول مدرسة سوريا، والثاني بالمدينة، وهناك تعاهد الثلاثة على القيام بحركة
إصلاحية بالجزائر لإنقاذ الأمة من براثن مشائخ الزوايا الطرقية الذين سحروا
أنفسهم مطية لأغراض المستعمرين في الجزائر لنشر الأوهام والضلالات وتعليم
العقول.

ولمعهده رجوع الشيخ ابن باديس إلى قسنطينة سنة 1913 انتصب مدرسا
بالجامع الكبير، ثم الجامع الأخضر، بهذب النفوس، وبثّر المبادئ القومية والفكرة
الإصلاحية، فكان يقوم بإلقاء أثنى عشر درسا يوميا، وقد ابتكر طريقة جديدة
لتفسير القرآن بالجزائر، كما ابتكر مثلها الشيخ رشيد رضا بمصر.

والى جانب كفايته في الحقل الإصلاحي، فتح واجهة جديدة للكفاح الفكري
فأسس جريدة "المنتقد" ثم "الشهاب" كمحلة، ثم "السنة المحمدية" ثم "الشريعة" ثم
"الشرائط" وأخيرا "النصار" التي احتجبت بعد اندلاع الثورة المسلحة العارمة.

كان من الطبيعي أن تتطابق الحكومة الاستعمارية بالجزائر من هذه الحركة
وأن تعتبرها - كما هي في الواقع - حركة خطيرة ترمي إلى تحرير الأفكار والعقول
من الاستعمار العقائدي المربع الذي ظل رديا من الزمن بحسب العقول عن
المعرفة والحقيقة والنور، وبعد النفوس التي تهشها المعاوف بأياها عن الانطلاق
وراء حياة سعيدة وعيش كريم. صمد ابن باديس الصنهاجي أمام كل معارضة
أعنفه: استطاع الظروف أن تكيفها، ولكنها لا تستطيع أبدا أن تقهرها.

فإذا ما انتصرت حكمة الألام، وداعت روحه الأمل الصالح حذج الأقدار
العالية بعينين ثمرتان كالقوس، ونظر إلى الأمل اللازوردي الخالم في أحضان
الظلمة، وقال: إن جميع الأبواب يمكن أن تغلق أمامنا، ولكن بابا واحدا لن يغلق
أبدا وهو باب السلام.

وما كان ابن باديس أن يشر بمشاورات الاستعمار التي دبرت حوله إبان الحرب
للعامة الثانية ليقول كلمة تأيد لفرنسا، وحلفائها ضد الألمان، إنه لا يتن
بالاستعمار، ولا يطمح لرحالة، فهو يرتاب حتى في كلمة الشهادة إذا طلب إليه
المستعمرون أن يقولها: "والله لو قالوا لي قل لا إله إلا الله لما قلنتها".

هذا هو عبد الحميد ابن باديس في إيمانه.. ذلك هو ابن باديس في شخصيته
وتضحيته النفيسة الفداء.. ذلك هو أب الجزائر في جهاده وهذه هي صحته
للدولة بقلتها في صدر الزمن:

هذا كم عهدي به
فإذا هلك فصحي
حتى أوشك في التراب
نحيي الجزائر والعرب

ولقد التحق ابن باديس بموكب الخلود في حوار ربه يوم 16 أبريل قبل عشرين
سنة (1940)، ولفظ أنفاسه الأخيرة مبتهلا: "رب إني مسني الضر، وأنت أرحم
الراحمين".

وكان الخضم الزاهر من الشباب الجزائري يسير في عيشور وراء حشائه
الطاهر وهو يردد هذه الكلمات الصارخة: "لقد كان عبد الحميد هو الجزائر
والآن على الجزائر أن تكون هي عبد الحميد".¹

جريدة "المنتقد"

صدرت "المنتقد"² بعاصمة قسنطينة يوم 2 جويلية / تموز سنة 1925م بتول
تحريرها نخبة من الشبيبة الجزائرية، ويدير شؤونها الإدارية السيد أحمد بوشمال،
ويوجهها الإمام عبد الحميد ابن باديس. وهي أسبوعية تصدر يوم الخميس من كل

1 - أحسن المؤلف هذه المقالة الفذة بقرآن وعنده ديدة وحيدة من تاريخ هذا الرجل العظيم لعظمته مقدسة بل وفي التاريخ لأصليته
من مثله هذا المهد، ولذا بعد هذا بالحدث عن جريدة "المنتقد" التي كانت بالكرة بحركته المهد للإسلامي المهد وسبكون
فكان موضوع مقالة نقلة تحول إلى هذا روح القديس الكريم على وجه التقاد في الأسبوع المقبل والسلام عليكم ورحمة الله
2 - فتح المؤلف المقالة الثانية بقرآن، وكما قد أسلفنا الحديث في صفحة خاصة عن أبنا وحيدة من حياة الصالح الإمام عبد
الحمد ابن باديس واليوم تناول السمر عن صمد هذا المهد ديدة جريدة "المنتقد"

أسرع، كما أن أول صفح العهد الإصلاحي، وكانت تشدد الحملات على أنصار البدعة والضلال، وتنتقد تصرفات الحكومة الاستعمارية بشكل متزن وصحيح إلا أنه قوي وصريح. وما كان لفرنسا الاستعمارية وعملياتها أن تتحمل صياح أصوات نزعهم وتقصد عليهم خططهم النكراء خصوصا وإن إدارة الأمور الأهلية بالجزائر كان على رأسها ذلك المستشرق الخبيث "ميرانط" ومن ورائه أمثال محسود كبحول من الخونة الأندال، فحنقت الحكومة أنفاس "المنتقد" ولم يمر سنة على ولادتها، وذلك في ربيع سنة 1925¹ وكان آخر عدد صدر منها هو العدد الثامن عشر.

والقارئ نموذجها من فصولها من تقتطفه من عدد 3 سبتمبر/ أيلول 1925 تحت عنوان "دعاء إلى واجب":

"أيها العلماء الذين اعترفتم لهم الأمة بالعالمية، وصار في استطاعتهم إنقاذها من مهاري الضلال، إنكم تعلمون أن خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم ابتداء دعوته بظهور العقائد من الوثنية، ومعلوم أن العلماء بالدين العاملين به هم ورثة الأنبياء القائمين برده كل محدث خالف ما كان عليه الدين، فعلم تراكيم صامتة، لم تكتبوا بالحرارة أو تجمعوا الأمة ولخطوب لها بما توضحون به لمحج الدين القوم ٢٠٠... خصوصا في هذه الآونة التي صار من بكره الناس على الاعتراف له بالعلم، يقول: الله (برمبار) في السماء والشيخ الفلان (برمبار) في الأرض... كذا إلى الفاظ توسع مدلول هذه العبارة وتشرحها، وبرمبار بالإنسانية معناها "الأول"... سبحانه لا إله إلا أنت أمست ببولك: (وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله) وأمست بأن هذا غير خاص ببول هذه الآية."

هذا هو أسلوب الدعوة إلى الإصلاح الذي بدأ الإمام ابن باديس به في الأمة، بلين وتراخية واعتدال على لسان جريدة "المنتقد"، وكان من أول كتابها العلوية

1 - "المنتقد" من قبل السلطات الاستعمارية و 1925/11/12

المؤرخ الشيخ مبارك الميلي أحد مؤسسي "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" فيما بعد، وقلما لا يخلو عدد من "المنتقد" من فصوله المثيرة الصريحة الممتعة، وكان يحرر فيها مقالا متسلسلا تحت عنوان "هل نحن في بداية لحظة ٢" وآخر تحت عنوان "كيف نعيش سعداء ٢". ومن عناوين جريدة "المنتقد" الأحلام الطالشة، من الناس قوم، من ملاحظاتي. وقد صادقت رواجنا منقطع النظر في أوساط الشعب الجزائري بل وللقرب العربي كله حيث كانت الوحيدة من نوعها في ذلك العهد أصدق لجة في حكمة واتزان.

وما إن احتفت هذه الجريدة حتى خلفتها جريدة "الشهاب"

جريدة "الشهاب"

برزت بعاصمة قسنطينة سنة 1925 تصدرها نخبة من الشية الجزائرية، مدير شؤونها وصاحب امتيازها السيد أحمد بوشمال¹ تبرز صحيفة الخميس من كل أسبوع. وقد صدرت عددها الأول بمقال افتتاحي طويل فيه بيان عن تعطيل "المنتقد" وإنشاء "الشهاب" وبداية من العدد 32 الصادر في 11 ذي الحجة سنة 1344² صارت تصدر مرتين في الأسبوع يومي الخميس والأثنين، واستمرت "الشهاب" تقوم بواجبها للدعوة الإصلاحية بدون أن يعلم قراؤها الأبعاد شيئا عن أسرارها، إذ أن الشيخ ابن باديس هو الذي يكلف منهاجها ويشرف على تحريرها إلى أن ظهر العدد 49 بتاريخ 10 صفر سنة 1345³ مكتوب عليه "الشهاب" تصدر تحت إشراف مؤسسها الأستاذ عبد الحميد ابن باديس، وهكذا واصلت سيرها الأولى في شكل جريدة إلى العدد 75 المؤرخ في 11 جمادى الثانية سنة 1345⁴ ثم تطورت في شكل مجلة.

1 - المؤسس الحقيقي للشهاب هو عبد الحميد ابن باديس، وبوشمال كان مسؤولا عن الجوانب الإدارية والخطبة، ويظهر اسم ابن باديس باعتباره مؤسس الشهاب الشهاب من العدد 49 كناية لتذكير القراء. وقد صدر أول عدد يوم 1925/11/12 وتلقا من الصدور في نوت 1939
2 - المؤرخ لـ: 1926/6/21
3 - المؤرخ لـ: 1926/8/19
4 - المؤرخ لـ: 1926/12/16

وكانت هدفها غاية في الاتزان والليونة والدعوة بالحسنى ودليلا على ذلك
نقل للقارئ الكريم فصلا من عددها للمورخ ب 28 جانفي / كانون الثاني سنة
1926 - 14 رجب 1344 وفي هذا الفصل يشرح محررها حطة الشهاب بدقة
وصراحة قال:

(لقد كان المسلك الذي سلكناه من الصراحة في يوم أن دخلنا ميدان الصحافة
جديرا بأن يغنيا عن كل بيان، ولا نشك أنه كان كذلك عند من يقرؤون
صحفتنا غير متأثرين بعوامل من عند أنفسهم من الداخل أو بعوامل مصالح أقوام
احتاجت إلى بيانات أكثر مما يحتاج إليه كلام المراوغين والمداحين، وذلك لأنها تظني
من أعداء الحقائق من يصرفونها إلى أبعد الاحتمالات ويحملونها ما لا تدل عليه
بروحه من وجوه الدلالات، ويلزمون أهلها بأبعد اللوازم في مذاهبهم، ويتسولهم
إلى كل غاية من غاياتهم، وهذا الذي نعانیه يا قارئنا الكريم في حياتنا الصحافية من
بدائنها إلى اليوم وهذا هو الذي دعانا إلى تقديم هذه البيانات لجميع الناس.

(1) نحن والسياسة الجزائرية: ليس لنا في الوقت الحاضر من سياسة إلا سياسة
الديمقراطيين من أحرار فرنسا، تلك السياسة المشقة عن المبادئ الثلاثة (الحرية
والأخوة والعدالة).

فنحن: نريد من فرنسا وفرنسا، الحرية التي يريدونها كل فرنسي، أو متصل
بفرنسا، بسبب حرية القول والنشر والاحتجاج.

نريد من فرنسا وفرنسا، الأخوة التي تنشأ من الإحسان العام، وترسخ برفع
كل ميز بين العناصر المتساكنة بالبلاد.

نريد من فرنسا وفرنسا، العدالة في الأحكام وفي أسباب التقدم الفكري
والرفعي الاجتماعي والعمراني، حتى تصبح الجزائر عضوا عاملا لا عضوا فاشلا.

(2) نحن والإصلاح الديني: ليس لنا أمل في هذا السيل إلا القرآن والسنة وسير
السلف الصريح. وليست لنا غاية إلا تصحيح العقائد، وتخليب الأخلاق، وتقويم
الأعمال، وتزويج الدين مما أحسنه فيه المصلحون. وليس لنا دافع يدعونا إلى هذا إلا
الشعور بواجب الصبح، وحب الخير لإخواننا المسلمين الجزائريين. فذلك الشعور

وبذلك الحجة اللذان لم يبالا بعملاق أمثالنا في جميع الأمم إلى سلوك مثل هذا السيل
إننا نسعى إلى الإصلاح الديني في خصوص الأمة الجزائرية التي نحن منها دون غيرها
من الأمم الغنية برجالها علماء، وبدون أن تكون لنا أدنى علاقة خاصة بأي مصلح في
أمة أخرى. فأعمالنا في هذا السيل كلها منا ولنا غير خارجة عن دائرة القانون،
ولا موجهة ضد أحد.

(3) نحن والزوايا: لا نريد هدم الزوايا وإنما نريد إصلاحها، لا كلام لنا مع
الأموات، وإنما كلامنا مع الأحياء لا تنكر الولاية، وإنما تنكر الغلو في تقدير
أهلها، لا تنكر الكرامة وإنما تنحري في توفير شروطها، لا تنهي عن زيارة القبور
وإنما تنهي عن زيارة البدعة.

في الزوايا وفي غيرها شئ من الفساد، غير أن الفساد إذا نشأ من الزوايا
عم انتشاره لما لها من كثرة الأتباع. فهي حذيرة بأن تقدم على غيرها في الإصلاح،
ولتخصص بحجاب كبير من دعوة المسلحين. ونحن - بحمد الله - قد أسعنا أصحابها -
مع احترامهم - كلمة الحق وحركنا الكتاب على اختلاف مشارهم إلى تبادل
الأفكار في إصلاحها. وعرفنا الأمة أن فيها ما ليس من الدين. فأصبحت مسألة
مطروحة على بساط البحث. معروضة على الملأ الإصلاحية بعد سكون طويل
في زمن بعيد. وإذا نحن قمنا بواجبنا فلتتركها بيد العلماء يتناظرون فيها بالحق
والإنصاف حتى تتحلى الحقيقة التي يجب على الجميع قبولها والعمل بمقتضاها، وقد
فتحنا للكتاب كلهم بابا في صحيفة "صفحة المناظرين" نشر فيها كل ما يرد علينا
منهم على اختلاف مشارهم، بشرط أن يكون بصريح إضاءاتهم، ونعدهم بشرف
الصحافة. إننا لا نؤثر أحدا منهم على أحد في التقدم والتأخير، ولا نحيز لفريق
على فريق.

هذا هو المنهاج العام الذي سطرته جريدة "الشهاب" وسارت على ضوئه
سائر جرائد العهد الإصلاحي¹.

1 - كانت مجلة الخلافة الخامسة بقرنة (أو قبلها مع القرنة) في هذا العهد على وجه الخصوص في المجلد الأول حيث تحدثت عن
الشهاب في شكل مجلة (والسلام عليكم ورحمة الله).

لقد علم القراء مما سبق أن الشهاب تطورت إلى مجلة بداية من عددها 105 المؤرخ في 11 جمادى الثانية سنة 1345. وكانت تطبع بالمطبعة الإسلامية الجزائرية بقسنطينة. تلك المطبعة التي واكبت الانتفاضة الإصلاحية من أول يوم، وساهمت بأكبر قسط في نشر الدعوة إلى التحرر الفكري والتخلص من الضلال العقائدي الذي كان يسدل حجابا كثيفا بين الشعب وبين الحقيقة والمعرفة والنور. وكانت هذه المطبعة التي يديرها الجندى المجهول السيد أحمد بوشمال تقوم بطبع جميع حركات المدرسة الإصلاحية، سواء كانت إدارتها بقسنطينة أو بعاصمة الجزائر كما كانت تطبع حل الإنتاج الأدبي والفكري في الفترة المتراوحة بين سنة 1923 وسنة 1947 وهذا واضح في المقال الذي نشر بمجلة الشهاب عدد 105 المؤرخ في 14 محرم 1346 الموافق لـ 14 جويلية / تموز سنة 1927 بإمضاء "المطبعة الإسلامية الجزائرية" وقد جاء فيه ما يلي ردا على احتجاج في جريدة "البرق" بلمحة قاسية ضد المطبعة.

"قد علم الناس أن المطبعة الإسلامية الجزائرية في خدمة النهضة الفكرية في هذا الوطن منذ تأسيسها كما هي غايتها. ففيها طبعت صحيفة "الجزائر" لشاعر الجزائر وكانت الكبر الشيخ محمد السعيد الزاهري. وفيها طبعت صحيفة "صدى الصحراء" للأديب الوطني السيد أحمد بن العابد العقبي إلى آخر عدد منها. وكانت مقالات جريدة "الجزائر" تأتيها من عاصمة الجزائر حيث كانت إدارتها كما أن لمجلدات جريدة "صدى الصحراء" كانت تأتيها من بسكرة، ورغم ذلك فقد كانت حيانة ولا تقصيرا بل عرفا منها عناية حسب جهدها، وتساهلا في معاملتها، وما يذكر أنه دائما مقرونا بالثناء والاعتراف بالجميل، وقد جاءت في هذه الأشهر "جريدة البرق" تطبع بمطبعتها إلى عددها الخامس عشر، وكانت تنوز في أوقاتها رغم تأخر أصحابها في إرجاع المقالات بعد التصحيح ورغم تكرار تسيبها لهم في ذلك وإلغائهم لما يلحق المطبعة من الضرر المادي واحتلال النظام في الأعمال

بسبب ذلك التأخير. ومع الأسف فقد حصل ما كان يخشى، فصدر عدد 102 من "الشهاب" في 16 صفحة وتأخر عدد 103 منه مماها السيد الرحوني (مدير جريدة البرق) حيانة وسعى بها قوما لثاماً، ونحن قد كتبنا هذا خدمة للحقيقة. أما ما تلفظ به فلأننا لا نحسن الجواب عنه. ولرحو بعد هذا لجريدة "البرق" اللامعة كل تقدم ورواج."

لقد وجد الإمام ابن باديس وإخوانه المصلحون ميدانا رحبا في مجلة "الشهاب" ليت أفكارهم، والدفاع عن آرائهم في توجيه الأمة توجيهها صحيحا سواء في الميدان السياسي والاجتماعي أو الإصلاحي ورغم أن المعركة كانت حامية الوطنيين بين العسكريين، معسكر الإصلاح تسانده الأمة، ومعسكر الرجعية تسانده الحكومة الاستعمارية. فإن المنهج الذي سلكته مجلة "الشهاب" في كفاحها كان منهاجا رصينا يتسم باللين والمرونة والحسنى، وظالما كانت ترفض نشر مقالات أنصارها الأقرين إذا كانت عنيفة اللهجة، ناشرة عن مبدأ الدعوة الذي سطره الإمام ابن باديس لمجلته، ونقله في دروسه ومواعظه الأسبوعية في مساجد قسنطينة ومساجد القرى التي كان يزورها بدون انقطاع. بل ذهبت مجلة "الشهاب" إلى أبعد من ذلك فكانت تفتح منابر حرة للنظر، لا تضيق صدرا عن نشر آراء المعارضين بكل حرية ونزاهة، وكثيرا ما كانت المجلة مضطرة إلى الحد من انطلاق الكتاب وراء عواطفهم، بنشر تسيبها مثل الذي نشرته في عددها 107 المؤرخ بـ 28 محرم سنة 1346 الموافق 28 جويلية / تموز سنة 1927 تحت عنوان (مقابلة الدعوة إلى الحسنى). وقد جاء فيه "فقد كنا نظن أن نجاب الدعوة إلى الحسنى في انتصار الكتاب على البحث والمناظرة، بدون فحش ولا سباب، ولكن مع الأسف إن بعضهم لا يزال مندفعاً وراء ذلك التيار. نكرر لهم تلك الدعوة سائلين لنا ولهم حسن القول وحسن الاستماع والتوفيق في كل حال."

وقد استمرت المناظرة الحرة بين الفريقين مدة طويلة كان من أبطالها في الجانب الإصلاحي الطبيب العقبي - ابن باديس - مبارك العيلي أبو علي الزواوي -

الأمير العمودي، السيد الزاهري، ومن جانب الطرفين، المولود الحافظي - عند
تونس - الأخضر عمروش، وتطورت المناظرة القلمية إلى دعوة رسمية للسلطة
(المحاكمة أو المحاكمة) بين أقطاب الطريقة العلوية وبين الطبيب العقبي الذي كان من
أبرز المصارعين في ذلك العهد. وقد نشرت مجلة "الشهاب" في عددها 107 إحدى
مراحل هذه "المباحلة" في كلمة للطبيب العقبي هذا نصها :

"طلعت بعدد "البلاغ" الأخير كلمة تحت عنوان (المباحلة) يدعوني فيها
أصحابها إلى مباحلتهم أو مناظرتهم ولكن في الجزائر. وفي يوم موسم ابن عليوة
وزيارته التي أنا من أول المتكرين لها، وحيث أن حديث (المباحلة) كان يدور مع
سكيوح قاضي المحلة بلاد المغرب الأقصى، وبين المغرب وبسكرة مسافة بعيدة،
فحين الاجتماع لها ظلم وحيف، واليوم يطلب العلويون الاجتماع بعاصمة
الجزائر يوم حبيبهم الأكبر ليحشرونا مع زمرة أتباعهم، والعدل والإنصاف يقتضي
بسم المسافة بينا لكي لا يعين أحد الطرفين هذا أحبا العلويين - ونحن يرافقتنا
الوقت - بتعارف ممضي (روكساندي) هذا نصه :

"إننا مستعدون للقاءكم في اليوم الذي عيتموه ولكن بقسطنطينة لا بالجزائر،
كما عينا الجزائر سابقا (السكيوح) الذي يسكن المغرب الأقصى، وقد امتنع عن
الإجابة. أعلموا بذلك سيدي ابن عليوة وأبرقوا لنا بقاء السرعة. ولكم أن تعينوا
يوما آخر وأعلمونا لتتفق عليه - تاريخ التعارف 19 سبتمبر 1927 الإمتضاء الطبيب
العقبي.

ونقول: قد أرسلت هذه الكلمة وصورة التعارف لتشر "بالشهاب" فيطلع
عليها الناس كافة كي لا يغلبهم العلويون أو يلبسوا عليهم في أمرهم ما يلبسون
ولكي لا تصير الأمور :

ولم تقع هذه (المباحلة) قط لأن العلويين كانوا يخلقون الأسباب لإحيائها
كما أن الحكومة لا تترك من مصلحتها وفروع هذه (المباحلة) لأنها تعجز من

تساندهم عن مناهضة الحق، وجعلهم بأسرار الدين، وتجردهم من الضمير
فالمزاهمة آنذاك المزاميل بغير السياسة الاستعمارية والقياس لميبتها على النفوس،
وهكذا ظل العقبي ينتظر جواب خصومه، وما زال ينتظر إلى أن وافاه الأجل المحتوم
يوم الأحد الماضي 22 مايو 1960 في سن يناهز الثمانين بعد مرض ألزمه ما يربو
عن خمس سنوات. وذهب لحكمة العدل يحمل في يمينه مظلا وفي يساره كتابا
وشفتاه تردد الآية الكريمة "وآخرهم صلوا عملا صالحا وآخر شينا عسى الله أن
يتوب عليهم..."

ولكن جواب العلويين في قصة "المباحلة" تلقاه الإمام ابن باديس بطريقة
تلفافية طريفة، وذلك بواسطة هراوة هوى بها أحد فرامطة ابن عليوة في ليل دامس
على رأس الإمام ابن باديس من وراء باب داره. وحيث في هذه المباحلة القاتلة قد
انتصر ابن باديس وهو الشيخ المسامح الوديع واستطاع أن يقبض على الجاني، وأن
يتصارع معه حقبة من الزمن، ليحرد بمناهة أخيرا من المنحدر السلول الذي أعده
العلوي خصيصا للإحهاز على ابن باديس بعد تدويله بضربة الهراوة ولترك الشاعر
الفحل محمد العيد يقص علينا الواقعة في قصيدة نشرها في عدد 105 من مجلة
"الشهاب" 1 :

حيثك يد المولى وكنت لها أول	قيالك من شيخ حننه يد المولى
وأحطاك المسوت الزوام، يقوده	إليك امرؤ أملئ له القمي ما أملئ
فيا لو ضيع النفس، كيف تطاولت	به نفسه حتى أسر لك القنلا 2
ونالست في حنح الدجى هراوة	فأدماك بل أدمى الكرامة والفضلا
وأعوى إلى نصل يكف أئيمة	تعود أن ينضى لها ذلك النصلا

1 - كانت هذه المباحلة العشرة بقره ودار القنلا في حنح الدجى حيث ألقى عليك بها حننه والى السلام عليك ورحمة الله
عليك المصلحة المحمودة عشر هذه كانت كاتبة: وأنها القنلا الكرم رأيا في حنح الدجى القنلا الشيخ الطيب العقبي حنح
الطرفين في قصة المباحلة لكن هذا الجواب تلقاه الإمام ابن باديس بضربة هراوة على يد أحد أتباعه وقد كثر هذه المباحلات
عند السيد وفيها من 10 بقصتها شيئا في برادة ورواية ونقول:

فلوسعتها وعنا، وأوسعها قسوى
وكانت يد الحاني العلوي تعلسى
فواتك بالنصر العزيز طلائع
وغادرك الحاني الشقي موليا
وإن أنس لا أنسى الذين نطافروا
أنس من الأيمات أنك يئسا
وترضى، ولو عمن يسرم بالرضى
والعسك حتى من أراد بك الأذى

وأعهدنا عقدا وأعهدنا حلا
يد الشيخ لولا الله أفركها أسرا
مباركة تسلى من اللآلئ الأصل
وهل مسلم الحاني الشقي إذا ول
على الغلث بالحاني، فقلت لهم مهلا
تعامل بالعدل الذي أعظم العدل
وتسلى، ولو عمن أن لك أن تسلى
وتعصر حتى من أراد لك الخسلا

ولقد دفعت شاعرنا غوته على الفكرة الإصلاحية إلى حد خوفه من أن تؤثر
المحادثة على إيمان الإمام فيضعف في نادية رسالته فقال بقاطبه في نوع من التشجيع
والاستعطاف:

قدم يا ابن باديس كما كنت راشدا
وحمل يمين الحق تعلو عليهم
وأن لك قد مسك منهم بليسة
حنايك لا تأخذها الشعب إنهما
حنايك لا تعرض على الشعب وتفكر
ولا تأس فالتاريخ يا شيخ حافظ
سيلو على الأحبال شكرك مرميا

فلان رأيت الرشد يستأصل الدخلا
فلان رأيت الحق يعلو ولا يعلسى
لذلك، فالقاضي حدير بأن يعلسى
حناية أفراد ذوي همم سفل
بأدواته، واجمع لأحرابه الشملا
لأعتاك الكورى، وأمالك الحلى
إليك وأبناء الوردى سور تسلى

وما كانت عارية الطرفين لتقف في هذا الحد فقد خسروا واجهة أخرى من
الوشاية بحلة "الشهاب" وما حيا ابن باديس ولم تنحصر هذه التشنج الأليم في
حدود الجزائر، بل انتظمت إلى كامل أرجاء المغرب العربي، فوقع الحسب دسوسها

للمغرب بوشاية من عميد الطرقات، وأصيل الاستعمار، طريد اللاع العربية الوم
المسمى عبد الحى الكنانى، وإليك شهادة تصريح عن صاحب جريدة فرنسية
بالمغرب الشكيق تحت عنوان (مستحق المصروف):

"نشرت جريدة "لو كوريس ماروككان" (البريد المغربي) في عددها 214 الصادر
في 23 جويلية/تموز 1927 مقالا بقلم محررها "كاريط يون" هذا لغريه:

(وتلا لصحيف عدد كبير من الصحف العربية المختلفة المصادرة، وقد ذكرنا في
عدونا الأخير التحجير الواقع على "جريدة البرق" و"هفته الشهاب" وما طرقت
مسالكهما إلا بعد أن عاينت فيها جريدتنا "لافحي ماروككان" و"ليكو دي ماروككان"
وقد أظهرتا فرجهما بذلك.

نحن لا نعرف "البرق" ولكننا نعارض ما أبدته الجريدتان من الكلام الباطل
بدافع الخلد على "هفته الشهاب" وقد اعتادت هاتان الجريدتان أن لا تلتا من
الأسرار إلا ما كان مشيرا للأفكار، فهل تلتتا فيما نشران ؟ ههنا أن تكون غما
هذه الصفة من الزاوية وهما تظلمحان إليها.

"الشهاب" مجلة تطبع بمسطبة أسست لمطالبة الحكومة لتعمل نواب من
مسلمى الجزائر بالبرلمان الفرنسي، لأنها ترى أن الحق يجب أن يعطى لكل من يردى
قسما وفرا من الضرائب، وأن يحكمه من حق التمثيل بالبرلمان، ثم إن تلك المطلة التي
أسسها صحافي مقتدر، ألا وهو السيد عبد الحميد ابن باديس، خرجت في بعض
الأحيان عن هاته الخطة كي تصدى لمقاومة الطرق التي تطف عليه في سبل التطور
والرفي بالجزائر والمغرب، لكن ويا للأسف رجال الطرق يعضدعم رجال الحكومة
الفرنسية التي يظهر لها أن تكون منهم "حرفاء" - كليات: Client حسب ما
يقضيه هذا اللفظ باللاتينية - إن ذلك يفتل أعيا ويسهل لها الوصول لتأصدها.
إن أرباب الطرق يعرضون بكل قواهم لكل جديد وعظائم تائق على رجال
"الغالبكان" في هذه المسائل، والمسألة مسألة شتلاء ومسألة "فلس" إن هذه

للقاومة في صميم الغموض الذي تعمل تحته طائفة تريد الاستيلاء على الأمور باسم الدين.

قبل الثورة الفرنسية كان رجال الإدارة، ورجال الدين يؤثرون تأثيراً سلباً في الأمة بكثرة الإحاح عليها في الصدقات، وكانوا يلعبون دوراً كالدّي يقوم به اليوم رجال الطرق في إفريقيا الشمالية.

فمحنة "الشهاب" تحت رئاسة ابن باديس صاحب القلم شديد الوقع تعرضها في طريقها التقدمي، هذه القوة المسيرة بالمصالح والغايات، نحن لا ننكر أن تلك القوة كانت لنا عوناً فيما سلف... أما الآن فغايتها مقصورة على استعباد الشعب وتضليل أفكاره بالخرافات المنافية لروح القرآن. فالطرق هي أعظم عقبة التقدمية في سبيل نشر أفكارنا، وآرائنا فهي تنافي روح الجمهورية، ومبادئ الديمقراطية، يشاء التعصب بين طبقات الأمة، وعمارتها للتعليم. زد على ذلك أنها تتخذ ذلك التعصب وسيلة للاستيلاء على أرباب الحكومة حتى لا يلبثوا أن يعتقدوا أن تفويضهم متوقف على تأثير الطرفين، يجب على الزعيم أن يتخذ الوسائل إذا أراد دائماً يقوم بواجبنا. نعم ليس هناك استغلال أقطع من الذي يكون باسم مذنب أو عقيدة، إن جريدة "السعادة" التي هي جريدة قلم الاستعلامات الأهلية نشرت كلاماً معناه أن "الشهاب" منع من الدخول إلى المغرب بأمر من الجنرال "فيدالون" بعدما أشار بذلك المقيم العام مسيو "ستيف". وهذا غلط في الأخبار بالحقيقة تعمدته رصيفتنا، فهي لا تعمل قط أن عبد الحميد الكنازي هو الذي قدم تقريراً للجنرال "دوشامبران" اتهاكهم بتاحية فلس شأن الفاضل ابن باديس، ولم تدرك هل أوقعنا في الغلط أو روت "السعادة" خبرها عن مصدر كتاب ٢٢".

وتواصل الجريدة كلامها عن الكنازي فقول:

وعبد الحميد هذا هو نائب الطريقة الماسية، وإن شئت قل سفوفهم ذو الرجلين القصيرين والبطن العظيم، أما اسمه فينطق عليه غاية السطاقة، إلا معناه (عبد القبيلة)

أي الحمي باللغة العربية، كيف لا والطريقون بين سائر المؤمنين قليلة خصوصية است لجميع الصدقات والتبذير بدعوى الإصلاح والكرامة والولاية ٢٢.

وخلاصة القول أن الطريقين أعداء المبادئ الجمهورية التي تنوي إليها كل نفس كريمة، وهم خدعة في ركاب الاستغلابين، ولنا الرجاء أن مسيو "ستيف" الذي مازال يظهر لنا من حين لآخر علامات التبصر والاعتناء، سينظر إلى نظيرنا بعين العدل، وسيأذن لمحلته في الدخول للمغرب بعد أن تحقق أن كل ما زعموه في حق الشهاب محض زور وبهتان.

هذا ما نشرته جريدة فرنسية تصدر بالمغرب الأقصى "وشهد شاهد من أهلها" ولم يبق أدنى شك في أن الطريقين بالجزائر كانوا مطايا يبلغ الاستعمار على أكتافها إلى ما يرمى إليه من إبقاء الطبقات الشعبية في ظلام الجهالة والعمى حتى لا تطمح لبعث قوميتها واسترجاع كرامتها.

الفصل الرابع

مجلة الشهاب ومعركة الانتماء

صور صادقة عن حركة جيل

ما زلنا أربها القارئ الكرم¹ نوالي دراستنا حول مجلة "الشهاب" ونحن إذ نطيل في هذه الدراسة إنما نستعرض صوراً صادقة عن حركة جيل كامل مليء بالأحداث والانقلابات، سواء كان ذلك في الميدان السياسي أو في الميدان الاجتماعي، أو في الميادين العلمية والثقافية، وإن الفترة التي عاشتها "الشهاب" بين سنتي 1925 و1939 لمي الفترة الحساسة في تاريخ التطور الجزائري. وهي المرحلة الخطيرة ولا نقول الحاسمة التي تصادمت فيها النزعات والآراء واشتبكت فيها التيارات المتباينة، واحتدمت فيها المعارك بين اليقظة والجمود، بين الصلاح والأوهام، بين الاستعمار والزعة القومية، بين العلم والجهل، بين الفقر والأخذ بأسباب المنعة. بين الفردية والانعزال، بين فكر التكتل وتآليف الجماعات.

ففي هذه المرحلة نشأت الأحزاب السياسية، وتولدت المعركة الاستقلالية، وتأسست جمعية العلماء وتكون نادي الترقى، وبرزت جل الجرائد العربية بمختلف نزعاتها واتجاهاتها. وفي هذه المرحلة ظهر الاستعمار بوجهه السافر يتحدى الأمة ويواجهها بحرب صليبية سافلة. فيقيم مهرجانات الذكرى المثوية للاحتلال البغيض، ويدس المكائد بواسطة العملاء، ويناهض الحركات القومية. ويغلق المدارس الحرة، ويصادر الصحافة الصادقة، ويحل الأحزاب الوطنية، ويعتقل الأحرار، وينسج المؤامرات الوضيعة كمنقل المفتي كحول وغيرها.

1 - حافظنا على بداية الخلة الثانية عشر، كما هي.

فليس إذن في باب الحديث الممل، إذا نحن تبسطنا في دراسة وإثارة عن مجلة "الشهاب" التي تعد من طلائع هذا العهد الخصب إذ من خلال هذه الدراسة يمكننا أن نأخذ فكرة صحيحة عن تطور الأوضاع السياسية والاجتماعية بالجزائر.

لذا رأينا - من الإنصاف للواقع التاريخي - بعد أن تحدثنا عن موقف الاستعمار من مجلة "الشهاب" أن نسوق نماذج عن أهم المواضيع الحية التي عالجتها المجلة في ذلك العهد...

عودة إلى نادي الترقى

كما ذكرنا في بعض أحداثنا السالفة أن نادي "الترقي" بالجزائر يعد وحده مرحلة من مراحل تاريخ المقاومة الجزائرية، حيث أنه كان يحتضن بإخلاص جميع الحركات التي تخشى برعايته أو تتولد بين جدرانه. وقد نشرت مجلة "الشهاب" في عددها رقم 108 للمؤرخ يوم الخميس 5 صفر سنة 1346 الموافق لـ 4 أوت / آب 1927 كلمة بقلم المرحوم الشيخ العاصمي، نعطينا بيانات دقيقة عن هذا النادي الذي بقي صامدا كالجبل في حجة العاصمة الجزائرية، يؤدي رسالته، ويواكب نورها المقدسة، حيث قد انفتحت أبوابه لإيواء حركة الاتحاد العام للشغالين الجزائريين سنة 1955-1956 حتى وقع أسيرا بيد الحند الفرنسي، إذ احتله الجنرال ماسو، وأخلده مركزا من مراكز الدعاية النفسية، تحت إشراف مدام ماسو، وتحت حماية جنود المظلات، أسوة بأخيه في الكفاح وحاربه "مركز حزب أصحاب البيان" الذي أصبح مركزا للتدريب في يد أعوان يبحار من جنود المظلات "وأسرار العصافير الزرقاء" و"العصافير الزرقاء" لقب أطلقه الفرنسيون بالجزائر على الخونة والعملاء الذين يعملون في صفوف يبحار، وقد أيسوهم ليس جنود المظلات، إلا أنه يمتاز بلونه الأزرق حتى يتمكن جنود يبحار من مراقبتهم، ألهم ليسوا بالجنود، شاذة، مقصورة النسب، ومشكوك الأصل، ولد غير شرعي، كحالة المتحسين بالحسنة الفرنسية في عرف السياسة الاستعمارية، أو كالمعلقة في عرف الفقهاء لا هي بالفروجة ولا بالمعلقة.

قالت مجلة "الشهاب" عن نادي "الترقي" تحت عنوان (أعظم ناد بالجزائر... أجمع مسامرة، ألقاها بالنادي الزعيم السلفي الأستاذ عبد الحميد ابن باديس، وأشعل خائفة حطب لها الألياب العقوبة السياسي الكبر الأستاذ أحمد لوفيق المدي).

"للشعب الجزائري اليوم أن يتجه بتأسيس ناد ضخم بعاصمة الجزائر باسم (نادي الترقى)، وهي خطوة واسعة إلى الأمام، وإن أردنا الإيضاح قلنا بل هي ثورة من نظرنا إلى الركود الطويل أو اللامني الحاط بالغموض، أو إلى سبات مائة عام، وهي المدة التي أخذ فيها الاحتكاك بالمدينة الغربية يعث بصريه هذه الأمة في سبات الأموات، وقيود الجهل والجمود. وبما أن النوادي وكثرها وانتظامها على النسق البديع، هو الميزان الذي توزن به الأمم في رقيها وأخذها بأسباب الحضارة، كان من الميسور أن يتعت شعب الجزائر اليوم بأنه شعب دب فيه الشعور وأخذ في النهوض، والتخلص من ماضيه الخالك نظرا لتأسيس هذا النادي، وهو بفخامته وضخامته الفنية خليق بأن يكون زينة للعواصم، ونابعا وحاجا في حين الحواضر، بل هو يستهوي الأفتدة، ويغلب الألياب بما حوى من مرافق كاملة، وأثاث نفيس وطنافس نقيه، وزراري مبثوثة، وموائد مرصوفة، وعزائن مصطفة، وحسن قلعات واسعة بهيجة، أوسعها وأروعها البهو، أو قاعة المحاضرات المظلة على بطحاء الحكومة¹. وكان مؤسسيه الكرام ما اجتمعوا في إخراجهم على هذا القلب الجميل الجذاب إلا ليعدوه للاضططلاع بأعباء عظيمة أكبر هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى هو دليل على أن شبيبة الجزائر تعتمد على الحقائق والإنجازات، وتستند على التفكير الرشيد، لا على مجرد الدعايات الفارغة.

لذا فإن كل منصف لا يسعه اليوم إلا أن يقرن أسماء مؤسسي هذا النادي في سجل المجد بأسماء الأفلاد الذين عملوا لإخاض شعوبهم، فخلد لهم التاريخ أحسن أقدونه وأجمل ذكري. وقد أنجز هؤلاء السراة الجزائريون أعمالهم الخريفة بهمة ونشاط، سواء من الوجهة الأدبية أو الناحية المادية، وكل من استقصى قيمة

1 - بطحاء الحكومة هو الاسم القديم لمدينة الشهاب.

عهددهم الصناعي بفضل إخلاصهم، رأى من الأليق العلول من تفصيل الجهد
الفردي، وعن ذكر أسماء المؤسسين، لأن كلا منهم لا يرمي من وراء هذا العمل إلا
إرضاء سميره ووجدانه في خدمة شعبه، وبالأحرى تلبية صوت الواجب القلبي
إيما من حيث مقاصد النادي فحسب الخير أن يقتطف من القانون الأساسي للنادي
هذه البنية:

الفصل 2: القصد من تأسيس هذه الجمعية هو مساعدة المشاريع التنموية،
وذلك بالنسبة في تنفيذ مسمى الجزائر علميا واجتماعيا، لذلك فالجمعية تفعل
كل مجهوداتها للوصول إلى ما يأتي:

أولاً- نشر التعليم العام والتعليم الصناعي.

ثانياً- مساعدة التجارة والصناعة والفنون.

ثالثاً- مد يد الإغاثة للفقراء.

وقد الجمعية أن تفتح محلا، أو عدة محلات للاجتماع حتى يتمكن لأعضائها
أن يتذكروا ويتشاوروا ويتفقوا، وعليها أن تنظم دروسا، وتقوم بمحاضرات
ومسابقات، وتفتح للتلاميذ إعانات لإتمام تعليمهم، وتشتت النشريات، وتشتت
محلات للإرشاد، ومراكز للإشراف على القانون، وخدمات طبية بمجانا للفقراء
والساكنين، وأن تفتح مكتبة حاملة يستعين بها الشعب والتلاميذ والطلبة، ولها
زيادة على ذلك أن تفتح أي مشروع اقتصادي أو اجتماعي يوصلها إلى غايتها.

ثم يقول الشيخ محمد العاصمي:

"وصل العلامة الأستاذ عبد الحميد ابن باديس العاصمي، وألقى محاضرة بنادي
الترقي في يوم 18 سبتمبر على الساعة السادسة بعد الزوال، تضمنت بيانا إحصائيا
عن منظمة الشرايف، وتاريخ النادي والمراجع من العصر الفاضل إلى العصر
الاسلامي إلى اليوم

ثم قام بعد ذلك كاتب المظنون (أي تونس والجزائر) الأستاذ أحمد توفيق
المدني، وحجم الشدة بكلمة حاشية، شعر الإمام بقل مسئوليتها حتى نصب حبه
مرفقا قال:

"إن الشعب أيها الأستاذ قد قلقت راية الرخامة الإصلاحية، فأفعل لها راحة
عازلا متقدما نحو الأمام".

هذا ينتهي كلام الشيخ العاصمي، ولما في حاجة لتحليل نوع الرسالة التي
يقوم بها هذا النادي على ضوء قانونه الأساسي، فإن ذكرنا الفارئ الكريم لتفصيل
بالقيام بهذه المهمة، واستخلاص الحقيقة التاريخية، ولم يبق هذا النادي في حدود
العمل للجزائر، فقد قام بواجبه في نطاق المغرب العربي الكبير، حيث عقدت في
أرجائه مؤتمرات الطلبة المسلمين بشمال إفريقيا مثل المؤتمر الذي عقد بعاصمة
الجزائر في صيف 1935 والذي اشترك فيها من تونس كل من الإخوان السعي سليم
المرحوم علي الطهوان، المرحوم الحبيب ثامر، المرحوم عبد الرحمن ياسين، ومن
المغرب: الشيخ إبراهيم الكتاني والأستاذ عبد الحفيظ الطريس، ومن الجزائر سني
فاتح، مفدي زكرياء، أحمد فرسيس، وغيرهم.

وكان نادي الترقى إلى جانب كل هذا سرفا قائمة للشعر والأدب، ومعا
للقرائح ومصدرا للإنتاج الفكري، ولم يغفل شعراء الجزائر أمثال عن النعي هذا
النادي.

نادي الترقى في قصيدة مفدي زكرياء

مازلنا أيها الفارئ الكريم¹ نواصل حديثنا عن "نحلة الشهاب" وقد قلنا لك
عنها² معلومات قيمة من نادي الترقى بعاصمة الجزائر، ومضى إسهامه في البعث

1 - انظر المؤلفات المختارة لآية منير بوزيد، في السيرة الذاتية للشيخ العلامة ابن باديس، ص 139.
2 - حافظنا على بداية نسخة (أ) كما هي.
3 - في النص الأصلي توجد عبارة (في نسخة أخرى) في نسخة أخرى.

الحركات الإصلاحية والوطنية بالقطر الجزائري في فترة البقطة الشعبية / والانطلاق
 الشاب نحو الأهداف القومية التي انبثق عنها حدث غرة نوفمبر 1954 وكما في
 ميعاد معك أيها القارئ الكريم في هذه الحلقة للاستماع إلى القصيدة الدالية التي
 أنشدها الشاعر مفدي زكرياء إشادة بهذا النادي وتكريما للمؤتمر الثاني لطلبة شمال
 إفريقيا المسلمين المنعقد بأرجائه سنة 1933 وإليك هذا القصيد الموعود:

على منير النادي أحيى بني النادي
 وأعلى أكواب النجوم سلافة
 وظلهم الأجيال فرقان حكمته
 وتلقبه أملاك السماء رسالة
 سلاما بني فلس وأكباد تونس
 سلاما بني القصبي وحراس حجة
 نرائم على النادي الرحيب وإنه
 أنى بكم حادي العروبة، مرجيا
 وحشم تلاحون الحياة كريمة
 رعى الله والتاريخ والعلم والمحيى
 وأكرم أرواح الشباب فلاسها
 وأبد للعلا عزائم دونها
 سلاما بني العلم الشريف، تحية
 كفى ما جرى يا قوم بالعلم فلتعضوا

لنستمع الدنيا روائع إنشادي
 من الشعر جبريل لها رائج وعاد
 وإعجاز آياتي على قبة الضاد
 لإفريقيا، سطع بها نورها المهادي
 وأبناء تومرت، وأشبال حماد
 على باها، رضوان علم، وإرشاد
 لمعقل أبطال، ومرسطن آساد
 بموكب أبناء العروبة والمهادي
 مناحاة حذار عليها ووراد
 فرائج من نور هناك، ومن راد
 رسالة آباء كرام لأحفاد
 إلى طلب العليا عزائم أطواد
 من الله والاملاك باعثة المهادي
 ورووا بعلم غلة الوطن المهادي

1 - هكذا في بعض النسخة
 2 - هكذا في بعض النسخة

كفى ما جرى من قلة واستكاسة
 إلى م الرضا بالذل، والعلم صارخ
 ألم لك أولى الناس بالشمس، إسها
 لموها بني الشرق الكرام ورحمة
 لموها بني إفريقيا من مياتكم
 تناديهكم الأحقاد من الثرى¹
 بني المغرب الجبار حودوا بنظرة
 ولا بدع إن ملكت طوعا رقانها
 وسلت سفني فوق لجة بحرها
 وكللت من شعري حين حياها
 ألا فلتعش وليحي نادي شهاها

وساحق ويسلات ومأحق أنكد
 بنا لعلي للعز مقعد لباد
 من الشرق صاف نورها ساطع باد
 لذلة أوطان، ندى كأوناه
 فإن عيون الحاديات بحصاد
 فليوا إلى العليا دعوة أحقاد
 إلى لغة، أصبحت بليلها الشادي
 وأمرحت في ألبها كند نقاد
 وألفيت دودي ألبها من رواد²
 وأرغمت من آياتها أنف حمادي
 فقولوا معي آمين: يا فية الشادي



"الشهاب" وموقفها من التحجيس

ولم تكن مجلة "الشهاب" لتقتصر في كفاحها على الدعوة للإصلاح ومناخضة
 البدع والأوهام، بل كانت ميادينها النضالية متنوعة، فلم تترك الجانب الاجتماعي،
 ولا الناحية السياسية وتحطيم برامج الاستعمار الرامية قبل كل شيء إلى تحرير
 المسلم الجزائري من كل شعور قومي، وقطع الصلة بين وبين الأحقاد والأعداء،
 وذلك بالعمل على إغرائه بالتحجيس، واستدراجه إلى الفرنسية والاندماج. فيما
 الحقوق السياسية لا يتمتع بها إلا من كان فرنسيا إما أصالة أو تحجيسا على أن

1 - هكذا في الأصل، ولكن ينظم الورق يكون الصبر ككفالي (تدعيمكم الأعداء من طبع في حديث "الفرق")
 2 - هكذا في الأصل والحق غير واضح

التحسيس بالجنسية الفرنسية لا يتمتع هو الآخر بكامل الحقوق، فقد وضعوا في
وضعية خاصة تتأرجح حسب المصالح بين فرنسية وإسلامية فهو كالبوليد غير
الشرعي.

والخدير بالملاحظة هو أن الشعب الجزائري المتمسك بإيمانه وقوميته لم يتخضع
ببروق التحسيس الزائفة فكانت نسبة التحسين بالجزائر باعتبار عدد سكانها أقل من
نسبة التحسين في البلاد الإسلامية الأخرى سواء في المغرب العربي أو بالشرق
وذلك رغم وسائل الإغراء الحثيثة، ورغم وسائل الترغيب والترهيب المختلفة،
و"الشهاب" ساهمت بنسبة وافرة في معركة التحسيس، وكتبت فصولا متتابعة، نقل
منها نموذجاً للقارئ الكريم من عددها الصادر بتاريخ 9 ربيع الثاني سنة 1346
الموافق 16 أكتوبر سنة 1927 قالت في مقال بعنوان "مسألة التحسيس والضحة
الصحافية الأخيرة".

"غير لائق أن نحرّم قراء الشهاب في الاطلاع على ما كتبه الجرائد الفرنسية في
مسألة تحميمهم، ليطلعوا على الفكر العام الفرنسي فيها:

فأول فائدة نستحبها في الضحة الصحافية القائمة في الموضوع هي أن الفكر
العام الفرنسي في المسائل المتعلقة بالأهالي ناله تغير عجيب بالنسبة لما كان فيه في
الأعوام الفارطة، فإن نحن تذكرنا ما كان يكتب في المسألة الأهلية، والآراء التي
كانت أسس الخوض فيها، دهانا الإنصاف إل أن نقول: تلك مدة قد مضت،
أفكار قد حلت، وسياسة قد انعدمت، فلتحس في الفكر الجديد، ولكن مع كثرة
من البليظة والاحترار.

كان مسيو (موريي سوري) في الجريدة اليومية الفلسطينية لا يعترف للمسلمين
بحق فرنسا إلا بتعصّبهم القبيح، ورغبتهم في الثروة، وهو صاحب التأليف المشهورة
في التحامل عليهم، وعلى معتقدتهم الدينية، فصار اليوم نفسه في جريدته التي
تصدر بعناية بحث في التعليم والتأسي، ويرى أن للمعززين حقوقاً يجب أن

ينظر إليها بجانب كثير من الاعتناء والاعتبار، وأن القطر الجزائري لا يحيا حياة
عصر واحد وإهمال العصر الآخر، بل لا يمكن إلا بمشاركة المعصرين في الثمرات
الناجمة عن مشاركتهم في الأتعاب.

كما كان مسيو (بابلايك) بجريدة "صدى الجزائر" لا يرى في النخبة الثورة
المتحررة من المدارس الفرنسية، والكتليات إلا خطراً على فرنسا في هذا الوطن،
وعلى سياستها ونفوذها فصار اليوم نفسه في جريدته الجديدة وهي (الصحافة
الحرة) يدعو إلى الاعتناء بتلك النخبة ويرى أن لها حظاً، وأنها حديرة بالمشاركة مع
الفرنسيين في الآمال السياسية المتعلقة بالجزائر.

وكان مسيو (جولي) النائب المالي على قلعة لا يرى شيئاً إلا في مراة
الاستعمار، فصار اليوم يعلن أنه منذ زار قبر أبيه الذي مات أثناء الحرب الكبرى،
ووجدته مدفوناً بجانب قبر جندي مسلم مات أيضاً في صفوف القتال، تبذلت
أفكاره، ووجد في قلبه إحساسات نبيلة نحو المسلمين الجزائريين لم يكن قد شعر بها
من قبل.

هكذا تحولت الأفكار نحو قضيتنا، غير أن سماه القضية الأهلية لا تزال ملبدة
بالغيوم، فلنرجع إلى الحديث عن المعركة الصحافية التي هي موضوعنا، وبعدها
تتميز الأشياء.

ذكر مسيو (موريي) في جريدته "ريسيكان" أن مسيو (طومسون) تلقى
بتعجب وغضب من شخصية معتبرة، له عزم على طلب تحسيس جماعي لنخبة
المسلمين، عددها نحو عشرة آلاف، وذلك التحسيس يكون مع الاحتفاظ بشريعتهم
الإسلامية في الأحوال الشخصية، وتجعلهم متضمنين مع الفرنسيين في قوائم
الانتخابات مع كل الحقوق.

نشر مسيو (موريي) هذا التبا تم حمل على الشخصية المعنوية المجهولة، وعلى
فكرة التحسيس الجماعي، وصرح أن الجزائر أصبحت في خطر ودعا أبناء حس

الفرنسيين للتحزب معه ضد الفكرة القتالة لسمعة فرنسا ونفوذها، وصارت
جريدته تصدر كل يوم ملطخة بحروف غليظة: إن الجزائر في خطر، وهكذا
يحملونها على الموت.

هم يحملوني على موتى فوا عجا
حتى على الموت لا أخطر من الحسد

ودون حجج هؤلاء باختصار:

(1) لا يمكن تحسيس نخبة من المسلمين، من دون خروجهم عن مبادئ
شريعتهم، لأن هذا التحسيس يجعلهم سيطوايان (أي مواطنين) من طبقة عليا. حيث
لا يمكنهم تعدد الزوجات وتفضيل الرجل عن المرأة في الميراث، وتزوج البكر حواء
دون الرضى، في حين أن الفرنسيين محرومون من هذه الامتيازات. إنما مخالفة
للقانون الفرنسي، وهنا يمكن أن نعلمهم، فهم معتزون هذه الخصوصيات
امتيازات، ولا يتورعون في مكان آخر عن تسميتها بالهمجية.

(2) إن تحسيس عدد من المسلمين، يقدرون اليوم بعشرة آلاف، قد يبلغ عددهم
في المستقبل مئات الآلاف، فيكون خطرا على العنصر الفرنسي، وإن شاركهم في
الانتخابات يجعلهم يراجعون الفرنسيين في مجالس النيابة.

(3) ومن حملة الجرائد التي أحييت مسيو (موريس) جريدة تصدر بعناية وهي
"رفاي يونوا" أعلن صاحبها أن الشخصية المعثرة المجهولة التي ينسب إليها فكرة
تحسيس طائفة من الأهالي المسلمين مع احتفاظهم بالدين الإسلامي، إنما هو مسيو
(مبوليت) الوالي العام، وذكر أن مبوليت كان قد أعرب عن أفكاره أثناء محادثة
وقعت بينه وبين مكاتب جريدة تونسية، ثم علق "الشهاب" قائلة لست أدري لما
تصادم هؤلاء في شيء لا يعنهم، ولا يعين؟ فمالنا وللشخص؟؟ بوصفنا مسلمين
جزائريين فما أغناها وأفاندا، وسعود هذا الموضوع في أعداد مقبلة ونشبعه درسا
والحمية.

هذه الحملة حتم الكاتب فصله والملاحظ أن الفصل منشور بدون إمضاء، مما
يدل على أنه من إنشاء قلم التحرير وعلى أمدح تعبير بقلم الأستاذ عبد الحميد بن
باديس.

"الشهاب" والحملة ضد الاندماج

كانت مساعي الاستعمار الفرنسي ترمي إلى سياسة التخدير والتروم سيما بعد
أن لاحظت في الشعب الجزائري بوادر اليقظة، والطموح إلى حياة كريمة، نتيجة
حتمية لاشتداد الظلم وتفاقم العسف، والتخدي السافر لشعور الجزائريين بإقامة
الاحتفالات المتوعدة، تلك الاحتفالات التي تدل بصفة واضحة على فساد ذوق
الفرنسيين وحقاقة سياستهم الرعناء وليس أقدر من الفرنسيين على إنكار الصغ
الجديدة والتراكيب اللغوية العجبية وأفكارهم الهدامة، وإخفاء ما فيها من سموم
قاتلة وراء الألفاظ المعسولة، وكانت أنشودة ذلك العهد هي الاندماج الجزئي أي
إدغام (الفائقين) في الجنسية الفرنسية إدغاما جماعيا وفضل هؤلاء الفائزين
المخطوظين عن بقية الشعب احتيايا للعدوى تلك الأنشودة التي وضع كلماتها وقام
بتلحينها في آن واحد (موريس فيوليت) وعزفها المجموعة الصوتية للتركية من أفراد
الجهة الشعبية وأنصارها.

إلا أن هذه الدعاية لهذه الفكرة ولهيئة الجو لها بدأ سنة 1931 أي إثر
الاحتفالات المثوية مباشرة وذلك لنحويل الحبول (العقول) الجزائرية عن التفكير
في الجزائر.

وكانت فكرة الاندماج حديث الصحف آنذاك، سواء منها الفرنسية
الاستعمارية، أو القومية، حيث حاضرت بحلة "الشهاب" هذه الحركة في طليعة

1 - وحتم المؤلف المثلثة تلكه على غير مقوله. (وسترى في حقله تلكه وهي الأمارة من "الشهاب" كيف كان رأي "الشهاب" في
مسألة الاندماج والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.)

صحف ذلك العهد. وكتبت فصولا إضافية في الموضوع، نرى من القائدة إلى لفظ
للقارئ الكريم نموذجاً منها حتى يكون إلمامه بسياسة ذلك العهد كاملاً.

نشرت الشهاب في عددها للورخ شهر نوفمبر/ تشرين الثاني سنة 1931
الفصل الآتي بقلم التحرير فقالت: تحت عناوين:

"الاتحاد والاندماج"

"السياسة المتحدة والسياسة العقيمة"

"رب أخ لك لم تلده أمك"

(وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا).

"هذا الوطن الجزائري تعمده اليوم أمته الأمة الجزائرية الأصيلة، والأمة
الفرنسية الطاهرة، وطوائف من أوروبا. والمصالح المشتركة والحاجات المتبادلة
ومواقف التضامن في السلم والحرب المتكررة، ربطت بين الأمتين برباط من الود
وجعلت بينهما لجنة أخوة على تباين الأصل والنسب، ورب أخ لم تلده أمك، ولا
زال العقلاء من الأبناء يعملون على تقوية ذلك الاتصال، ويسعون لتوفير أسبابه،
ولا يبالون بكون فوزاً في معيهم، ونجاحاً في عملهم، رغم كل ما يعترضهم مما
يكسر قلب الجزائري، ويخلف وجه تلك الفئة من إجحاف بمقوقه في مثل
العسكرية والأحكام الاستثنائية وأحوال يسعها حتى بعض الرجال الموالين كالتن
بمفسر لها مسو (كينول) السياتور هذه الأيام من دعاية (بروماند) لمتحيه
لجملتهم على اتجاهها. ونجاح أولئك العقلاء وفوزهم إنما كان مع هذا كله
لأن الشعب الجزائري شعب هادئ مسالم يقدر الحميل، ويمتلكه الإحسان، وهو
يرى نفسه من حق وقين. أنه قد أسدى إلى الرابة الفرنسية جيلاً، وقدم إليها
إحساناً عظيماً بالاندماج فيها، والموت لنها، ورافقة دماء الأولياء من أبنائه لتصرها،
فهو يعتقد أن هذا الإحسان وهذا التسليم لا ينبغي أن يعرض كل تقته فيما

يصر للدعوة أولئك العقلاء وينظر بصر وأناة تحقيل الجراء مخلصاً عن ذلك
الإجحاف، متصفاً عن تلك الأقوال، ونعم ما فعل.

يقسم العقلاء الدعوة إلى الاتصال إلى قسمين اثنين: دعاة الاتحاد، ودعاة
الاندماج. فيرمي أولئك إلى عاطفة الجزائري على حبه ولغته وجميع مقوماته مع
أمية الفرنسي تحت راية واحدة في موطن الحياة وموطن الموت، ويرمي هؤلاء إلى
طرح جميع مقوماته والاندماج في الجنس الفرنسي.. تلك سياسة الاتحاد، وهذه
سياسة الاندماج ولكل أنصار.

ليس الترحيح بين إحدى السياستين بالأمر العسير، فإن العلول من العلم،
والثابت في التاريخ، والمشاهد في الواقع، يقضي بمقتضى سياسة الاندماج، وفشلها هو
نجاح سياسة الاتحاد وإنجاحها، فقد فطر الله الخلق شعوباً متباينة كتياب الأفراد،
ومرت على كل شعب ظروف وأحوال خاصة في قرون كثيرة زادت ذلك التباين
رسوخاً ووضوحاً يستحيل معها الاندماج في بعضها. ولكنه لا يمنع من تقارها
لتتحد وتتعاون على النفع المشترك بينها وبين ذلك كله. شأن الأفراد وتواريخ الأمم
شاهدة بنفوذ هذا التاموس في الأحيال ثم الواقع للشاهد هو جوهر الاتحاد بالفعل
بين الأمتين وظهور ثمراته وتأيد دعايته وكثر لهم خصوصاً في الشعب الجزائري
وترى الفشل في سياسة الاندماج وعقمها. فلتتحسبون من الجزائريين قليلون جدا
جدا في الخمسة ملايين، وترى النور بادياً من الشعب الجزائري للدعوة الاندماج
ودعايتها ولو علم منهم حسن نية.

هذا (جان جيليا) لا يشك في إخلاصه للقطبة الجزائرية وخطبه ومقالاته
أصدق شاهد على ذلك وهو - عن حسن نية - من دعاة الاندماج، وما علم كتاب
الأمة هذا حتى هبوا لإنكاره عليه في ذلك معبرين عن فكرة الشعب، وتريد أن
ثبت هنا قطعة مناسبة من مقال جافاً من شاب نافع نديها سياسة الاندماج
قال:

إن ما أراد لنا (م. مبلبا) من ترك شخصيتنا والاندماج في "العائلة الكبيرة الفرنسية" ليس هو بالأمر الجديد العهد حتى لا نجد أنصارا فهناك من استهزأهم هذا لبدا فأسسوا جمعيات تحت على التحسيس وأنشئوا مجلة باللغة الفرنسية تدعو إلى تحقيق مبدئهم مرتين في ذلك أراء يكسوها لباسا علميا وتخرجوها للناس كأنها حقائق مسلمة، من لم يجر عليها في حياته الراحة قضى على نفسه بالاضمحلال لا محالة.

وهذه الفكرة وإن ملأت رؤوس أصحابها وبذلوا الجهد في تحقيقها فإنا لا نعتقد بإمكان خروج ثمرات للوجود، وإليك السبب:

إن في أمنا صفات وكثيرة معنوية كامنة في نفوس أفرادها كمنون النار في الزناد، وتعلقا ليزها عن غيرها وتعمل لها شخصية بارزة على حدة يستحيل أن تزول. أو تزول الأمة نفسها.

وإن تلك الميزة حتى ولو بقيت مطوية في البصر، في سكون وجود، إلا أنها لا تموت، فإذا أتيحت لها فرصة ظهرت.. تلك الميزة، وتلك الشخصية كم في سالف الأمم من أرادها على الاندماج فلم تترك نوابها إلا حديثا للسمر، والروح الجزائرية باقية كما هي، ما أشبهها بطبيعة أرضها: تغطل عليها الأمطار وأموا نكاد نعيد سطحها الأمواج وتريد، ثم إذا طلعت الشمس واحترفت السحب بأشعتها النارية حنقت الخلال والعلم فلا يرى فيها إلا أثر السيل وبعض الخدوش لا نكاد تذكر.

إن من يعلم بالاندماج، ومن يعمل لتحقيقه في هذه البلاد كمهل نفسية الجزائري، وغلب عن ذهنه أنه المثال الأعلى في الفن عجزته من أن تدمج في غيرها وأن الطبيعة الغالية عليه: إنه المحافظ الذي لا يسبح ولو بحره من قومته وعوائدها وتقاليدها وشعارها ومعتقداتها وأساسها وترغباتها وطرق انبساطها وتصورها وكل ما تطلق عليه لفظ "الشخصية" وهذه المحافظة هي السر في بقاء حصه رغم التكرارات الشائعة للتحليل.

اسأل المؤرخ القديم أو الروماني، أو العربي، أو التركي، أنك لا تجد وصفا لجزائري إلا واحدا في كتب أولئك الأقوام الغابرين: وصف لا يؤول: محافظ إلى الأبد؟

كيف لم يتمكن الرومان، وهم من شئت لهم قدم في هذا الدار، من إدماج الجزائري ولم يكن إلا ذلك - طمعا نطم - آثار مدنية سائلة أو ديانة صحيحة تحول دون الوصول به إلى تلك الغاية؟

أبعد أن جاء الإسلام وفرنس في نفس الجزائري ذلك الأثر الخالد، يتقدم (جلبا) وأصحاب فكرة الاندماج ليلغوا به إليها؟

وليس أصعب من أمر م. (جلبا) إلا أولئك الشبان متخرجو مدرسة المعلمين - أو طائفة منهم - وفيهم الثغور العارفة بأحلال الأمم و"سيكولوجيتها" - كما يقولون - يتقنون إمكانية تحقيق فكرة الاندماج ويعلمون جهدهم في الوصول إلى ذلك ولم يعلموا أن الشعب يسخر بأحلامهم وبهزأ بآمالهم، أبعد أن توثقت ميزته وبعثت فيه من العصور روحا جديدة وجعل يشعر بكينته - تريد شزيمة من الخياليين أن تدحرجه دحرا وتقلبه بطنا لظهر علمعا في فائدة مادة بحتة؟ والإنسان مهما كانت حسنيته فهو - غالبا - يؤثر الاحتفاظ بقوميته على كل مقسم، حل من حل.

إلا أن نظرية الاندماج يصعب بل يستحيل تحقيقها، ومن الأسباب في ذلك - الأثر العميق الخالد الذي أبقى الدين الإسلامي في نفس الجزائري كما قدعنا: وهو عمل ثلاثة عشر قرنا وثيف تنوء بمحمو أثره جهود أجيال طوال - هو بناء لا تحت منه الموجات الخارجية إلا بقدر ما ينال الشاطئ من البحر في مده وجزره: نأى الموجة بسرعة الريح كأنما سيرت الخيال فما تدنو من الشاطئ إلا وهي مخوفة من غلوائها خافضة من كبرياتها حتى تصير كطريق معبد فتلمس الصخر لمسا وتعود أذراعها مشيرة أذبالها، والصخر بان يطاولها في سكونه الرهيب وسكونه العجيب تحدث عن الدهور المتصرمة غير حائل بالحوادث الحاضرة التي تألب عليه ولا بها تحتل البحر ومهرته.

القائمة الإسلامية الدروس اللازمة في البسالة والصبر والنيات والإخلاص وسائر
الأخلاق العظام التي لا يصعد المسلمون إلى الدروءة بعد هذا الانحدار الذي
انحدروا، إلا هذا.

والأحرج الأدياء العالمون بأعبار عمر المختار كتابا كهذا بالعربية أسرع في
ترجمته إلى اللغات الأوروبية وفي ذلك معنى سياسي كبير لا يخفى على أحد، فإن
تاريخ هذا البطل عبارة عن احتجاج محمد من الأمة الطرابلسية على إيطاليا المعتدية
العاصمة.

ولم يكن عمر المختار رجل حرب فقط، بل كان رجلا حكيما خيرا بسياسة
قومه مطلقا على أحوال وطنه، كان العفري الأكبر في شجاعته وصبره وشدة إيمانه
وكانه كان صحابيا كبيرا عاش في هذا القرن. وقد استشهد ابنه وابن أخيه وكثير
من أهله في هذه الحرب وأحبوا حتم الله له بالشهادة حتى تتم محاسنه في الدنيا
والآخرة.

عرفته يوم كنت في طرابلس سنة 1911 ميلادية، وكنت يومئذ في معسكر
أنور باشا في عين منصور بظاهر "درة" وكان الشهيد آنذاك من حملة مشايخ
الرواية الناعضين القائمين بأمر الجهاد لكنه كان مشارا إليه بالبنان - من بينهم - في
شدة إقدامه وسعة بصيرته في أمور الحرب وكان أكثر تعويل السيد السنوسي عليه
في اقتحام لظى الوقائع رحمه الله تعالى وحاراه حيرا.

ولم تقع بين وبينه مكالبة إلا منذ شهر بعد أن كتبت وقائع عن فطائع الطليان
في طرابلس وبرقة وأحدث نشرها في الخافقين ما أحدثه من تأثير، وأهيمت دول
الاستعمار أن الإسلام حي لم يمت وأن الآمال التي عندكم في القضاء عليه بعيدة
على أن تتجلى، فظهر أن السيد عمر المختار أطلع على تلك المقالة فشلت عليه
كما فشلت على الكثيرين، وبعث إلّي بالكتاب الآتي:

بعد السلام الأتم، والرضوان الشامل الأعم، ورحمة الله وبركاته، قد قرأنا ما
دعاه براءتكم السبال من فطائع الطليان، وما اترفته أيديهم الأثيمة من القلمان،
هذه الديار، فإن وعموم إخواننا الناعضين نقدم لاسمي شخصكم (مقامكم)
خالص الشكر وعظيم المنوية وكل ما ذكرتموه عما اترفته أيدي الإيطاليين هو
قليل من كثير وقد اقتصدتم كثيرا، وإما لو يذكر للعالم كل ما يقع من الإيطاليين لا
يحد أذاننا نسمع لما يروونه من استحالة وقوعه، والحقيقة والله وملائكته شهود أنه
صحيح، وإننا في الدفاع عن أوطاننا وديننا صامدون، وعلى الله نصرنا متوكلون،
وقد قال تعالى: (لو كان حقا علينا نصر المؤمنين).

وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته.

في ذي الحجة سنة 1349 هـ.

وهكذا راح أمير البيان يدحض بدافع الحق ووثيق المستندات التاريخية مزاعم
الاستعماريين الذين يحاولون تبرير اغتيال عمر المختار بوصفه رئيس عصاة، وحتم
حديثه الطويل المتع المملء بالشواهد التاريخية فقال:

"فرغم إيطاليا أن عمر المختار رحمه الله زعيم أشقياء بطشت به السلطة
وعاملته بموجب القانون ليس فيه ذروة من الحق، وسيبقى دم عمر المختار ورفاقه
المجاهدين وصمة في حين إيطاليا وإن كانت مغتررة الآن بقولها مستحقة بالعالم
الإسلامي فسوف يأتي زمان تعرف فيه إيطاليا عاقبة غرورها، تتعلم أن المسلمين لم
يحولوا وأن حقهم لن يضيع وأن الدهر أطول من أهله".

جوفيف 30 ديسمبر 1930

جناية على حرمة الصحافة:

وقبل أن نختم حديثنا هذا عن "الشهاب" المكافحة لا يسعنا إلا أن نبرز ظاهرة
نبيلة لا يمكن لنا أن نغفلها، وهي وإن دلت على شيء فإنما تدل على مدى الساع

الأفق الفكري، وعلى منتهى السمو الخلقى الذي يتسم به مسير قافلة "الشهاب" وحرر فصول الشباب، وهذه الظاهرة تتحلل في الموقف التضامني إزاء الاعتداء الفظيع الذي نزل بمدير جريدة تناهض مناهج "الشهاب" وتعارض فكرة "الشهاب" فالمدبر هو "مامي إسماعيل" والجريدة هي جريدة "النجاح" ومهما تكن الفوارق بين جريدة "النجاح" و"جريدة الشهاب" فإن الوفاء بمهمة الصحافة والإخلاص "لصاحبة الخلافة" يفرضان على "الشهاب" وعلى مدير "الشهاب" أن يكتب ما بأن:

اعتداء فظيع وتوحش شنيع:

"بينما كان زميلنا الصحافي الشهير السيد مامي إسماعيل رئيس تحرير صحيفة "النجاح" الغراء ماشيا بقرية أم البواقي من وطن الحركة إذا بشقي يضرب امرأة على أم رأسه وفر هاربا، فبادر السيد مامي إلى طيب عين البيضاء ومن لطف الله إن كانت الضربة غير مهلكة، وقد حصل له اليوم تمام العافية، وأما الجاني فقد قبض عليه ومازال منكرا لفعلة رغم وجود شاهد عليه، فنحن نبدي أسفنا الشديد لما لحق زميلنا العزيز مشاركين له في القضية التي هي حناية على حرمة الصحافة مهتدين له بالسلامة، ورايين أن ينال الجاني ما يستحقه من العقاب حتى يرتدع أمثاله من المعتدين على رجال الصحافة المحترمين عند جميع الأمم."

ولعلنا قد استوفينا الحديث عن مجلة "الشهاب" المكافحة، وأعطينا للقارئ الكريم فكرة واسعة عن أسلوب الكفاح القلبي في ذلك العهد، ونحيط السياسة الاستعمارية التي وإن اختلفت بعض الشيء في الأساليب، فهي متفقة في الأهداف مهما تقدمت العصور!

الفصل الخامس

صحيفة المنهاج ومعرفة التحرير العربية

تطبع بالقاهرة وتوزع بالمغرب العربي

من الصحف الجزائرية التي قامت بدور مشرف في فحر البقطة القومية بالجزائر، مجلة "المنهاج". وقد أصدرها مؤسسها العلامة الشيخ أبو إسحاق إبراهيم إطفيش في أكتوبر/ تشرين الأول سنة 1925 وكانت تطبع بالقاهرة، وتوزع بالمغرب العربي وجميع أقطار البلاد العربية، تعالج قضايا المغرب العربي والجزائر خاصة، وتخصص قسما كبيرا من صفحاتها لمعالجة القضايا الإسلامية العامة. وكانت صادقة اللهجة، سلفية المنهج، عربية الزعة، على غرار مجلة "الفتح" التي كان يصدرها الأستاذ محب الدين الخطيب، أو مجلة "الرابطة القلمية" التي كان يحررها الأستاذ محمد علي طاهر، وما إن قطعت سنة من عمرها حتى ناصبتها السلطة الفرنسية العداء، فمُنعت نشرها بالجزائر وتونس، كما منعت إيطاليا نشرها بطنابلس.

وقد كان أنشأها الشيخ أبو إسحاق إبراهيم إطفيش إثر نفيه من تونس بقرار إداري، من طرف حكومة الاستعمار الفرنسي حيث كان من أبرز الأعضاء العاملين في اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري التونسي، ومن أكبر أعضاء الزعيم العربي الكبير الشيخ عبد العزيز الثعالبي.

الشيخ أبو إسحاق إبراهيم إطفيش

نشأ بميزاب بقرية بني يزقن، وتلقى مبادئ العلوم من علماء بلده الموجودين آنذاك، ومن أبرزهم العلامة الشيخ محمد بن يوسف إطفيش، ثم اشتغل مدة قصيرة

بالتجارة فلم يسجم مع دنيا الأرقام. وعمر الدكان والتحا لعاصمة الجزائر حيث
تلمذ على العلامة الجزائري الشيخ عبد القادر المصاوي سنة 1910 وأكسب على
التجارة والتدريس، ثم انتقل إلى مسقط رأسه بني يزقن ولازم دروس عمه الشيخ
أحمد إخطيش إلى أواخر سنة 1914. ولما توفي الشيخ إخطيش المذكور اشتغل
بالتجارة لدى صهره العلامة الحاج إسماعيل ابن إبراهيم وزقون.

انتقل إلى تونس سنة 1917 والخرط في سلك طلبة جامع الزيتونة للعصور حيث
لازم دروس عدة مشايخ، أبرزهم الشيخ محمد بن يوسف شيخ الإسلام الحنفي
والشيخ محمد الدخلي والشيخ عثمان بن الخوجة.

وبعد فيه واستقر به بالقاهرة، اشتغل بالتأليف وطبع الكتب النافعة، ومن
جملتها "الدعابة في سبيل المؤمنين" و"رسالة النقد الخليل على العتب الجميل" وحلله
طبع كتاب السبل للعبد في اللغز الإباحي للمؤلف العلامة الشيخ عبد العزيز
النعالي شرح الشيخ محمد إخطيش كما طبع كتاب "اللغز الخالص" وغيره من
تأليف له في الفن الإباحي وألف كتابا ضخما في عدة أجزاء عن تاريخ الإباحية لم
يطبع حد الآن.

وشارك في عدة جمعيات إسلامية، كجمعية "البيان المسلمين" و"الهداية
الإسلامية" و"الرابطة الشرفية" التي كان يرأسها الأستاذ أحمد زكي باشا، كما
شارك في عدة مؤتمرات إسلامية كالمؤتمر الإسلامي العام الذي انعقد بالقاهرة سنة
1936.

وعند اندلاع الحرب العالمية الثانية توقف في القسم الشرعي بدار الكتب
القاهرة حيث لا يزال إلى الساعة موقفاً هذا.

بعد من أبرز الصحاح في القسم الشرعي بدار الكتب المذكورة. حيث عهد إليه
بصحاح الطبعة الثانية من المسود القرطبي، وقد عهد إليه بصحاح بعض الأجزاء
من "مناهج الأرب" لتبويها، كما أشارك في صحاح الطبعة الأخيرة من مصحف
الملك.

"النهاج" من منظور "المنظور"

وقد جاء تقريباً بحلة "النهاج" حريضة "المنظور" حيث كتبت عنها في عيدها
الصادر بـ 13 محرم سنة 1344 الموافق لـ 13 أوت/آب سنة 1925 فكانت تحت
عنوان "بحلة للنهاج":

"أكتب هذا، وبين يدي العدد الأول من بحلة "النهاج" التي أنشأها العلامة
الشيخ أبو إسحاق إبراهيم إخطيش الجزائري القيم بالقاهرة، لأقدم لأخواني
الجزائريين هذه المحلة الرقيقة التي هي أول نشرة جزائرية في الشرق، وأدعوهم إلى
مؤازرتها، لتظهر هنالك بالمظهر الشريف، وتعرب عن حافهم أمام أمم الشرق وأبناء
العربية، وتقوم بنشر الحقيقة عن حالتهم بالجزائر في كفاح عديد، وهي بحلة علمية
اجتماعية سياسية نصف شهرية تصدرها بالقاهرة مرة كل شهر مؤقتاً، عنوانها:
الطبعة السلفية بشارع خيروت رقم 40 بالقاهرة، وماكم شيئاً مما قال في افتتاحيتها،
وهو بين خطتها ومشرها قال:

"ولا نألو جهداً ولا ندخر وسعاً في الإلزام بمواضيع علمية ومسائل اجتماعية
ومفتطات أدبية إقادة للقراء الكرام. ومن الدفاع عن الأمة (بمعنى الأمة الجزائرية)
وإيقاظها على محاري الأمور بالبلاد العربية، وفي إخلاص النصيحة لها، وللحكومة التي
تدير شؤونها، كما أننا لا نجرم إخواننا أهل الشرق من أبناء بلادنا الغرب العربي،
ليحصل التعارف والارتباط الثامان بين الأقطار الإسلامية وشعوبها المتضامن في
العمل على إحياء المجد المندثر للإسلام. ذلك المجد الذي جاء به القرآن فسعد به
العالم حيناً من الدهر، وأعطى للبشر أرضاً تشريع وأمن نظام. عسى أن يعود
شبابه، وما ذلك على الله بعزيز".

هذا ما كتبه حريضة "المنظور" عن بحلة "النهاج". وكتبت عن "النهاج" بحلة
"الوفاء" التي كانت تصدرها شهرياً البعثة الجزائرية بتونس وقتك في عيدها المنار
رقم 30 المؤرخ في 01 محرم 1344.

بحر حين من الدهر، إلا ونسمع مؤمرا لهم في الميدان العليّ ولا تأت بلدا أو قرية إلا وجدت فيها مدارس لتعليم أبنائهم، فما تركوا صنعا من صنائع الشرقيين إلا أغلقوه وهدبوه وبرزوا فيه، حتى كادوا يقضون على سائر صناعاتهم وهذه إحدى غاياتهم في الشرق.

تسابقوا في ميدان النبوغ وسر أعماق الفنون، واستبطنوا كثيرا صالحا، ووسعوا دوائرها بعد أن كانت مسائل ضمن علوم أخرى، وبرع فيها مؤلفون اختصاصيون، ما منهم إلا من يرى واجبه إظهار ما لم يسبق إليه، كي يخلد له ولأمة حميد الأثر، ويرفع رأس أمته عاليا بين الشعوب.

فما هو واجب الأمة تلقاء البيانات وهاتيك القوى، والمكانة التي طولبت لها على لسان نبيا في آيات الذكر الحكيم؟

أواجبها وضع الأصر¹ عنها والأغلال التي عليها بالأخذ بتلك الأسباب المسعدة. أم الإعراض عنها والبقاء تحت كلال الجهل والفاقة كما يدعو إليه الناعقون:

هل تعدن على ضرر ومسفة

وعيشة شأها التعذيب والكدر

إن مواهب النفوس البشرية لا تحدّها الحدود وليست متجهة إلى وجهة واحدة، سنة الله في عباده، ليحصل العمران ويظهر سر الكون ومخباته فتحلى وحدانية الله وحلاله وصمدانيته (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة) إذن فالواجب على الأمة أن تنور على الحمود الفكري، وأن تتوجه إلى مناهل المعرفة، فتعرف من كل نوع توزيع الأفراد كل حسب استعداده كما أمر الله تعالى. أن تقوم طائفة بحماية الدعوة والكفاح في سبل تحرير الأقطار الإسلامية الرابضة تحت كلال أوربا نتيجة غفلها وجمودها، وأن تقوم طائفة أخرى

1 - طائفة أخرى

تنظيم البعثات وتخصم المشاق في اكتساب المعرفة والنور، فيقطع أفراد إلى العلوم الحيوية، وآخرون إلى علوم الآداب، وآخرون إلى العلوم الدينية، وآخرون إلى الصنائع.

أما الجمود دام المراحم¹ فاستسلام وحذلان برأ عتيا كل عاقل، والراغبون أن العلوم الحيوية منافية الدين كلابون على الدين، واصفون له بالقصر، وهم يشعرون، وقد وصفه الله بالكمال ولجام العمة:

«اليوم أكملت لكم دينكم... وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً».

لماذا لا تضارع الأمة الإسلامية غيرها من الأمم المتقدمة، وهي الأمم المتقدمة بالدين الذي فتح أبواب الشرف والكرامة في وجوه الأنفس الحرة، وليست هذه المضارعة دفعا للتفوق فقط - بل الواجب يأمر بذلك - وهي الأمة التي أسأها دينها بأنها ستحاسب على ما منحها الله من المواهب والقوة الاختيارية التي هي مناط الثواب والعقاب والمدح والذم.

«من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجنيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون».

إن ركب المدنية لا يتوقف حتى يلتحق به السلم وأن العلوم الحيوية قوة متدعة إلى الأمام لا يمكن إيقافها ولا حصرها، فليست العاقل ما دام في الوقت ما يمكن أن يلحقنا بالقافلة.

هذه فكرة "المنهاج" وصاحب المنهاج منذ خمسة وثلاثين سنة مضت وهي نسبة ذلك العصر فكرة ثورية تقدمية حريثة².

1 - هكذا في الأصل، ولكن غير معروف.
2 - غاية الحقبة الأولى 17 وغاية الحقبة 18 تتطابق تماما في الشكل.

عاجلت مجلة "النهاج" مختلف المواضيع الحية الحساسة التي كانت تشغل بال قطاب العروبة في ذلك العهد، ولهم قادة الحركات الإصلاحية والسياسية في كامل الشعوب العربية المغلوبة على أمرها، فتحد فيها فصولاً قيمة للفضيلة (مطيلة الشيخ على الرنكوت) تحت عنوان: "بحث فلسفي في الاستعمار".

ولقد حملت موقفة للمجاهد الطرابلسي الشيخ سليمان الباروني ضد المعاهد الإنكليزية السعودية ضد "مؤتمر الخلافة الإسلامية" المنعقد بالقاهرة في شهر رجب سنة 1344 وقرأ وقرأ للأستاذ عبد الرحمن الرافعي فصلاً بمنعاً عنوانه "فرنسا والحرم"، كما أن "النهاج" تناولت الأحداث الهامة التي نزلت بالجزائر في ذلك العهد، كسلسلة "الاندحيا" أو "الأحكام الاستثنائية" ومعاربة فرنسا للغة البلاد، وعرقلة حركات المصلحين بالوقوف في وجه جمعياتهم ومدارسهم الحرة، إلى غير ذلك من النظام التي كانت الحكومة الاستعمارية نصبتها على الشعب الجزائري بلا شفقة، ولا رحمة باسم النظام والندية واحترام القانون.

• إذا كانت السلطة الاستعمارية قد منعت انتشار الملة بالجزائر وتونس ومراكش وطرابلس فإنها كانت تسبل إلى هذه الأقطار بطرق سرية مختلفة، وكانت رسائلها تنشر في الأوساط بطريقة منظمة، كما أن مركزها في الشرق ضمن لها أن تعم أربع سنوات كاملة حافلة بالجهاد القلبي الواحد في الميدانين: السياسي والفكري، وما بينهما من تعديل المصنع وتصحيح الأوضاع، ومن بين التعادج التي نسوقها للقرائي الكريم عن مجلة "النهاج" هذا الفصل الذي كتبه حررها الشيخ إبراهيم إيتش عن فلسطين أيام كانت الدسائس البريطانية تعمل في خفاء وحيث تدعم اليهود بفلسطين وتشتيط محرليهم إليها استعداداً لإنشاء الوطن القومي اليهودي وفاء لوعده بيلغور.

قلت "النهاج" في عددها السابع في العدد الأول بتاريخ فاتح رجب 1344 تحت عنوان:

"أحوال فلسطين": لا ريب أن الصهيونية خطر كبير يهدد الشرق، ولا سيما الحركات الإسلامية على الأخص، وما أوجعها السياسة البريطانية إلا لتجدها عدة بين يديها لتوطيد مظاهرها الاستعمارية وعلى الأخص لتتمكن نفوذها في جزيرة العرب، وهي لعمر الحق حيالة حيلة مدبرة ماهرة، وقد كانت الصهيونية أحلاماً فارغة أو خيالات وهمية حققها المستعمرون، وأظهر لها يد الاستعمار الثلاثة بحق الشعوب الضعيفة وقد كانت ولا تزال الصحف الفلسطينية تعقد الفصول الطوال على ما ترتكبه الحكومة من الخيف والظلم في حق الفلسطينيين، بينما الصهيونيون الأغرار عناء¹ يرغبون في برد العيش، وأنبوحة العافية، وهم يرتكبون نحو الأهالي كل عسف ولا يمتثلون إذ يقولون لهم أهل البلاد الأصليون. ولهم استحقاق ذلك بأعمالهم، وأشياء ذلك في الكلام القارغ.

بينما كانت الأقواج منهم ترد على الجبال في شجعتها والغوارها² من أرجاء الأرض، ولو جحدوا النعمة وشكروا البلاد التي أولتهم وصافوا أهلها بقلوب سليمة وجدوا منهم كرمًا وإفيا.

وقد نشرت اللجنة التنفيذية للمؤتمر العربي الفلسطيني السابع فصولاً في المحرة المتدفقة على البلاد، واحتكار اليهود لامتيازات الحكومة، وإلى القارئ فصلاً منها بشرح في جلاء تام بحياة الصهيونيين واستأجرهم بحوات بلاد البشر، لا يحجز أهلها، ولكن بتأييد السلطة لهم وحرمان الفلسطينيين.

قالت اللجنة:

"إن الحكومة لم تظهر بحماية لليهود أكثر من سخطها المستمر في منح الامتيازات لأفراد تلك الطائفة، وأن الامتيازات الكوي التي منحت لهم لحد الآن هي امتيازات "رونغ" في الأردن و"بالا" و"حيفا" لتوصيل الكهرباء، وامتياز "الكبارة" وامتياز استخراج الملح في "عنتبت" وامتياز الاتسكي.

1 - في البحر الأبيض والصهيونيين الأغرار هذا القليل من عدده في 4 - صيف ودار إلى صوبه على البحر الأبيض
2 - حكايا في الأصل، ولكن جازع

ورغبة في الاختصار نعدد فيما يلي نقاط الاعتراض التي يرفعها أصحاب البلاد العربية على كل في هذه الامتيازات:

(أ) امتياز "روتونغ" في الأردن:

أ- لم يوضع للمناقصة العلنية، وأعطى سرا.

ب- أعطى لرجل يهودي روسي التبعية مع أن أحد مقاولي العرب الفلسطينيين طلب هذا الامتياز قبله فرفض الطلب.

ج- إن الحكومة لم تستشر السكان أمر هذا الامتياز مع أنه يؤثر تأثيرا مباشرا على مصالحهم الحيوية.

(2) إن المادة التي تنص على وضع القانون الأساسي للشركة لم تعتبر ضمنيا لقرب فلسطين وشرق الأردن، أو لحكومة شرق الأردن أي وجود على الإطلاق:

هـ- لا يزال الرأي العام جاهلا ماهية ذلك القانون الأساسي.

و- إن صاحب الامتياز لم يتحصل على 200 ألف جنيه في المدة المعنية في رأس مال هذه الشركة كما نصت على ذلك الاتفاقية، ولهذا وجب إلغاء الامتياز.

وهكذا راج تقرير اللجنة بحلل على ضوء القانون والمنطق فحوى تلك الامتيازات الظالمة التي كانت توزع على اليهود بسوء على حساب العرب أبناء البلاد، مما يدل أن تصميم دولة إسرائيل كان أقدم مما يتصوره الكثيرون، وكان ينفذ في أجزائه الصغيرة قبل أن تتمحض السياسة الغربية عن هذا الوليد غير الشرعي، دولة إسرائيل المقيطة.

وتختم اللجنة تقريرها قائلة:

"نما تقدم بنصح أن العربي الفلسطيني لا يحظ له في بلاده إلا الانتساب السوري، أما حيوات البلاد فقد احتكرها اليهود المهاجرون بواسطة الامتيازات

والتشجيعات الحكومية المادية والأدبية، وهذا لا يكون في نظر اللجنة عائقا أساسيا دون كفاح العرب في سبيل استرجاع حقوقهم وفرض وجودهم في بلادهم، وإقامة السدود دون هذه المحرقة اليهودية الجارفة المنيرة بأجسام الأخطار والمهددة بضياح فلسطين من يد آبنائها العرب، في يوم ما، إذا لم يأخذ العرب بأسباب الحد.

هكذا تختم اللجنة تقريرها الطويل الذي نشرته "المنهاج" بحذاقيره، ونحن نقول اليوم لهذه اللجنة الموقرة بعد خمسة وثلاثين سنة أن أكثر قسط في جريمة فلسطين يتحمله العرب أنفسهم، تلك الجريمة النكراء التي بدأت بالأسلحة الفاسدة، وختمت باتفاقيات تجارية مع إسرائيل، وأخيرا باعتراف الشاه. وقدما قيل في حكاية الزباء: "وهل يحزن الغير دم أضاعه أهله؟"¹

¹ - حافظا على غاية الحفلة 18 كما أرمعنا نوالف.

الفصل السادس

صحافة الأفراد ومواصلة الإصلاح

بسكرة وبوادر النهضة

كانت ¹ ببلدة "بسكرة" بقطة حماسة بالقطر الجزائري، وهي أجمل بلدة في جنوب قسنطينة، وتعتبر عاصمة الصحراء الشرقية، ومحور الحركات الاقتصادية بإقليم "الزاب"، ذلك الإقليم الغني بمنتجاته ذات السمعة العالمية من تمر (دقلة النور) وتمر الغرس وغيره من الأنواع التي أصبحت أوروبا تستورد منها الكميات الضخمة في الأيام الأخيرة سيما إنجلترا، كما أن إقليم (الزاب) يتمتع بمناخ جيد في تاريخ الحركة السياسية والفكرية ببلاد الجزائر. وناهيك "بمسيلة" التي كانت عاصمة الحماديين السياسية والعلمية، وازدهرت في عهد جعفر بن علي أحد ملوكها العظام الذين كانوا سبا لنوع كثير من فحول الشعراء، أمثال ابن هاني وغيره.

كانت بسكرة إبان الفتح الإسلامي الثالث مركزا للقيادة الإسلامية العليا، ولا تزال أحد قراها تحمل اسم الفاتح العظيم عفة بن نافع، وهي القرية التي تسمى "سيدي عفة" إلى يومنا هذا، كما ساهمت بسكرة في النهضة الإصلاحية بأكبر قسط ما بين عام 1925 و1940. لقد ضربت الرقم القياسي في مناصرة الثورة التحريرية الكبرى، وكانت في طليعة البلدان التي لبث داعي الجهاد منذ اللحظة الأولى، ومن جبالها انبعثت الشرارة الأولى لثورة نوفمبر 1954 المباركة.

1 - هكذا كانت بداية الحلقة التاسعة عشر.

وفي فجر اللقمة القلمية كانت بسكرة والزاب سوطا شريطا لاستهلاكا
تسورات وصحف الخرب الإصلاحي المطبوعة بمطبعة قسنطينة، وبخاصة الجزائر،
وكانت مرتعا خصبا لنمو الدعوات الإصلاحية لما في سكان الصحراء عادة من
استعداد فطري قديم احتضان المبادئ الإنسانية، والرسالات السماوية لشبهه للذكاء
الوفاد والفكر الثاقب والفرجة البناءة وتلك، هي أبرز الصفات التي يمتاز بها غالبا
سكان الصحراء.

التعريف بـ "صدى الصحراء"

كان في مقدمة الصحف التي شاركت في هذه المعركة سنة 1925 جريدة:
"صدى الصحراء" وهي جريدة علمية أدبية اجتماعية، انتقادية، شعارها "العمل
على دحر الفسدة قبل جلب المصلحة".

توزع يوم الاثنين من كل أسبوع بسكرة. صدر عددها الأول يوم 23
نوفمبر/تشرين الثاني سنة 1925 وكان يديرها ويحررها السيد أحمد بن العابد العقبي،
وتطبع بالمطبعة الإسلامية الجزائرية بقسنطينة، وهي المطبعة التي كان يديرها أحمد
بوشمال، وكانت جميع الصحف الإصلاحية تطبع فيها.

أما صاحب هذه الجريدة، فكان من أنشط دعاة الإصلاح، ومن أعضائه
البارزين² الشيخ الطيب العقبي، إذ ينسبنا معا لقربة "سيدي عقبة". وكان يعالج في
جريدته "صدى الصحراء" أهم القضايا الاجتماعية والسياسية مثلما ندره
عناوينها المتعددة مثلا:

— الأسراف في المهور، تشييط في العزوبة.

— اتقوا الله في أموالكم.

1 - في العدد الأصلي "من لسان الإمام".
2 - في العدد الأصلي "ومن لسان الإمام".

— افتحوا المدارس وأغلقوا المسجون والحانات.

— لا واسطة بين العبد وربه.

— أسباب فساد المجتمع العربي.

— العرب أمّة واحدة.

كانت هذه عناوين جريدة "صدى الصحراء" ومنها أهمية نستشف المواضيع
الحساسة التي خافح من أحلقها، وقد عاشت هذه الجريدة في محيط من التشييط
الإداري حتى وقع تعطيلها من طرف إدارة الاستعمار يوم 26 ديسمبر/كانون أول
سنة 1926.

جريدة "الحق" البسكرة

وعلى إثر تعطيلها قام أحد أبناء "سيدي عقبة" بإصدار¹ جريدة أخرى سماها
"الحق" وهي جريدة حرة أسبوعية مباحثها في العلم والدين والتأديب والسياسة،
مديرها وصاحب امتيازها الأستاذ علي موسى العقبي، تصدر بمدينة بسكرة يوم
الجمعة من كل أسبوع. تطبع بمطبعة النجاح بقسنطينة، صدرت في أبريل/نيسان
سنة 1926 الموافق لـ 07 شوال سنة 1344 وكانت كرميلتها "صدى الصحراء"
تواصل الكفاح في نفس الميادين الاجتماعية والإصلاحية والسياسية، وقد كتب لها
أن تعمر سنة واحدة بعد صدى الصحراء، ولقظت أنفاسها مخنوقة بيد الإدارة
الاستعمارية يوم 16 ماي/أيار سنة 1927.

نقدم إلى القارئ نموذجا من جريدة "الحق" فنجد في عددها الحادي عشر
المؤرخ في 15 محرم 1345 الموافق لـ 25 جويلية/تموز سنة 1926، دراسة تاريخية
حول: "الحمامات" بقلم مدير الجريدة، قال:

1 - في العدد الأصلي "قام أحد أبناء سيدي عقبة" بجريدة "الحق".

على درج السلام المؤدية للتخليص تيار كهربائي مكيف، وبمشرط على الزائر أن يخط حالي الرجلين، فما أن يضع رجله في الدرجة الأولى في السلم، حين يقفز مرغوبا من لسع التيار الكهربائي، فهناك يأمره الإخوان بالرجوع، وزيادة الشطيرة، وتصيح النية والإيمان بالشيخ، مفسرين تلك الظاهرة بأنها أثر من آثار غضب الشيخ على الزائر، لأن نيته لم تكن خالصة، ثم تتكرر اللعبة ثانية وثالثة ورابعة، حتى إذا سمح له برؤية الشيخ (بعد تقديم أعصابه وإعداده نفسانيا للاقتناع بكل شيء) ¹ أمسكوا من إطلاق التيار الكهربائي على السلام، فبرى الأسدين وعيناهما ترفان، وقد ملأ المكان زئيرا مزعجا، وذلك كله متوقف على ضغطة فوق زر كهربائي تحاب الشيخ الوقور، ولن ينفك الأسدان عن هذه المسرحية إلا بعد أن يمسى على الزائر الكريم، ثم يسعف بالتمشعات، فيستيق في جو من الهدوء والسلام، من هنالك يغور ² (بكم مرضيا) ويذهب إلى حيث اختارته العناية. بهذه الطريقة الأتوماتيكية يسلط الشيخ على العقول ويسحر النفوس والجيوب.

جريدة "البلاغ الجزائري"

وكان لزما حركة كهذه أن تعتمد على طريقة جديدة لنشر دعايتها، ومناهضة خصومها، وما دامت تستعمل الوسائل العصرية العميقة لإقناع مرديها، فأصدرت (مجردة) ³ "البلاغ الجزائري" بمدينة مستغانم يوم 24 ديسمبر/كانون أول 1926، وقد أسندت إدارتها لصاحب امتيازها السيد محمد بن محمد عبي الدين، ثم انتقلت إلى إدارة السيد عمروش الأخضر الذي واصل إصدارها إلى سنة 1956 حيث تولى بعاصمة الجزائر، وهي تصدر يوم الجمعة من كل أسبوع وقد كتب عليها ألفا جريدة دينية علمية إرشادية إخبارية تحررها نخبة من أبناء الجزائر شعراءهم: "نحن مسلمون قبل كل شيء" ⁴. وقد طرأت بالآيات الكريمة الآتية:

1- لم يمسح وضع يده
2- مقلد في الأصل والحق في المصاحفة
3- الجريدة المنشأة لإقناع كافة جريده
4- شعار البلاغ الجزائري هو: نحن مسلمون قبل كل شيء

"فإن أسلموا لقد اعتنوا فإن تولوا فإنما عليك البلاغ" — "إن الدين عند الله الإسلام" — "إن في هذا البلاغ لقوم عابدين" — "ومن تبع غير الإسلام ديننا فلن يقبل منه".

ومن فصولها: فصل تحت عنوان "كتاب مسيو فيوليت":

"لقد نشر مسيو فيوليت الوالي العام على القطر الجزائري كتابا تحت عنوان (هل الجزائر مستعيشة؟) وإنه والله لكتاب قيم نزيه موافق للمبادئ الإسلامية الطاهرة، بخلاف لما يقوله بعض المفرضين الانفصاليين الذين يتححون بالاستقلال، وهو في الحقيقة ضرب من الخيال لا يكون إلا في رؤوس المهانين. إن فكرة الرجل العظيم مسيو فيوليت تتلخص في اعتبار جزء من الجزائريين فرنسيين، وإدماجهم في المجموعة الكبرى، مجموعة فرنسا أم الوطن، ذات العلم المثلث الألوان ذلك العلم الذي نستظل بظله، وتدافع عنه بنفوسنا وأرواحنا، وقد دافعنا عنه في الحرب الكبرى، وقمنا بجميع الواجبات نحو فرنسا صديقة الإسلام والمسلمين.

واليوم يجب أن نتمتع بالحقوق التي يتمتع بها إخواننا وأشقائنا الفرنسيين، وهذه الحقوق على رأس مسيو فيوليت لا تمنح إلا للنخبة المثقفة، وكبار التجار والموظفين، وهو على صواب في رأيه لأن ورقة الانتخاب سيف ذو حدين، قد تعود بالضرر العظيم على الجهال الذين لا يحسنون استعمالها على حد قول المتنبي قديما:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم ضردا
ووضع الندي في موضع السيف بالعلو مضر كوضع السيف في موضع الندي

فنحن نشكر مسيو فيوليت على هذه النية الخالصة، وننصح إخواننا المسلمين الجزائريين بموازرتة، والثقة به، فإنه وإن كان واليا عاما على الجزائر إلا أنه لم يكن ظالما بل كان من أحرار فرنسا المتصفين، نسأله تعالى أن يطيل عمره، وأن يكثر أمثاله وأن يتصر العاملين تحت ظل الراية المثلثة المفاة."

نعرض هذا الفصل على القارئ الكريم بدون تعليق أما بشيئ فصول هذه
الخرينة، فهي كلها في الطعن والتهجم على رجال الإصلاح، وصحيفة 3 جمعية
العلماء¹، وعلى الأخ الأستاذ ابن باديس والطيب العقبي والشيخ مبارك النيلي وأبي
اليقظان، والزاھري، والعمودي، وقد نشرت في عددها الصادر يوم 16 سبتمبر
1929² فصلا في الرد على ابن باديس والعقبي جاء فيه:

"سمعتنا بتأسيس جمعية تضم العلماء المسلمين الجزائريين، فحسبنا أنها جمعية
أست على التفوى في أول يوم، وأنها ستقوم بنشر العلم، وبث المبادئ الإسلامية
في عقول أبناء الجزائر، فإذا ما تحرف عن مبادئها الأساسية، وتشن حربا شعواء
ضد الصالحين من عبد الله، أولئك الذين حياهم الله بأنواره الربانية، وأفاض عليهم
من أسرار الروحانية، وتفتحاته اللدنية، ما جعلهم من المقربين لسدته العليا، أمثال
القطب الرباني مصباح الظلام، وحامي الإسلام السيد أحمد بن مصطفى العليسي
- إن ابن باديس وصاحبه العقبي ومن يلوذ بهم من المشوشين المشاغين أصبحوا
يهدمون الشريعة الإسلامية بنكرانهم للوسيلة والزيارة، ويتهمون على أولياء الله
معرضين عن الوعيد الذي جاء³ في قوله ﷺ: "من أدى لي ولينا فقد أدته بالحرب".
ودعب الكاتب في هذا النوع من الهديان ليحتم فصله بالوشاية والتحريرض
ويقول:

"نحن نلقت أنظار أولي الأمر إلى ما يقوم به العلماء هؤلاء، من الفتنة
والشوش، أن نتم العدالة بإيقاظهم عند حذهم، وحماية رجال الدين الحقيقيين
الذين تعهدت دولتنا العزيزة بحمايتهم".

وجاء في عدد 12 أكتوبر سنة 1930 تحت عنوان "ونأتون في ناديتكم الشكر":

1 - مكتبة في القام، غير أن حيا العلماء فاستند
بكونه يملك كتابا في يد هذا المصنف
2 - في النص الأصلي "في يد هذا المصنف"
3 - في النص الأصلي "في يد هذا المصنف"

"لماذا تأسس نادي الترقى بالجزائر؟"

— كنا نظن سيكون ناديا يضم رجالا لخدمة الدين الخفيف، وبث الأخلاق
الفاضلة، فإذا بجمعية العلماء لتتكبر، وتتخذ ناديا للشتم في الروايات والشايخ إلى
آخر ما في الفصل من التحريض والإساءة للنادي ورجال النادي.

هذه نماذج مقتضبة تضعها بين يدي القارئ الكريم حتى يتصور كيف كانت
الإدارة تحرك رجال الروايات بأصابعها المظلمة من وراء الستار، ولنا والله ضد
الروايات ولا ضد الطرق ومشائخها، فإن للروايات تاريخا حافلا (بالحفلات بالحسان)¹
قل سبعين سنة مضت.

وهل بقيت اللغة العربية محفوظة ببلاد الجزائر إلى هذا اليوم بالرغم من سياسة
التحليل التي تتبعها فرنسا، منذ أن دبت في أرض الجزائر².

فأكثر فضل في ذلك يعود ما قامت به الروايات عبر التاريخ من صيانة هذه اللغة
وإصلاحها من الأحقاد إلى الأحقاد، وأن الثورات المسلحة التي قامت بالجزائر بعد
الاحتلال إلى نهاية القرن التاسع عشر كانت تنبأها الروايات، كثورة الزعاطشة
بالجنوب الجزائري، وثورة أولاد سيدي الشيخ بالجنوب الوهراني، وثورة جبال
حرجرة التي قام بها المقراني، وثورة الأوراس سنة 1853 إلا أن هذا السلف الصالح
ترك حلقة المحرفوا عن الجادة وحادوا عن واجبهم الوطني والديني، فاستغل
الاستعمار انحرافهم واتخذهم مطايا لأغراضه ومعاول هدم القومية باسم القومية،
وتعطيم الدين باسم الدين، هذا الانحراف يرجع إلى أسباب مختلفة ليس هنا محل
شرحها³.

1 - هكذا في النص الأصلي، وللمن غير واضح
2 - في النص الأصلي كتابه لم يسكن من ذلك وموردها والمصادرة ليس واضحة بالنص الأصلي
3 - اجتمع المؤلف المجلد 20 قوله: "ووجدنا مع القادة الكرام في الجمعية اللغة لخدمة من صحيفة أخرى من هذا العهد
والسلام"

الفصل السابع

شيخ الصحافة ومقاومة المنع

القانون الاستثنائي والكفاح القلمي

إذا كان لقب شيخ الصحافة¹ حديرا بأحد من أرباب الصحافة بالجزائر، فالشيخ أبو اليقظان يمتاز بهذا اللقب عن جدارة واستحقاق، فلقد قطع عشر سنوات كاملة من الكفاح الصحفي المجيد بتحدى إدارة الاستعمار بالجزائر، بصبر وأناة وعزم، لا يعرف التراجع، وذلك في فترة تعد من أصعب الفترات وأقساها في مراحل الكفاح القلمي بالجزائر، فالأمة في يقظة واندفاع، والحكومة الاستعمارية ومن ورائها العملاء والصناع في نوبة عصبية حادة، والقانون الاستثنائي الجائر سيف بيدها مسلط على الحريات والرقاب، فهي تحجز وتصادر لأدنى سبب، وتحكم بدون مبرر، وبمجرد ترديد كلمات: الوطن، المجد، القومية، الحرية، الأمة الجزائرية العربية، الكرامة، العزة، يعدد مساسا بأمن الدولة الداخلي والخارجي وتخريضا على التمرد والعصيان وكفيلة بأن يعجل بنهاية الصحيفة التي نشرتها إن لم يندف بكاتبها في الظلمات.

أما كلمة "استقلال" في مقال أو خطاب فلها كانت تعد من أكبر الجرائم التي لا يعفيها قرار مسيو "ريني" عن ستين سحنا ومن كمشة من الآلاف تغريما، والجرائد لا يسمح لها بالانتشار إلا إذا ترجمت حرفيا بمصالح الرقابة وفحصت بألة المكربسكوب، وكان على رأس الشؤون الأهلية (فهرمان عحوز) ومن لفيف المستشرقين ويقال له "ميرانط" وهو من أخصب التعاليل الاستعمارية التي بليت بها

1 - مكنت كانت بداية الحلقة 21.

الجزائر، وكان الحاكم يأمره في قصر الولاية العامة بهز من يشاء ويذل من يشاء، فلا مطلب لحكمه ولا رقيب، وبدون محاكمة يستطيع أن يحبس وأن يزوج بصاحبها في السجن أو ينفذ به في إحدى اللجان الثانية بالصحراء، وظالما كان يسطر للصحف الجزائرية منعها ويقوم في بعض الأحيان بوظيفة رئاسة التحرير من وراء الكواليس.

سبع جرائد في عشر سنوات

في هذا الجو المكهرب المسموم كان أبو اليقظان يصارع الأحداث ويتحدى "ميراث" وما إن تستشهد صحيفة من صحفه حتى تتلقف الراية باليمين جريدة جديدة تحمل اسما جديدا وكان القانون الفرنسي آنذاك لا يربط صاحب الجريدة باستصدار رخصة خاصة بل كان يكفي مجرد التصريح لذلك ترى للشيخ أبي اليقظان سبع جرائد في ظرف عشر سنوات وهي على ترتيب التاريخ:

(وادي ميزاب - ميزاب - المغرب - الأمة - النور - البستان - النور).

صحيفة "وادي ميزاب"

صدرت وادي ميزاب يوم 01 أكتوبر/أشهرين الأول سنة 1926 وهي تصدر كل يوم جمعة، تطبع بتونس وتوزع بالجزائر، وكان أول الداعين لتأسيسها والعاملين على صدورها كالأستاذ السيد محمد ابن الحاج صالح التميمي، وهو الذي تول رئاسة تحريرها وطبعها بتونس والإشراف على تصحيحها وتوجيهها جاهرة للجزائر.

وكان الشيخ التميمي بتونس - رئيسا للجنة الميزابية - إلى جانب الشيخين: - أبي إسحاق إبراهيم الذي بقي فيما بعد إلى مصر من طرف الإدارة الاستعمارية.

- وأبي اليقظان إبراهيم الذي انتقل إلى عاصمة الجزائر وفتح مكتبها بالجريدة "وادي ميزاب".

وحل جرائد أبي اليقظان كانت تطبع بالمطبعة التونسية ثم انتقلت إلى المطبعة الأهلية بنهج الديوان فطلبت الحكومة الاستعمارية بالجزائر من حكومة تونس عدم السماح بطبع جرائد أبي اليقظان بتونس إلا برخصة خاصة من حكومة الجزائر، وأنداك اضطر أبو اليقظان لطبع جرائده بمطبعة "المغرب" التي كان يملكها ابن عليوة بعاصمة الجزائر، ومديرها الأخضر عمروش رئيس تحرير "البلاغ الجزائري" سنة 1929.

وقد جمع رأسمالها من إعانات وتبرعات أفاضل التجار المزابيين، بواسطة السيد التميمي من مقاطعة فلسطين، والشيخ إبراهيم امتياز من مقاطعة الجزائر.

ولتأسيس جريدة "وادي ميزاب" أسباب كثيرة أهمها محاربة الإدارة الاستعمارية لبعثات التعليم التي كانت تنفطر من ميزاب على تونس (حيث يوزع أفراد هذه البعثات)¹ على مدارسها القرآنية الأهلية وجامع الزيتونة، وقد اعتمدت الحكومة في هذه المعركة كعادتها طائفة من الرجعيين المتحسين، اتخذهم أوقافا لدعائبتهم المفروضة في مساجد ميزاب وبواديها، لتلزم الميزابيين بالخطر الذي يهدد مذهبهم وعوائلهم إذا سمحوا لأبنائهم أن يتعلموا بتونس في مدارس المخالفين.

وقد احتمدت المعركة واندلع فيها بين الطرفين فلم تقتصر على الحملات الصحفية بل اجتازتها إلى تأليف الكتب ونشرها، فألف الرجعيون كتاب "كشف اللثام عن أغراض بعض اللثام" ورد عليه أنصار الفكرة التقدمية الإصلاحية بكتاب "إرشاد الحائرين"² من تأليف الشيخ أبي اليقظان، ودخل المعركة شيخ من شيوخ الوطنية القدامى وزعيم من زعماء الحزب الدستوري التونسي، الشيخ صالح بن يحيى الجزائري، فكتب عدة مقالات ضد الجزائريين بجريدة "الصواب" وجريدة "لسان الشعب" التونسيين، وكان أسلوبه فلسفيا متأثرا بأسلوب صديقه ورفيقه في الكفاح والسجن الزعيم العربي الكبير الشيخ عبد العزيز الثعالبي، وهذه المقالات

1 - في السير الأولى "النور" على... "تونس لا تطع أي الناس سوى الله ربنا إلهنا الصالحين" حيث ورد قوله هذه المقالات على...

2 - العنوان الكامل للكتاب هو "إرشاد الحائرين".

كانت سيا لصور كتاب "الراعي القاصدة" للرد على الشيخ صالح بن يحيى، و
عليه بدوره الشيخ أبو اسحاق ابراهيم اطفيش من القاهرة بكتاب "الدعابة إلى
سبل المؤمنين".

كانت هذه المعركة التي انتهت بغزو التقدميين سيا لإصدار جريدة "وادي
ميزاب" على أن هناك سيا آخر أقل أهمية من الأول تذكره عبارة لأمانة التاريخ،
وهو أن بعض الجرائد العربية الجزائرية كانت تمتنع عن نشر أي شيء يتعلق بميزاب،
سواء نظم كتابها أو بقلم بعض الكتاب الميزابين كالشيخ التميمي، والشيخ أبي
اليقظان، فساهمت جريدة "وادي ميزاب" في تطهير القلوب من بقية الرواسب
للحياة العتيقة، تلك الرواسب التي كان يغذيها الجهل وينعشها الاستعمار، فكانت
جريدة "وادي ميزاب" تعالج المشاكل الجزائرية العامة والمشاكل الإسلامية العربية،
وتساعد¹ جمعية العلماء في معركتها الإصلاحية العنيدة. والشيخ أبو اليقظان من
أبرز أعضاء "جمعية العلماء" منذ فخر تأسيسها.

وكانت جرائد أبي اليقظان بظاهرها الوطني الصريح مما جعلها تلاقى حتفها بعد
صلورها بقليل وقد ساهمت في الميدان الاجتماعي والميدان التربوي الأخلاقي
مجهودات موفقة، ومجموعات جرائد أبي اليقظان يمكن أن تكون مرجعا من
أعصاب المراجع وأوثقها سواء عن تاريخ المعارك التحريرية بالجزائر أو عن مراحل
التقدم الفكري والاجتماعي.

واحة وادي ميزاب

وسميت الجريدة باسم واحة بالجنوب الجزائري تسمى "بوادي ميزاب" يسكنها
قسم من الجزائريين المصلحون من سلالات بربرية وعربية وفارسية وأغلبها من قلوب
الريستين الذين بسطوا نفوذهم على جل بلاد الجزائر مدة مائة وستين سنة، فيما
بين القرن الأول والثاني للهجرة.

1 - مجلة الترميز، إصدار من الجزائر

وكانت قاعدة ملكهم عقبة "نهرت" بالجنوب الجزائري، فاكسهم
الصغرى والأزرق فاحتلوا إلى "استمررت" بورقلة، ثم عمروا القرى النجى بواقي
ميزاب وهم يتطهرون بالذهب الإياضي نسبة إلى عبد الله ابن إياض
ويحتم علماء الإسلام هذا المذهب أقرب المذهب إلى الأشعرية، سيما بعد
الإياضيون أنفسهم "الفرقة الناجية" ويلقبون أنفسهم "بأهل الاستقامة".
ومن أكثر أئمتهم المتأخرين الشيخ عبد العزيز التميمي صاحب كتاب "كبريل"
المتعمد في الفقه الإياضي، والشيخ أحمد اطفيش وقد ترك هذا الأخير ما يروى عن
توثيقه تأليف حلها غير مطبوع ومن تلامذة الشيخ التميمي، الشيخ أبي اليقظان
صاحب جريدة "وادي ميزاب"¹.

"وادي ميزاب" والقضايا الوطنية

واصلت جريدة "وادي ميزاب"² كفاحها بالقيام ثابته، وكانت الجريدة
الوحيدة من بين جرائد عصرها التي تعالج بصفة دائمة ومستمرة القضايا الوطنية،
والأحداث السياسية بالجزائر، مثل حركة المؤتمر الإسلامي الجزائري عام 1936 وما
يلها من مراحل، فكانت تتبع باهتمام بالغ خطوات الوفد الجزائري بباريس التي
من هذا المؤتمر كما أنها لم تتحرج من إبداء انتقاداتها الصريحة على بعض تصرفات
الوفد، وعلى البدا الأساسية الذي اتخذ الوفد قاعدة لطلالته، وهو ما يسمى
بمشروع "بلوم قبوليت" القاضي بسلح طبقة من النخبة الجزائرية المثقفة من المجموعات

1 - مجلة الحياة الحقلية 21 الصادرة الثانية، ديسمبر، صفحة الثانية تذكر جرائد أبي اليقظان والمراجع في كتابها بالسلام
عليكم وراحة الله. غير أن هؤلاء أو هؤلاء في حقله الثانية لا يحترق القضايا التي كان يحلقها أو القطار كذا الصحف في
أشكاله أبو اليقظان في معركته مع السلطات الاستعمارية، فهي
- "وادي ميزاب" من يوم 1926/10/1 إلى 1929/01/08
- "ميوال" صدر منها عدد واحد يوم 1930/01/25
- "الغرب" ابتداء من يوم 1930/05/29 إلى 1931/05/09 وقد أصدرها باسم جريدة ليم بن يحيى
- "الشرق" ابتداء من يوم 1931/09/13 إلى 1933/05/03
- "السنار" ابتداء من يوم 1933/05/27 إلى 1933/07/13 باسم جريدة نهرت يحيى كليلت
- "الفران" ابتداء من يوم 1933/07/21 ولم يصدر منها سوى ستة أعداد
- "الآلة" ابتداء من يوم 1933/09/08 إلى 1934/01/07
- "الفرقان" ابتداء من يوم 1934/07/03 إلى 1934/08/18
2 - مجلة الحياة الحقلية 22 كما في

الجزائرية، وإدماجها في الحسنة الفرنسية مقابل التمتع بحقوق طبيعية مشروعة لا تحتاج إلى التخلي عن "المجموعة" لها لها.

وكانت جريدة "وادي ميزاب" وما تلاها من جرائد أبي اليقظان تركزت بصفة غير مباشرة، وثارة بطريقة مباشرة الحركة التحريرية التي كانت تبتناها "لجنة إفريقيا الشمالية" بين عام 1930¹ وعام 1937.

كما أن "الطبعة العربية" التي أسسها أبو اليقظان كانت لا تبجل على الحزب الوطني بطبع منشوراته السرية، مما سبب لأبي اليقظان ومطبعته تفتيشات متواصلة ومضايقات.

وقد اعتقل ابنه عيسى، وقضى سنة بربوروس لأنه طبع منشور وحرائد "الحزب الشعب الجزائري" كما وقع اعتقاله إبان الثورة الجزائرية سنة 1956 وأطلق سبيله بعدما قضى شهرا كاملا بين يدي جنود المظلات يقاسي أنواع التكال والعذاب، وذلك بتهمة طبع منشور لجهة التحرير الوطني الجزائرية.

وكان للقضايا العربية العامة حظ كبير في صحف أبي اليقظان في الطبعة فلا يكاد يخلو عدد من "وادي ميزاب" أو غير "وادي ميزاب" من قصيدة أو قصيدتين، وقد كانت سوقا عكاظية يتبارى فيها شعراء الجزائر النابيين أمثال: محمد السعيد الزاهري، ومحمد العيد، ورمضان حمود، والهادي السوسي، وبكيو ابن الحاج سليمان، وعبد الرحمن البكري، ومقدي زكرياء.

وقد خصصت "وادي ميزاب" صفحة كاملة لمدة ثلاثة أشهر لنشر كل ما قبل في المهرجان التاريخ العظيم الذي أقيم في أوائل ماي 1927 بالقاهرة للاحتفال بتكريم أمير الشعراء أحمد شوقي بك، وقد صدرت الجريدة هذا الشريط بمقال افتتاحي في عددها المورخ في يوم الجمعة 18 جوان/حزيران 1927 بقلم رئيس التحرير الأستاذ محمد التسيحي تحت عنوان "أثر الحياة في الشرق" أو "الاحتفال بتكريم أمير شعراء العرب" جاء فيه:

1 - انظر في العدد الرابع من المجلد "أثر الحياة في الشرق" ص 20 و 21 من 1926.

"في الشرق اليوم حركة مباركة في كل فرع من فروع الحياة علمية واقتصادية وسياسية.. وأظهر أثر هذه الحياة ما نراه اليوم في أقطار الشرق كلها من التحضر للنهوض وبخبرة الأمم الحية في منافع الرقي والتثبث بأسباب العظمة.

وقد كان هذا موضوع شك واختلاف بين المفكرين في الشرق والغرب، بات اليوم حقيقة بينة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، فأصبح الساسة والمفكرون في الشرق يعملون لتسمية هذه الحركة وتقويتها وإبلاغها إلى غاية يعرف بها الغرب للشرق مقامه، وظل أولئك في الغرب يكتفون ويعتمدون في مختلف الوسائل لتفهم كنه هذه الحركة وبلغ أثرها وغايتها ويسعون لإيقاظها عند حد (وما هم بناحيين).

وموقف الشرق إزاء هذا كله موقف الشاب المثلث قوة ونشاط، أمام شيخ وأبن القوى يستمد من ماضيه قوة لحاضره غافلا أن سنن الله في الخلق (بأن النعم قلب) وتلك الأيام ندأولها بين الناس.

وأجلى برهان على ما قلنا المؤتمر الأدبي الذي أقيم في أوائل شهر ماي/أيار في القاهرة أو سوق عكاظ أو الاحتفال بتكريم أمير شعراء العرب أحمد شوقي بك، بحيث جاء القاهرة نواب عن كثير من البلدان العربية، فوقفوا يتشكرون ما للمحتفل به من الفضل والأثر الحميد في الأدب العربي، ولا يخفى ما في هذا من تقوية روابط أخوة بين الناطقين بالضاد.

ونحن نأسف لعدم وجود ممثلين رسميين لشمال إفريقيا في هذا العيد الذي يجب أن يقف فيه المغربي بجانب إخوانه الآخرين.

وقد كانت جرائد أبي اليقظان تتمتع بسمعة طيبة في الشرق العربي، وتنقل عنها شهرات الجرائد والمجلات العربية مثل: "الرابطة القلمية" و"الفتح" و"الشهجة" و"الرسالة"، وقد كتب في تقريرها الأمير شكيب أرسلان، رسالة لأبي اليقظان نشرها في عدد يوم الجمعة 4 ماي/أيار سنة 1928 جاء فيها:

"لوزان في 14 نيسان/أفريل 1928

حضرة الأفاضل أصحاب جريدة "وادي ميزاب" المحترمين، إنني
للقيت رزمة عظيمة من أعداد جريدتكم، فأحييت أن أنصفحها ولو بنظرة متسرفة
وفرات أشياء لذيذة ومفيدة فسألت الله لكم النجاح.

وما من حاجة للبيان، أن القطر الجزائري بهمنا كما بهمنا الأقطار الشرقية
فحسب أن لا نكون عظمين في تقديرنا في إخواننا الجزائريين - نعم إلى الأمام.. لا
إلى الوراء..

وقد سرتني ما قرأته في كتابات بعض السواح من أدباء الإفرنج عن وادي
ميزاب، وكنت نقلت عبارة عن هذه الكتب، تذكرة لنفسي، وهذه العبارة بقيت
بين أوراقني إلى أن ورد لي ما أرسلت فأحييت أن أهدبكم إياها، وأرجو أن يكون
ما فيها صحيحا. إذ ما دتم هذه الأخلاق، ومحافظين على شعائركم الدينية
والقومية فلا خوف عليكم.

(رأى بعض السواح الفرنسيين في وادي ميزاب - المسيو أندري شافيون من
أعضاء الأكاديمية الفرنسية في مقالة صدرت في 15 نيسان/ أبريل من مجلة "العالمين"
عن الإباضية في ميزاب يقول:

"أنه زار مدينة بني يزقن في طرف الصحراء، وهي أشد بلدة إباضية تمسكا
بتقاليد منذهبهم، فقال له سكرتير مجلس البلدة، وهو عندهم بالانتخابات: "في
بلدتنا ليس وجود الفقهاء والعلماء منحصر في المساجد، بل كل من في البلدة
طالب، وكلهم درسوا طويلا، يحفظون القرآن غيا مع تفسيره" فهذه مدينة
الشرع، أهلها يرغبون في النظام والسلام. ويلاحظون العادات اللائقة، وهنا الغناء
والصراخ ممنوعان، ولا يستحب الضحك الكثير، ثم قال: جماعة متمسكون
بالتقليد، ولا يقبلون سواه، وليس عندهم غريب، بل كلهم من بني ميزاب أهل جد
وعلم وانقياد للشرع"¹.

الفصل الثامن

1 - كانت هذه المقالة 21 بالعدد الثاني وسبق وسبق في العدد، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

تكنولوجيا الصحافة

عام إصدار الصحف العربية ومتعتها

كما في حصصنا الماضية¹ أفضينا الحديث عن مجموع الصحافة الجزائرية العربية، ابتداء من عهد الاستعمار، إلى عهد اليقظة في عهد المقاومة القلمية الأولى إلى عهد المقاومة السياسية، وحيث انتهى بنا الحديث في حصصنا الأخيرة إلى الحديث عن الصحافة التي صدرت بعد الاحتفال للثوري، ونرى من الصواب أن نجعل القول عن بقية المراحل، حيث قد أعطينا للقارئ الكريم صورة عامة عن صحافة الإصلاح وصحافة العملاء واستعرضنا نماذج مختلفة للمواضيع التي كانت تعالجها.

نحن الآن على أبواب سنة 1933 وهي السنة التي سجلت أضخم رقم في تاريخ الصحافة العربية في الجزائر، إذ يمكننا أن نلقبها بعام الصحافة، فقد صدر فيها ما يزيد عن سبع جرائد، بينما كانت السنوات التي قبلها لا تشمل إلا على صحيفة أو صحيفتين.

والسبب في ذلك هو انتشار الوعي الوطني في سائر طبقات الأمة عن طريق الحركات الاستقلالية والحركات الإصلاحية بالجزائر، فحزب "نجم شمال إفريقيا" كان يؤدي رسالته بخطى ثابتة وجريئة وبصاف كل تشجيع من طرف طبقات الأمة العظيمة، و"جمعية العلماء" عن طريق نادي "التقدم" كانت تقوم في

1 - هكذا كانت بداية الحقبة 23.

وحياة واعتقال بالاستعانة بروح العروبة وتطعيم الأسلم النحسة التي كان الاستعمار يحميها بحالة من التهويل والتفديس.

فتحت الصحافة العربية في الجزائر طريقها قديما، وازدادت نموا وازدهارا مع نمو الأحداث وانتشار الحركات الوطنية، ويزيدها عنت الاستعمار واضطهادها وابعائها، فقد لاقى هذه الحركات ولاقي أحرار الجزائريين المسجون لها كل أنواع العنف والمعاكسة من طرف الحكومات الاستعمارية المتوالية، حتى على من يسمون أنفسهم بالديمقراطيين التفلعيين، فقد شجرات حكومة "الجبهة الشعبية" التي كان يرأسها سنة 1936 مسيو (بلوم) على حل حزب "نجم شمال إفريقيا"، والخرج برجاله في أعماق السجون، فأسس على أنقاضه أتباع الحزب المنحل حركة باسم "حزب الشعب الجزائري" فعمدت السلطات لتحويلها لمجرد اندلاع الحرب الكبرى الثانية، وظلت تعمل في الخفاء، ثم ظهرت متمصصة حركة "أحياب البيان" ثم "حركة الانتصار للحريات الديمقراطية" إلى أن دق جرس الثورة الجزائرية العارمة، فسكت القلم لينكلم الرصاص.

قائمة الجرائد في بداية الثلاثينيات

فلنستعرض الآن الجرائد التي صدرت بالجزائر في هذه الفترة الحية من تاريخ كفاحها:

البرق

صحيفة اجتماعية أدبية انتقادية سياسية اقتصادية تصدر يوم الاثنين من كل أسبوع مديرها وصاحب امتيازها السيد الرحومي محمد عبد الحيد، شعارها خدمة الوطن والمصلحة العامة واستثمار المال.

صدر العدد الأول منها في مارس/آذار سنة 1927.

1 - هذا هو التاريخ الذي "تولد فيه" الجرائد في الجزائر، وكان مقدي وكرهه أحمد فاضل
والسنة لم يكن إلا أول صحيفة "شعبية".

وقد حاول مديرها طبعها بتونس، وذلك في رسالة مؤرخة يوم 21 ماي سنة 1927 للأستاذ زين العابدين السوسى فلم يحصل الاتفاق على طبعها بتونس.

الإصلاح

جريدة إسلامية حرة، امتيازها ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول الشيخ الطيب العقبي، وهي جريدة حرة إسلامية (حرة في مباحثها وهي دينية قليل كل شيء) تصدر مرة في الأسبوع في سكرة ثم بالجزائر.

صدر عددها الأول يوم 08 سبتمبر/أيلول سنة 1927، ساهم في تأسيسها وتحريرها الأستاذان محمد العيد والأمين العمودي.

المبصر الإفريقي

جريدة إخبارية اقتصادية سياسية، توزع مرتين في الشهر بقسنطينة، ذات أربع صفحات واحدة بالعربية والبقية بالفرنسية، مديرها الاقتصادي السيد سنترلي محمد الصالح، صاحب امتيازها السيد عيشاش محمد الصالح.

الإخلاص

جريدة علمية اقتصادية إخبارية (تخدم ركاب الاستعمار) وهي لسان طائفة العلوية، كتب عليها: يحررها نخبة من العلماء العاملين المعتدلين، ولها غور انتفاعية. توزع الفاضل من أرباحها على المشاريع الخيرية الإسلامية.

تصدر يوم الأربعاء من كل أسبوع، صدر عددها الأول يوم 14 ديسمبر/كانون الأول سنة 1932 بالجزائر، رئيس تحريرها المولود بن الصديق الحافظي الأزهرى، مديرها السيد عمر اسماعيل.

المرواد

جريدة دينية أخلاقية، تصدر كل يوم جمعة بالجزائر صدر عددها الأول في 31 ديسمبر/كانون الأول 1931 مديرها شاعر الأعراس محمد عباسية الأحضري، وصاحب امتيازها (جوكلاري محمد الشريف) تطبع بالمطبعة العربية بالجزائر.

لسان حال جمعية الودادية للطلبة المسلمين بشمال إفريقيا.

تصدر باللغتين العربية والفرنسية، صدرت بالجزائر في 4 نوفمبر / تشرين الثاني 1932 مديرتها السيدان علي الزواوش ومصطفى علوش، ووكيلها باسعيد هلمون بن بكو.

المعيار

جريدة مطبوعة بادية، أسسها سفهاء الطريقة العلوية للتبيل من أغراض العاملين في النقل الإصلاحي والوطني في الجزائر، تغذيتها الإدارة الاستعمارية.

تصدر مرتين في الشهر، مديرتها هراس مصطفى، ومحررها جهينة، صدر العدد الأول منها في شهر ديسمبر سنة 1932.

الحجيم

جريدة فكاهية انتقادية، أصدرها سفهاء "جمعية العلماء" للرد على "المعيار" بلغة جريدة المعيار.

تطبع بالجزائر، وتصدر أسبوعيا، برز عددها الأول في مارس سنة 1932¹.

الحياة

صحيفة حاملة تصدر مرتين في الشهر تحت إشراف جمعية "الوفاق" وإدارة كاتبها العام محررها مفدي زكرياء، صاحب امتيازها (جوكلاري محمد الشريف). صدر عددها الأول غرة أبريل سنة 1932 تطبع بالطبعة العربية بالجزائر.

الشرعة

لسان حال "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" تصدر يوم الاثنين من كل أسبوع بقسطنطينة تحت إشراف الأستاذ عبد الحميد بن باديس، يرأس تحريرها الأستاذان العقبي والزاهري، صاحب امتيازها السيد أحمد بوشمال.

1 - لا يكون هناك مطبوع في الجزائر من قبل 1932 وتكونت بعد السبع المصاحف يوم 11 مارس 1933.

صدر العدد الأول منها يوم 17 جويلية/تموز 1933، صدر منها ستة أعداد فقط ثم عطلتها الحكومة¹.

الخاروس

جريدة انتقادية أخلاقية.

صدر عددها الأول بمدينة الجزائر يوم الجمعة 04 أوت/ آب 1933، مديرتها السؤل ومحررها السيد غريب عبد الرحمان، صاحب امتيازها السؤل السيد جوايل ماسي.

الضراط السوي

لسان "حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" تصدر يوم الاثنين من كل أسبوع تحت إشراف الأستاذ عبد الحميد بن باديس يرأس تحريرها الأستاذان العقبي والزاهري، صاحب امتيازها أحمد بوشمال.

صدر العدد الأول منها يوم 11 مارس/آذار 1933 بقسطنطينة، برز منها ستة عشر عدد فقط ثم عطلتها الحكومة².

الثبات

جريدة اجتماعية سياسية وأخلاقية تصدر يوم الجمعة بالجزائر مديرتها السيد محمد عباسي الأعصري، صاحب امتيازها جوكلاري محمد الشريف، صدر عددها الأول في 19 جاني/كانون الثاني 1934، تطبع بالطبعة العربية بالجزائر.

البصائر

لسان حال جمعية العلماء بالجزائر، أسبوعية، صاحب امتيازها الأول للشيخ محمد خير الدين، ومديرها الأول الشيخ الطيب العقبي، ثم انتقلت إلى قسطنطينة يوم 27 ديسمبر/كانون الأول 1935، وعطلتها الحكومة في سنة 1957³.

1 - صدرت الشريعة ابتداء من يوم 17 جويلية 1933 ومنعت يوم 28 نون 1933.
2 - تذكر أغلب المراجع أن "الضراط السوي" قد صدر منها 17 عددا ابتداء من 11 ديسمبر 1933 إلى 08 يناير 1934 ووافق أن هناك خطأ مطبعيا.
3 - لجريدة "البصائر" مسجلة، الأولى كانت قبل الحرب العالمية الثانية من 12/1933 إلى ديسمبر 1934 والثانية كانت بعد الحرب ابتداء من 1947/07/25 إلى أبريل 1956 ولا شك أن المؤلف قد كتب ذلك من خلال.

نشرة فكاهية انتقادية تصدر مرتين في الشهر بالجزائر مديرتها ومحررها السيد علي بن سعد، صاحب الامتياز جوكلاري محمد الشريف.
صدر عددها الأول يوم 8 فيفري / شباط سنة 1936.

السنة الثوبية

لسان حال "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" بمحررها الأستاذة ابن باديس والمفتي والزاهري، برز العدد الأول منها يوم 18 ديسمبر / كانون الأول سنة 1933.

أبو العجائب

نشرة فكاهية نقدية قذيفة. تصدر صبيحة كل يوم خميس بقسنطينة، صاحب امتيازها ابن البياني محمد، ورئيس تحريرها السيد العابد الجلايلي.
صدر عددها الأول يوم 24 ماي / أيار 1934.

المغرب العربي

جريدة سياسية أدبية اجتماعية، لسان حال "الشبان المسلمين"، مديرتها وصاحب امتيازها السيد محمود بيلي، رئيس تحريرها السيد حمزة بوكوشة، تصدر يوم الجمعة.

برز عددها الأول يوم 21 ماي / أيار سنة 1937 بوهران.²

الميدان

جريدة اجتماعية سياسية، تبرز كل يوم أحد مديرتها ومحررها السيد حسن الوارزقي، صاحب امتيازها الحاج الطيب بن حملة، صدرت بقسنطينة يوم 03 مارس 1937.

1 - صدرت كسلة "البيان" في 19 جوان 1937 بحرقا 1937.
2 - كسلة "البيان" التي صدرت في 1937 بحرقا 1937.
3 - كسلة "البيان" التي صدرت في 1937 بحرقا 1937.

الوفاق

جريدة سياسية أسبوعية تصدر بوهران كل يوم ثلاثاء، مديرتها ورئيس تحريرها محمد السعيد الزاهري، صدر عددها الأول في 23 مارس / آذار سنة 1938.¹

الشعب

لسان "حزب الشعب الجزائري" بمحررها مفدي زكرياء ومحمد قناش، صدر منها عددان، اعتقل محررها الأول بعد صدور العدد الأول، ومحررها الثاني بعد صدور العدد الثاني.

ظهرت يوم 25 أوت سنة 1937.

الجزائر الجديدة

جريدة تصدرها بعاصمة الجزائر هيئة "الحزب الشيوعي"، صدر العدد الأول منها سنة 1943.²

النصر

مجلة حكومية، أصدرتها الإدارة الفرنسية بالجزائر للدعاية سنة 1945.

المغربي العربي .. أيضا

أسبوعية يديرها ومحررها محمد السعيد الزاهري، يسألها حزب حركة الانتصار للحريات الديمقراطية صدر عددها الأول يوم 13 جوان (جويلية) سنة 1947 بالجزائر.³

العقريّة

تحتم بالأدب، والعلوم والفنون، شهرية، يديرها ومحررها الأستاذ عبد الوهاب بن منصور، صدر العدد الأول في شهر ماي / أيار سنة 1947.

1 - احتلت صحيفة "الوفاق" في جويلية 1940.
2 - بعض المصادر تذكر أن صحيفة "الجزائر الجديدة" صدرت في جويلية سنة 1947 واحتلت في سبتمبر سنة 1935.
3 - انظر القاش 8 أعلاه.

جريدة وطنية تصدر مرتين في الشهر بعاصمة الجزائر، لسان "حزب الاثوار الديمقراطي للبيان الجزائري"، مديرها السيد فرحات عباس.

صدرت في شهر مارس / آذار سنة 1948.

صوت المسجد

مجلة شهرية دينية، لسان حال الطرقية، الإدارة والامتياز محمد العاصمي رئيس الجمعية الوحدانية الدينية بالجزائر.

صدر عندها الأول في شهر أكتوبر / تشرين الأول سنة 1958¹.

إفريقيا الشمالية

شهرية، علمية، أدبية وسياسية يديرها ويرأس تحريرها إسماعيل العربي.

صدر العدد الأول منها في شهر ماي / أيار سنة 1948².

الشعلة

جريدة أسبوعية لسان جمعية العلماء، امتيازها للصادق حماني وتحريرها لأحمد رضا حوحو وإدارتها لأحمد بوشمال صدر عندها الأول في 15 ديسمبر / كانون الأول سنة 1949³.

عصا موسى

جريدة نصف شهرية يديرها مبارك بن عبد القادر بحمرها نخبة من الشبان والإصحاحيين صدر العدد الأول منها في 20 جويلية / تموز سنة 1950 بالجزائر⁴.

1 - لا شك أن هناك خطأ في الترتيب، إذ أن "صوت الشعب" قد صدرت يوم 1948/10/08 وانضمت في جانفي 1951.

2 - انضمت "إفريقيا الشمالية" في ماي 1949.

3 - لسان حال "جمعية العلماء" هي "العصا" أما الشعلة فكانت جريدة إسلامية تابعة للجمعية. انضمت من المصور في 1951.

4 - بعض المراجع يذكرون أنها صدرت بعدد من 10 جويلية لجانفي في 1950 وكان عليها أثر على صحيفة "الشعلة".

أسبوعية يديرها أبو بكر حابز، محابطة صدر عندها الأول في 11 نوفمبر / تشرين الثاني سنة 1950.

النشاد

جريدة حكومية، تستدل بأحداث النشاد، صدرت في 13 أكتوبر / تشرين الأول سنة 1950 بالجزائر.

المنار

جريدة نصف شهرية، سياسية، ثقافية، يديرها ويحررها عمود بوزوزو، صدرت في 23 مارس 1951¹.

هنا الجزائر

لسان الإذاعة العربية لراديو الجزائر، شهرية ظهرت في شهر ماي / أيار سنة 1952.

الجمهورية الجزائرية

جريدة سياسية لسان حال حزب "أحباب البيان" صدرت بالجزائر في 1952.

صوت شمال إفريقيا

حكومية تصدرها الإدارة الفرنسية بالجزائر صدرت في شهر جانفي / كانون الثاني 1954.

مصور إفريقيا والشرق

نشرة مصورة، ملحق للجريدة "الجمهورية الجزائرية" أصدرها الأستاذ فرحات عباس 1954.

1 - صدرت "المنار" في مارس 1951 وتولفت من المصور في جانفي 1954.

وهي دينة، لسان حال "الشباب الموحدين"، مديرتها الأستاذ أبو القاسم ديفر، صدرت في 30 أوت / آب 1952.

صوت الجزائر

جريدة أسبوعية جامعة، نصف شهرية مديرتها مصطفى فروخي وهي لسان "حركة الانتصار للحريات الديمقراطية"

صدر عددها الأول يوم 20 نوفمبر / تشرين الثاني 1953¹.

صوت الشعب

أسبوعية سياسية، لسان حزب "الانتصار للحريات الديمقراطية" مديرتها مولاي مرياح رئيس تحريرها عبد الحميد مهري، صدر العدد الأول منها يوم 21 جويلية / تموز 1954².

المقاومة الجزائرية

لسان حال "جبهة التحرير الوطني الجزائري"، تصدر بتونس نصف شهرية ابتداء من نوفمبر (تشرين الثاني) سنة 1956³.

الشباب الجزائري

لسان حال جبهة التحرير الوطني الجزائري، شهرية، تصدر ابتداء من أفريل / نيسان 1959.

الجهاد

جريدة ثورية، "اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني الجزائري"، ظهرت للوجود خلفا عن "المقاومة الجزائرية" سنة 1957 تطبع بتونس وهي لا تزال قائمة برسالتها الثورية.

1 - توفيت "صوت الشعب" من الصدور في نوفمبر 1954.

2 - توفيت "صوت الشعب" من الصدور في نوفمبر 1954.

3 - هناك ثلاث طبعات من المقاومة الجزائرية: واحدة وطنية واحدة جزائرية، توفيت من الصدور بعد نوفمبر 1956/20 الذي

هذه أبها القارئ الكريم قائمة المراتب العربية بالجزائر التي صدرت خلال فترة الكفاح السياسي، واستمرت إلى يوم اندلاع الثورة الجزائرية ومن خلالها يتضح لك أن الجزائر لم تضع عروبتها قط رغم المحن والأهوال، سواء في أيام محنتها السوداء، أو في عهد انبعاثها، والنصر للحق والغلبة للضمير، والعزة للمغرب العربي الكبير.

أضواء على ولاوي ميزاب ماضيهِ وحاضرهِ

مراجعة وتعليق
جابر عبد الحميد باعمارة



لقد كان ميزاب منذ نشأته الأولى مسرحاً لدراسات عديدة، يمكن أن تكون أولها تلك التي قام بها بعض المستشرقين والمبشرين قصد لتهيئة الأرضية لاستقرار الاستعمار وتثبيت أقدامه في أرض الجزائر، وجاءت الدراسة الموسومة "أضواء على وادي ميزاب" التي أنجزها الأستاذ مفدي زكرياء بين سنتي 1960 و1961، لتضاف إلى هذا الزخم من الدراسات، لكن تتميزها عن سابقتها، من حيث الغاية التي جاءت من أجلها، وحتى يكون لها أول دراسة عن ميزاب وأهلها، يقوم بها أحد أبناء هذا الجزء من الوطن العزيز الجزائر¹، بهذا التفصيل الذي يشمل شتى مجالات حياة بني ميزاب ومن جاورهم من قبائل أخرى، من حيث النشأة والعادات والتقاليد، نظمهم السياسية والاقتصادية والثقافية.

فكان لمفدي زكرياء أن كتب هذه الأسطر ليبين حقيقة هؤلاء الميزابيين الذين عاشوا في معزل نسبي عن إخوانهم الجزائريين، فالكثير من إخوانهم، ممن جاورهم أو حتى من أبناء الوطن الكبير، لا يعرفون الكثير عن هؤلاء الذين برعوا في التجارة، وأقاموا لأنفسهم أطراً متميزة، خاصة في الجانب التعبدية.

وقد وجدنا هذه الدراسة التي تقع في 97 صفحة من حجم (4) مرقونة في أوراق على شكل حصص، مجموعها 19 حصة مرقمة عدا الحصة الأخيرة التي كانت مكتوبة باليد وليس بها ترقيم، وقد أذيعت من تونس خلال سنة 1961 وقد احتفظنا على العناوين التي وضعها مفدي بداية كل حصة وأضفنا إليها بعض

1 - وجاءت بعد الاستقلال دراسات عديدة حول ميزاب والميزابيين قام بها أبناء هذه المنطقة، ونذكر من بين هذه الدراسات: "وادي ميزاب في ظل الحضارة الإسلامية"، تأليف بكر بن سعيد أموش، المطبعة العربية - غرداية (1991)، "مراثي بلد كفاح" تأليف الشيخ إبراهيم بن محمد طلال، مطبع دار البعث - قسنطينة (1970)، "تور الميزابيين في تاريخ الجزائر، ملحقاً وهدية"، تأليف محو محمد عيسى التوري، في أربعة أجزاء، مطبع دار البعث - قسنطينة، "معجم أعلام الإيانية، من القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر"، تأليف: د. محمد بن موسى باها عتي، د. مصطفى بن صالح باهو، د. إبراهيم بن بكر بخاز، د. مصطفى بن محمد شريفي، نشر جمعية التراث - القرارة، مطبع دار الغرب الإسلامي - بيروت (1421هـ/2000م).

الناشر الفرعية والمواضع لتسهيل عملية القراءة والبحث في هذه الدراسة القيمة، مع العلم أن المؤلف قد وضع بعض المواضع لدراسته أشرنا عليها بعلامة (*)، كما حفظنا من النص الأصلي بعض العبارات الإذاعية مثل "أحيى المستمع أحيى السمعة"، والعبارات التي كان مفدي يفتح ويختم بها حصصه، كي تصبح مثلاً واحداً، وقد أشار رحمه الله إلى ذلك في ورقة مستقلة، بخط يده، وجدناها مع مجموع المحصص، مكتوب عليها:

"من المفيد جداً ترجمة جميع النصوص وإذا لم يتمكن من ذلك فمن الضروري تعريب النصوص التي عليها هكذا (#) وفي حالة ما إذا ترجمت جميع المحصص، فإن لي حصصاً أخرى، رقم 19، 20، 21، 22، 23، 24.

المرجو حذف كلمات (المستمع الكريم)، و(السلام عليكم ورحمة الله) لأنها اصطلاحات إذاعية".

وفي هذا السياق نذكر الإشارة إلى أننا لم نحصل على المحصص التي ذكرها في الفقرة أعلاه ولا ندرى هل الحصة المخطوطة ضمن ما ذكر أم لا، والراجح أن تكون ضمنها لأن المحصص المرفوعة مرقمة إلى غاية الحصة 18، والغير معروف هو ترتيب الحصة المخطوطة بالنسبة لما ذكر أي بين 19 و24، كما أننا لم نفهم من أي لغة وإلى أية لغة طلب الأستاذ مفدي ترجمة هذه المحصص، فهو يقول في تلك الورقة ترجمة ثم يقول تعريب!

هذا إلى جانب نص مخطوط لحصصنا عليه من مكتبة جمعية "أي إسحاق لخدمة التراث"، بغرداية، اعتمدنا عليه كثيراً في عملية الرقن لعدم وضوح المحصص المرفوعة، وقد جاءت هذه الفترة في غاية هذا المخطوط:

"انتهى ما وجدته من ورقات هبت لتقدم الطبع وطبع منها نموذج بنون".

1- المحصص الذي أعده الأستاذ مفدي، رقم 19، 20، 21، 22، 23، 24.

وفي صفحة أخرى:

"فيما يلي الدراسة التي شرع فيها الأستاذ الحاج الناصر¹ والشاعر الكير مفدي زكرياء وعزما على إكمالها وإصدارها كتاباً وهي دراسة عن مؤثر والمزابيين، وذلك إيماناً بالحصة² القاسية التي حوتها الميزابيون... من المقاطعة الاقتصادية لتجارهم في الشمال واستمرت هذه المقاطعة بعض أشهر وذلك في 1 جوان 1955.

ولكن من الأسف أن هذه الدراسة القيمة لم تظهر إلى الوجود إذ لم يقدر لها الانتهاء..

الناسخ هو الشيخ إبراهيم طلاي³ الأصل موجود عنده.

انتهى النص.

غير أن هذا المخطوط الذي ذكرناه ليس كاملاً فهو ينتهي إلى غاية الاحتلال العسكري لميزاب سنة 1882.

ومن الجدير بالذكر أن هذه المحصص كانت لدى الأستاذ عبد الحميد مهري، الذي ذكر في إحدى شهاداته حول المرحوم مفدي زكرياء، أنه حين بدأت السلطات الاستعمارية في مراوغاتها لفصل الصحراء عن الجزائر، جال في تلك

1 - الحاج الناصر محمد "الكلمة"، وهو حال المرحوم مفدي زكرياء، ولا يزال على قيد الحياة وهو يعيش حالياً بالبلدية لغوية.

2 - لقد تعرض النصار المزابيون إلى مقاطعة من طرف سكان العاصمة والبلدية وبعض المدن المجاورة لهذا كانت هذه المقاطعة مزاجاً سنة 1955 إلى أبريل 1956، انتهت بتدخل جهة التحرير الوطني لاصلاح هؤلاء النصار الذين كانوا من خارج العاصمة والمدن، كما شهدت لهم بدعهم للثورة التحريرية المظفرة مدناً ومعوناً، هذه كانت بعض حكايات المزابيون في الشمال بمرآة الثورة الماركة التي أسمع فيها الترحيلات والتبرير من خلافاً مدافع جهة التحرير الوطني، وكانت حينها للثوار الذين خرجوا من مناطق داخل المدن، فكانوا يستولون فيها إلى حين... هذه المقاطعة التي أشرنا إليها كانت من فوكة الإدارة الاستعمارية التي نهضت سياستها على مبدأ "مركزية" فكانت وراء بحث التمرات القليلة والضعيفة بين أبناء الوطن الواحد، وساعم في ذلك، بار هذه السنة حادثة من صيغة الاستعمار من الصناديق التي حكوا هذه المقاطعة وأقيم أمرها وفي حقلهم جعل للمحاربات القاسية المظفر ربحاً، وقد تم لتول دور مفدي زكرياء في إيقاظ بار هذه الأزمة المظفرة سليمان الشيخ والدكتور محمد جيس وموسى في حاضرة

3 - الشيخ الحاج إبراهيم طلاي من مثاليين مؤثر المعاصرين، عضو هيئة تحريك في ورق، له آثار عديدة، أهمها ليدق القصور الشيخ محمد بن يوسف لطيفي "كلمة الأمانة" للقرآن الكريم والموسم "سيرة القصور" إلى جانب كتب أخرى ذكر منها كتاب "مراثي طه كفايح" الذي اعتمدنا على جانب كتب أخرى للتعليل على هذه الدراسة.

رب في أن يستسلم سكان الصحراء للإغراءات التي وعدتهم بها حكومة الاحتلال، وقد كان حيثل وزيراً للشؤون الاجتماعية بالحكومة المؤقتة بنونس، وذكر لمفدي زكرياء ذلك الرب الذي يحول بخاطره، إلا أن مفدي زكرياء سارع وقدم له هذه الحصص قائلاً: نخذ وطالع كي تعرف من هم سكان الصحراء الجزائرية، وسلم الأستاذ عبد الحميد مهري هذه الحصص للدكتور سليمان الشيخ محل الأديب الكبير مفدي زكرياء، مستيقناً بعد تصفحها أن الصحراء ستبقى ولا تزال جزائرية.

جابر عبد الحميد باعمارة

الأمين العام لمؤسسة مفدي زكرياء

مقدمة

ميزاب، أو وادي ميزاب، واحة بالجنوب الجزائري، تتألف من سبعة قرى أو قصور¹، وهو جزء لا يتجزأ من مجموع الوطن الجزائري إلا أن ظروفًا خاصة، تاريخية، أحاطته بإطارات غامضة، وتقاليد مركزية، لا يعرفها الكثير من أبناء المغرب العربي، وقد يجهلها قسم من الجزائريين، ونحن في هذه الدراسة نحاول على إيجاز أن نقدم للقارئ الكريم عرضاً نأمل أن يكون شاملاً وقريناً من الدقة لأهم معالم الحياة بوادي ميزاب ("معالم حياة بني ميزاب") منذ نشأته الأولى إلى الآن، من حيث الطابع المذهبي، ومن حيث النظام الاجتماعي والاقتصادي، والسياسي، وهذه الخصائص والمميزات تطوّرت مع الأيام حتى أصبحت ظاهرة يمكن أن تدرس مستقلة بذاتها إلى حد ما. وفي دراستنا تحديد لهذه الحالات، وتعيين لما نشأت عنه، أو نشأت عنها من ظروف وملابسات.

ونشأة ميزاب وتطوّره وطبيعته حالات جعلت من هذا الجانب القصي من الوطن الجزائري ما يشبه أن يكون قطراً صغيراً له خصائص ومميزات تطوّرت مع الأيام وتحدّدت حتى صنعت له ظروفًا تاريخية وواقعية خاصة. وفي كلّ باب من الأبواب المقبلة تحديد هذه الحالات وتعيين لما نشأت عنه ونشأ عنها من ظروف وخصائص لا نحرص فيه على الطابع العلمي بقدر ما نحرص فيه على الإيجاز أو التبسيط، وإن كنّا مقبدين بالحقائق التاريخية والواقعية لا نسيح لأنفسنا أن نعدوها أو ننقص منها تبعاً لما يقتضيه الإيجاز والتبسيط. وهذه الظروف الخاصة التي أشرنا إليها آنفاً أتاحَت للسياسة الاستعمارية منذ ابتليت الجزائر بالاحتلال الفرنسي مرتعاً حصيناً ومركزاً يبدو - إلى الأمل القريب - وطيداً، حصيناً أميناً.

1 - هذه هي الحصص الأولى من سلسلة أسبوع وقد رأينا أن تكون مقدمة لهذا الكتاب كما أراد الكاتب، عليها يشرح مفدي زكرياء هذه الدراسة والهدف من وراء إنجازها، وهي واقعة في ثلاثة صفحات.
2 - القصر يطلق على القرى أو ممتلكات وادي ميزاب كقولها تشبه القصر وهي محاطة بسور به عتبات وبيوتات تفتح في الشوارع وتطل على القصر. كما يضم هذا السور أبراج مراقبة في مواقع إستراتيجية منه.

فحتى أن السياسة الاستعمارية - وخاصة عند الثلاثين - إنما تنهض على قاعدة "أرض تبتل" وهذا التمييز الذاتي الذي أئتم به ميزاب، لا سيما ما يخص الدين، أو بالأحرى الخلافات الملحية بين عناصر تكوينه، وصغر هذا الجانب من الوطن الجزائري وقبحه وقلة سكانه وحاجتهم إلى المحنة منه شطر الجواب الخصب الأخرى ابتغاء تعميره، كل ذلك أتاح للسياسة الاستعمارية البيض والتفريع والتمويه فكان أن علان الميزابيون من جهة، وسائر أبناء الوطن الجزائري من جهة أخرى ظروفًا شتى من عن المكائد الاستعمارية التي تهدف أبدًا إلى إخماد الثورة والحلوة والتشاكس والصراع بين أبناء الوطن الواحد.

ومع أن المسافة منذ ألغيت، أو كادت تُلغى، حتى بين لأوطان البعيدة فضلًا عن أجزاء الوطن الواحد، وأن الخلافات الدينية قد انمحت أو كادت تنمحى، حتى بين التشاكسين من أتباع الأديان المختلفة فضلًا عن أبناء الوطن الواحد، فإن الأساطير ما فتئت تُحكك وتردد قبل الثورة الكبرى، ونجد لها في بعض النفوس المريضة مجالًا حول ميزاب وسكان ميزاب المسلمين، فكان من أثر ذلك أن استمرّ الرعب، بل وشيء من عدم التعارف والانسجام بين الميزابين وبين إخوانهم الجزائريين، وتلك حال خليقة بأن تحسّ أفقًا صالحًا لإشاعة الفتنة بين الطرفين كلما أوتأت السياسة الاستعمارية أن من منفعتها اللعب بورقة الأقليات.

ولقد كان من الممكن أن نستمرّ في إكمال القضاء على هذه الحال إلى تطوّر الأمة الثقافي وتطوّر الوعي الوطني والإنساني، وتطوّر الاختراعات التي ظلت تعمل على طمس الأبعاد والمسافات، حتى نتوشك أن نجعل من العالم علبة صغيرة يزحم في عينيك أعضائها أدناها.

لولا أن يشر الله للأمة الجزائرية لماحدة أسباب الثوب والسباق مع الزمن وتطوّره فإن الأحداث لم تكن عن بروز الثورة الجزائرية المستقلة من جديد عمادًا لنظم السياسة الاستعمارية صوابها فمأسوا يتخطون ويخطون في التماس أسباب

الإبقاء على الوضع الشاذ المسطر على الجزائر منذ ما يربو قرن وربع، وكان من عليهم هذا وحلّطهم أن حاولوا صرف الأمة المجاهدة عنهم إلى نفسها بإشاعة الفتنة مرة أخرى بين عناصرها. فكان أن برزت وساوس حول ميزاب والميزابين من جديد، حول وطنيتهم حينًا وحول عروبهم ودينهم حينًا آخر، ورتما حول بعض نظمهم الاجتماعية التي يعتزّون بها كأحسن ما احتفظوا به منذ أقدم العصور، وذلك بعد أن فشلوا في إثارة الفتنة البربرية بأوراس والقبائل لأنها مهد الثورة المقدسة، وحلّى أن واجب كلّ عربي مسلم في هذه البلاد أن يعمل جهده على إحباط ما يستطيع إحباطه من التدابير الاستعمارية إمدادًا للقوة العاملة على استعادة حريتنا وكرامتنا وإسهامًا في إعادة بناء دولتنا من جديد.

لهذا الاعتبار - و له وحده - كتبنا هذه الصفحات على أمل أن يكون - بما ابقت عنه من قصد نبيل وفيما انطوت عليه من قصد أصيل - قضاء على هذه الوسيلة البالية التي تلجأ إليها السياسة الاستعمارية كلما لزّتها وعي الأمة إلى مهمة أضياع عليها رشدتها وأضلّتها عن هداها، وعاملاً قويًا لا على توثيق عرى التعارف والانسجام فحسب، بل ووشائج الحب والامتزاج بين أبناء الوطن الواحد والدين الواحد، والقومية الواحدة، فمهما اختلفت اللهجات المحلية أو بعض الآراء، دينية كانت أم مدنية بجماعات من الأمة الجزائرية فلن يبلغ منها هذا الاختلاف إلى تمايز أو تفرق بعد أن تضافرت عوامل الطبيعة واللغة والدين على صهرها في بوتقة واحدة وجعلها أمة واحدة، ثم جاء الاستعمار فزادها تخطوبه وأهواله وحدة والتحامًا، ثم توجّ بالجهاد وبارك بالدماء الركبة هذه الوحدة وهذا الالتحام فأصبحت قدسًا خالدًا.

وحلّى أن الثورة التي نحت اليوم أسس الوضع الاستعماري الشاذ من الوطن الجزائري الماحد بالحديد والتار، ليست إلّا تطوّرًا طبيعيًا للكفاح المتواصل في أشكاله المختلفة والذي دأبت عليه الأمة الجزائرية فاطمة ودون تميز منذ دُست أقدم المستعمرين أرض الجزائر.

ولما كانت التواريخ لا تجد أي تمايز بين أنحاء الوطن المختلفة على بناءها فيما ظلت الأمة الجزائرية تبذل من جهاد تحرري طيلة قرن وربع، فإذا اعتكفت الظاهرة الواحدة في حاشين أو أكثر من جوانب هذا الوطن فإن الجانب الذي يختلف اليوم في مرحلة يسبق في المرحلة الأخرى.

وفي الصفحات المقبلة سيحدد القارئ حقائق تدفع تلك الأقاويل التي كان يرفع بها المستعمرون عن الميزانيين فيزعمون أنهم قعدوا عن الأمة في جهادها وقصروا فيما عليهم للوطن، وكانوا لخصومه منفذاً إلى أعماقه أو مركزاً بين جوانب أو سداً حين يلزم جهاد الوطنيين إلى المازق. ويعد أيضاً شواهد عما بذله جميع سكان الجزائر من غير ما فرق ولا ميز في سبيل إنشاء وإنماء النهضة الوطنية الجزائرية في مختلف نواحيها الثقافية والاجتماعية والسياسية بل والذامية أيضاً، ونحن نعلم إذ نعرض هذه الحقائق أن أناساً سيجاولون الغرض من قيمتها حمية وتعصياً، ونحن إذ نعرضها لا نعرضها انتفاء وجه هؤلاء وأولئك، ولكن إفادة للذين يريدون أن يفلحوا إلى الحق وأن يرفعوا من أبنائهم وبصائرهم أسباب الرّيب وأن يصافحوا كل يد تبتدئ إليهم للتعاون على تحقيق أهداف الوطن المثلى من جديد وعري الوحدة وتعصيد قوى الجهاد والتحرير¹.

مفدي زكرياء

1 - على ما نرى في تلك الأوقات التي أعياها مفدي زكرياء في هذه المقالة أيام التجميع في مخرج
منطقة القبلة في وادي ميزاب وقد أتى إليه من قبله في ذلك الحين كذا إلى عهد قريب معجزة تحت ركام من الأقاويل
والأوهام والتي خشيتموها على حق هذا الشعب الباسم الذي هو الأمة التي ما استعزت بالجهاد في فرنسا للقبلة
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

موقع وجغرافية ميزاب¹

فيما بين وادي ميزاب بالجنوب الغربي ووادي زفرير² بالشمال الشرقي تقع منطقة تقدر مساحتها بحوالي أربع مائة ألف هكتار، تتألف من سلسلة من هضبات قليلة الارتفاع تجعل منها شبه منطقة مستقلة عسرة الاتصال بما يحاورها من مناطق الصحراء الجزائرية الأخرى، كما تجعل صفحتها المتكونة أحجار الحصن والبسطة الألف قليلة النبات وحشيشه، وكان من الممكن أن لا تعرف الزّعرور أو الحياة المروسة لولا أن قدر لها أن تزدهر، رغم كل العوامل الطبيعية القاسية، على يد الإنسان الذي لا يستعصي عليه أمر حين يريد.

هذه المنطقة اصطلاح منذ القدم تسميتها "ميزاب" تقع من عاصمة الجزائر على بعد 600 كلم إلى الجنوب الغربي، في أعماق القسم الرّملي "العرق" من الصحراء الجزائرية، وواضح أن شيفاً من طبيعتها ما كان ليشتج على تعميرها، كلاً، ولا على التوقف عندها إلا للدراسة الجيولوجية، فهي إلى جانب قسوة أرضها التي أشرنا إليها آنفاً قاسية الطقس، جافة ترتفع فيها درجة الحرارة صيفاً حتى قد تجاوز الخمسين درجة مئوية وتزول شتاءً إلى أكثر من درجة تحت الصفر، وتتراوح كمية الأمطار التي تزل فيها خلال السنة ما بين 31 و101 ملم، وليست بها أوعية طبيعية لحفظ ما يزل فيها من المياه، فصفحتها الرّملية لا تلبث أن تمتص ما يجمع في أوديةها من هضباتها ذات الارتفاع القليل.

لكن إرادة الإنسان التي أنشأتها ظروف مختلفة في عواملها وأوقاتها، يد أنها كانت دائماً قاسية قسوة تبلغ أحياناً مستوى الشدة والمرارة البائسة، جعلت من هذه المنطقة القاحلة الصمماء الموحشة، مثابة لطائفة من سكان الجزائر والمهاجرين إليها من أصقاع أخرى أحدثت مع مرور الزمن تتطور وتتحضر وتزدهر حتى استحالت واحات بكاد واقعها ينكر نسبها الأول لولا ما يزال يحيط بها من كل

1 - بداية الحقبة قبلية الواقعة في حمة هضبات
2 - زفرير وادي تسمية للقرية

حلب من رمال الصحراء الحافة وعضائها الصماء الدائمة هنالك أينما كانت كالتأثير
في معالم نسبا الأصل. بل وحتى فرضت نفسها فرضاً قوياً حافظاً على تراث
الحضارة الحضارية ثم الإنسانية، فلا يستطيع الدارس لتاريخ الحضارة في العراق
دراسة شمس بالاستقصاء والشمول، عدم العناية بآثار الإرادة البشرية الفاعلة¹ من
تعدد إلى أن تصنع من قسوة الطبيعة وحقوقها لوتاً مختاراً من ألوان الحضارة الزاهرة
الباهرة التي جمعت بين حلال الطبيعة الساذجة وجمال اليد الإنسانية الحاضرة الصنع.

نشأة مدن مزاب :

وكذلك نشأت المدن المزابية² ما بين سنة 1012 و1632 للميلاد على
أنقاض قرى سبقها إلى الوجود بأزمان لا نعرف على وجه الدقة مداها، ولكنها
على ما يبدو ليست نازعة في العراقة، كما نشأت حول هذه المدن حدائق ومزارع
ما قصت إلى الآن تنمو أغلبها تعود على هذه المدن لا بالهجرة والرواء فحسب بل
بحلب من الغلاء الممكن أن يكفل الضرورات الحيوية للحياة الساذجة، كما يمد
بعض الكماليات من أتبع لهم من أسباب الترف ما يتفوقون على أحتهم بسخاء
تعملها تضارع من نواحي كثرة العمل ما عرفت الحوافر من حدائق غلب وجنان
قارعة، ويجمع الفضل في كثير من ذلك إلى الأمار الأرثوذكسية التي حفرت أحيواً
وبنات لون العيش بمحارب رأساً على عقب.

نسب المزابيين :

ولما تفرق على وجه الدقة شيئاً عن أصل الذين هجروا أو بالأحرى حاولوا
أن يغتروا هذه المنطقة قبل أوائل القرن الخامس عشر للميلاد، يوم لم تكن ينسب إلا
قرى ومساكن البتراء اليوم جميعاً، إلا أنما منطقة من رسوم وأطلال.

1- انظر في جوف القرن ما ظهر من حدائق البتراء
2- انظر في جوف القرن ما ظهر من حدائق البتراء
3- انظر في جوف القرن ما ظهر من حدائق البتراء
4- انظر في جوف القرن ما ظهر من حدائق البتراء
5- انظر في جوف القرن ما ظهر من حدائق البتراء
6- انظر في جوف القرن ما ظهر من حدائق البتراء
7- انظر في جوف القرن ما ظهر من حدائق البتراء

وقصارى علمنا أن الحياة كانت قد انطاعت هناك لأناس انطاعتهم
بمغنون للبحث العقلي، حتى نزعوا في الكلام والجدل معزج الاعتزال فكان من
سكانها دفعة جادلوا على ملهب العزلة، فظهر في كتب علم الكلام للإمامية على
أثر انشقاقهم وآرائهم، من أبرز هؤلاء "عيسى بن عبد الجبار" الذي كان من
سكان منطقة العطف الحالية³.

لما السكان الحاليون فهم من سلالة الذين عمروا المدن السبعة للوجود الآن،
والتي بنيت منها ما يسمى "مزاب"، والذين ترحلوا إليها عقب لقيار دولة بن
رستم⁴ الإمامية بتاهرت⁵، نتيجة للغزو الفاطمي الكاسح والحلافت الناجية التي
نمت كلفها، وبعد أن حاولوا الاستقرار بمنطقة "وارجلان" أو بالأحرى في مدينة
"إستراخان" التي بلغت من الحضارة مبلغاً عظيماً حتى عرفت منازل الرخام وتعدت
الطيات، والحدائق شكل قصور، ثم انقلبت إلى حراب وأنقاض بفعل الحروب
الناشئة عن التعصب الإقليمي البدائي ضد التارحين⁶ الذي مكثهم بها ما جلتها
معهم من ثروة وما درجوا عليه من الحياة الحضارية من الظهور التبرع والتفوق
على السكان الأصليين.

وقد يكون للسكان الأوائل⁷ بقايا ولكن هذه البقايا - إن كانت لم تستطع أن
تحتفظ لنفسها بكيان، كلاً ولا بتميزات تفرزها عن التارحين المحدد - فقد استطاع
هؤلاء التارحين أن يعمروا بأفكارهم وصفاتهم وتقاليدهم كل ما عسى أن يكون
قد بقي من أثر للسكان الأوائل، ونحن نرى قراهم ومساكنهم لم يبق منها كما
أشياء - إلا رسوم وأطلال -، وأن المدن الحالية إنما تعاقب إنشائها على أيدي

1- انظر في جوف القرن ما ظهر من حدائق البتراء

2- انظر في جوف القرن ما ظهر من حدائق البتراء

3- انظر في جوف القرن ما ظهر من حدائق البتراء

4- انظر في جوف القرن ما ظهر من حدائق البتراء

5- انظر في جوف القرن ما ظهر من حدائق البتراء

6- انظر في جوف القرن ما ظهر من حدائق البتراء

7- انظر في جوف القرن ما ظهر من حدائق البتراء

الزواج هؤلاء التارحين^١ ومع ذلك فمن الصعب أن ندعي بأن السكان الأوائل قد
 انتشروا تلك وإن كنا نرجح استناداً إلى حراب دساكرهم وقرانهم وروايل ملهمهم
 وأزواجهم أن حرب إبادة وتشيت قد حدثت بينهم وبين هؤلاء التارحين الذين
 عاشوها روح استمارة ومما كان باعثها السأم واليأس من المحنة المستمرة، وتغلغل
 الأمل بما في تلك المنطقة من حصانة طبيعية، وبما في السكان الأصليين التي يمكن أن
 تكون قد نجت من هذا الصراع المرير، وفي الوقت نفسه أبت أن نرحل موطنها، قد
 رخصت نفسها أن تنصهر في بوتقة التارحين الغالبين، ولعل ما يرتجح هذا ما يقول
 بعض المؤرخين من أن كلمة "مزاب" التي أطلقت علماً على المنطقة ما هي إلا
 تحريف لكلمة "مصاب" بالصاد المهملة أو "مضاب" بالصاد المنقوطة، وهي اسم
 قبيلة كانت لها السيطرة على تلك المنطقة قبل أن يغلب عليها التارحين،
 فقد لا تخلو من الغربة إذا صح هذا القول، أن يقبل الغالبون، وهم إنما تحمّلوا ما
 تحمّلوا من وهم في سبل ملهم ومثل الإبقاء على اسم كبير من ناصوهم العداء
 كعلم على منطقة غلبوا عليها إلا أن تكون الغلبة لم تتم نتيجة الفهر ميد بل نتيجة
 صلح تحول شيئاً فشيئاً إلى اندماج وتعايش.

ومهما يكن من شيء فإن هؤلاء التارحين الغالبين أنفسهم لم يكونوا من
 عنصر واحد، ولم تكن لهم جامعة تجمعهم إلا جامعة للمذهب الإباضي التي كانت
 بعد زوال الدولة الرستمية سداً في ما عاينوه من مطاردة واضطهاد، ومن المنعذر
 التحقق منه هو أنهم مزاج أمشاج من أحلاس شتى كان يظلهم العلم الرستمي،
 ودراسة سطحية للغة المزابيين توضح لنا كيف أنهم لم يخلصوا بالسهم للهجة
 معقدة من اللهجات البربرية كلاً ولا للهجة أمشاج من اللهجات البربرية أو

١ - التارحين: جماعة من العرب (٢)
 ٢ - اللغة الإباضي
 ٣ - هو ملهم

معظمها، فالبربرية تكون من لغتهم جانباً ظاهراً وإن كانت البربرية أو المزابية^١ قد
 طرقت صيغتها بحيث تتحانس مع الألفاظ الأخرى التي تكون الجانب الآخر من
 هذه اللغة، والأمر الوحيد الذي يمكن الاطمئنان إليه هو الجانب الغالب من أولئك
 التارحين الأول أو على الجانب الذي كانت له السيادة والكلمة فيهم هو من
 جانب البطون البربرية، وتدل على ذلك أسماء الشوارع وبعض أعلام الرجال
 والنساء في المدن التي سبقت إنشاء مزاب، فهناك من أسماء الشوارع منها أسماء لا
 تزال إلى الآن أعلاماً على مدن وقرى في منطقة "القبائل الكبرى" بالجزائر،
 و"جربة" بتونس، والمدن البربرية بالمغرب الأقصى، وبعضها عن ذلك ما نرى غلبة
 الكلمات ذات الأصل البربرية على اللغة المزابية دليل على أن المحنة الغالبة من
 التارحين إما أن يكونوا بربراً صريحاً أو أن يكونوا متروكين أعني عرباً وقرناً
 عاجزوا عند أول الفتح إلى الجزائر فاضطرتهم مقتضيات التعامل إلى أن تغلب
 البربرية على أنفسهم، وهذا ما نراه أدق إلى المعقول لاسيما حين نرى السائين
 للمزابيين يصرون على وصل العشائر المزابية لا بالنسب العربي فحسب بل بالنسب
 السوي، ويذهبون أن هذا لا يكون قائماً على أسس قابلة حتى يجرّد الالتفات به أنه
 في نفس الوقت يدلنا على أن العصر العربي لم يكن موجوداً بين التارحين الأوائل
 فحسب بل كان ظاهراً أيضاً.

ومن الواضح أننا لا نريد هذا أن ننكر ولا أن نستبعد أن من المزابيين من
 تفرع عن النوبة الهاشمية أو القرشية، وبالرغم من أننا لا نعرف في الإباضية الأوائل
 من كانوا من سلالة بني هاشم، وبالرغم من أن مظاهر الهاشميين وجامعة في العصر
 الأول للمذهب^٢ وكثيره الأولى إنكار ما يروونه حقاً لهم^٣ من وراثة الملك أو على
 الأقل من امتياز السلالة امتياز رقبة واضطهاد، أمر لا يخلو من غربة وشلود، فإننا

لا يرى طرفة في احتمال أن يكون من السلالة الهاشمية من مظاهر مدعاه يقوم على
أساس عدم الاعتراف بالامتياز الهاشمي وذلك إما بدافع اليأس من أن يعود للفرع
النوي من هذه السلالة الحق الذي تدعيه، وإما بعامل حرية الفكر وسمو النفس من
تأثر بالمرغائب أو التوارع الشخصية وخلوصها للعمل على ما تراه حقاً ابتغاء
لوجه الله، ولذلك فإننا نقف موقف المتنظر للأدلة التي يطعنون إليها البحث العلمي
المفرد إزاء ما يؤكده بعض العلماء الميزابيين من التحذار بعض عشائر ميزاب من هذا
الفرع أو ذلك من فروع بني هاشم أو قرشي، وما يؤيده بعض حفظه الأساس
الميزابيين من التحذار بعض تلك العشائر من فروع فارسية وإن كان تأكيد هؤلاء قد
يعد مستتباً بعضه في أن الإياضية كان منهم في العصر الأول جانب كبير من
الفرس، وكان لهم في فارس مجال وكانت لهم محاولات وآمال، بل كان مؤسس
دولتهم في الجزائر الإمام عبد الرحمن بن رستم¹ رحمه الله وطائفة من أعضاده من
الفرس، وكان الإمام نفسه من أبناء العائلة التي كانت مالكة عند الفتح الإسلامي
لپارس، والذي يعيننا من هذا كله هو إتيان أن الميزابيين لا يمكن أن يعتبروا بمرءة
عرباً لغشائهم لأنهم لم يخلصوا للأرومة العربية الضراخ، فهم إذن كما أسلفنا أننا
مزاج أمشاج من أجناس مختلفة جمعت بينهم مبادئ ومثل أولاً، ثم وجدت ألسنتهم
ضرورة التعايش.

على أن هناك ظاهرة قد تروى نسبتهم إلى جانب العروبة وتلك هي
الاستعداد الفطري الذي يمتازون به للتكلم باللغة العربية، فما يكاد الواحد منهم
يقول بالعربية العربية حتى يخلص هذه اللغة التي حذوا المرء أن يتساءل، ألا يمكن أن
في أرومتهم؟ وهذه الظاهرة الفطرية حليقة بأن العمل الميزابي لوثي سناً بالعروبة

1 - محمد بن عبد الله

حتى من بعض القبائل التي تعيش في أطراف الجزيرة وحواليها والتي انحدرت من
سلالات غير عربية، ثم اندمجت في الأمة العربية حتى أضاعت لغاتها الأولى ولم يبق
فيها من سيماء المحنة إلا شذوذ يلاحظه السامع الدقيق في محالها.

وإما كان الأصل العنصر الأول للميزابيين فإنهم ظلوا أشدّ الصلابة والوثوق
وشائج من غيرهم من البربر الخلفاء والمشرزين حتى من الوجهة النفسية المزدوجة،
بالعروبة حسناً ولغة، وذلك لأنهم أولاً كافلية من حيث المذهب، وثانياً كفرع من
عميلة انتشرت فروعها هنا وهناك في أطراف الدولة الإسلامية، ومنها أطراف
الجزيرة العربية كعمان¹ وزنجبار، وحبل نفوسة بقرطاجين العرب²، وجزيرة بنو سينا،
وبعض مدن القوقاز، ما فتئت على اتصال وثيق ببعضها بعضاً لما يقتضيه واجبها
للدعم من التعاون والتناسق لا لنشر مذهبها فحسب بل للعمل على إعادة تكوين
دوقا المتدثرة، وعلى إنشاء دول جديدة لها في التواحي الأخرى قد يتاح لها فيما
بعد أن تتحد على عمل جماعي كاسح للاستيلاء على مقاليد الخلافة الإسلامية ثم
الانضمام في بعضها كولايات.

التعايش بين سكان ميزاب:

وبالرغم من المسافات الشاسعة التي كانت تفصل ميزاب عن عمالة، فإن
العلاقة بين الإياضية هنا وهناك ظلت مستمرة بتعهدها تبادل الرسائل حيناً وتبادل
الزوار أحياناً، وإلى جانب ذلك كله كانت الحروب المستمرة والمتعاقبة على الجزائر
تدفع بالبدو، عرباً كانوا أو بربراً، إلى التزوح إلى الصحراء ابتغاءاً للراحة من القتلة
وطلباً للسكنى والسلام، فكانت نشأة المدن السبع الميزابية مما يغري هؤلاء البدو،
وحملهم من العرب الأفحاج، بالارتياح إلى أن يتحلوا لهم مضارب حول تلك
المدن التي لا تحصى لهم أسباب الرعي حين يطبق عليهم حفاف الصحراء فحسب.

1 - منطقة شمال بالخير العربي
2 - ب. ب. ب.

استقرار المذهب الإباضي بالمغرب

وتاريخ الزير حافل منذ عرفوا الغزو الأجنبي بمغاليته بادئ الأمر فإن غلبوا بالاستكامة الطاهرة للغالب والاستعداد في الحفاة للانتفاض.

وقد اعتدى الزير إلى وسيلة اختصوا بها، فيما تعلم، للانتفاض على الغزاة الذين يتخللون الدين ذريعة لغزوهم، ذلك بأنهم كانوا سرعان ما يدخلون في إيمانها، ولكنهم حين يدخلون في دين ما لا يطمقون إلى ما ينقله إليهم حكمة الأوتون، بل يدرسونه ويحاولون أن يلامعوا بينه وبين القوة من التطرف والنشيت بالحريّة في مختلف مجالاتها ومظاهرها، وسرعان ما يصبح لهم رأى في الدين الجديد يشمل بعض موقوسه وعقائده، فكان لهم طبائع في اليهودية يوم قودوا ولا يزال اليهود ذوي الأصول البربرية أو الذين طال بقاؤهم ببلاد البربر كقفوسة وحرية وميزاب ومواطن البربر بالمغرب الأقصى يمتازون في سلوكهم الديني عن كافة للمذهب اليهودية المعروفة، ولما حمل الرومان التصراية إلى المغرب البربري واعتنقها البربر استحدثوا فيها رأيا ونحلة ما لبث أن أصبح مذهباً قاعماً بذاته هو مذهب الكاثوليك الذي حدد معالمه ووضع فلسفته القديس البربري "سانت أوغستين" (St. Augustin)، حتى إذا جاء العرب بالإسلام وغلبوا البربر في أوطانهم لحا شكل أدهاء بعضهم الشيعة كما في سنة 127 هـ إذ ظهر في قبيلة "برغواطة" البربري صالح بن طريف "البرغواطي" الذي ادعى أنه جاء للبربر بإسلام بعض القبائل وأن يستمر إلى عهد المؤمنين.

بعد أن هذه المحاولة لم تجد قبولا جماعياً يكفل لها تحقيق هدف الزير الرئيسي من التحوء إلى استحداث مذهب جديد في الدين الذي يلقب عليهم أهل، فلما جاء الخوارج إلى مواطنهم وجدوا في دعوتهم ضعفاً لتحقيق ما يستهدفونه وإنما بعد ما يستهدفونه فإذا قتر هذه الدعوة أن تنشر وتنتشر فقد لا يحفلون بإعادة انقلاهم فحسب بل تنجح لهم أسباب السيطرة على مقاليد الدولة التي أنشأها لغالبون باسم الدين، ليس مذهب الخوارج على اختلاف نحلته قاعماً على إنكار التبرق والتبصر بين الأمم والأجناس البشرية ونوطيد دعائم المساواة بين كافة المسلمين، وإثابة الفرصة لكل مسلم لأن يكون على كرسي الخلافة؟ فالكفاية عند الخوارج هي المؤهل الوحيد لهذا المنصب الخطير.

وكذلك وجد الصقرية والإباضية لمذهبهم في مواطن البربر مرتعاً خصباً، فما أسرع ما انتحاب لهم البربر والتفوا من حولهم مؤتمنين ومؤازرين وما أسرع ما حاولوا على يد قبيلة "بنو يفرن" البربرية إنشاء أول دولة بربرية إسلامية في "سحلماة" بالجانب الشرقي من المغرب الأقصى، لكن قضى إندريس الأول على هذه المحاولة قبل أن تدعم ركائزها حين أنشأ بغلس دولة المغرب الأقصى، فإن الدعوة الخارجية قد أصبحت على كل حال المورد الديني للبربر في الانتفاض والتجديد المحاولة مرة أخرى في مكان آخر. فكانت لهم محاولات في القروان وطرابلس، إن لم تنجح فقد زادت في نشر الدعوة الخارجية وجمع البربر حولها وهيأت جميع أسباب الوجود للدولة البربرية الإسلامية المأمولة التي قتر أن يكون إنشاؤها على يد الرستميين!

1 - إن هذا نصي المصنف طائفة التي يحسبها مدعي بطلان. "أول مرادنا لفظة استعمر مع الجمع الذي لا يلائم في سياقه إلا في حالة على القيس لأن دولة مستقلة بالخارج البربرية والأسباب التي منعت على أن تعبر دولة واحدة، وإنما كان حرفاً لا معنى، والجمع ملوكهم ورجلهم".

وعند الرحمن بن رستم عميد الأسرة الرسمية المالكية ومؤسس أول دولة
بربرية مستقلة بعد الفتح الإسلامي بتعظيم من أسرة الأكاسرة الفرسية، الذين قصر
السلطان بعد الفتح على ملكهم، وأبست عندما معلومات عن الطريق الذي اتبع
منه عبد الرحمن هذا بالذهب الإبااضي، ولا كيف أثر حياة الشطط والفتن
والاستطفا في مغارة أي عبيدة مول لهم التي كانت كما أسلفنا ألفاً مبردا
الإباضية لإعداد الرواد القذاليين، أو ما يسميهم الإباضية في مصطلحهم "حياة
العلم"، وكل ما نقله التاريخ إليها عن عميد الأسرة الرسمية إنما ينشأ من يوم
ظهور هذه المدرسة القذالية، وتاريخها فيها عجب من العجب، فقد كان عمل عبادة
خاصة من أسلافه يحفظه يحرص على إخفائه أو على الأقل عدم إتاحة الفرصة له
والملاحة بالاتصال بعضهم بعضاً، وبصرف النظر عما حاول بعض المؤرخين تعليل
هذه العناية به فإننا حين نستحيها على ضوء أرومة هذا الطالب الصفي والأعمال
التي أحرها في حياته العلمية لثلاثة نوحيد دعائم الذهب الإبااضي والتعظيم
له وتوسيع مجاله نستطيع أن نضمن أن أن أسلافه الأئمة الحضيف كان شديد
الحرص على التكوين صائب الاحبار.

وعندما وفد عبد الرحمن إلى المغرب مع أربعة من أصحابه اختاره أو اختار له
عمل من شأنه أن يفي به أحسن الفرض لحرارة المجتمع الجديد الذي وفد عليه
وتوثيق الصلة بين ذلك، هو القضاء الذي وله عن زميله وصاحبه أي الخطأ عبد
الأعلى بن الشيخ المعاري السبي حين ترأس أمر محاولة استقلالية للبربر.

أنت الصبيات الأوتية الضرورية لتكون دولتهم الإسلامية على يد عميد
البربريين، وهي المحاولة التي كانت القويوان وطرابلس العرب مسرحاً لها، ويقول
المؤرخون أن أبا عبيدة هو الذي أشار على الرواد القذاليين الخمسة بأن يوتوا عبد

أبا عبيدة هو الذي أشار على الرواد القذاليين الخمسة بأن يوتوا عبد

إبراهيم القضاء بن مكن الله لهم في موطن البربر، وواضح أن أبا عبيدة الذي سلك
الطريق كان يدرك أن محاولتهم الأولى لن تكون، وقرعة القرص للشجاع، وأن
إبراهيم الذي سيصطنع بعينه إنشاء الدولة الإباضية المنتظرة يجب أن لا ينجح له فرصة
التراسة الشيعية للميدان الذي سيعمل فيه قبل أن تلحق عليه مسؤوليات إنشاء
والقيادة والتوطيد، وطبعاً أن أبا عبيدة حين وجه هؤلاء الخمسة كان يعلم الكبر
من أبناء هذا القطر الذي لم يقتصر للإسلام إلا منذ سنين، ولم يستكن لسيطرة
العرب إلا بعد أن أسال أفرأ من الضماد، وهو يدرك أن العربي لن يكون قريباً من
عربهم حتى وإن جاءهم بذهب بذهب الخلافة التي لا شك أنهم يظنون لها
مواقعهم على ترقيت القرية الناز عاصمة وعشاقها لم يحسوا أنهم سياسة الاستطفا
والاسترخاء والتأليف بل أن أبا عبيدة نفسه، وهو كما أشرنا ألفاً ليس عربي
ولكنه حشني يتصل بالولاء لبني حمير، يحسن في نفسه شيئاً من القوي والحقد نحو
الشعوب التي أصبحت عما أصيب به هو وشعبه من الاضطراب إلى إعلان الولاء
للتكوير، وهذا الإحساس فيما يعتقد مما هنا نفسه لاستطفا بعض ما يصلح من
طواه البربر هنالك في المغرب والترشيح حفيد الأكاسرة الذي لا شك أن دولة
لذلك ولوعته وغرته لم تحقت ثماراً في أعداده لتولي مهمة إنشاء والقيادة والتوطيد
للتولة البربرية الإباضية المنتظرة التي وفد لإشاعتها أولئك الرواد القذاليون.

وعندما فشلت محاولات أبي الخطأاب رحمه الله وحلقه ابن حاتم القروري رحمه
الله كان عبد الرحمن بن رستم قد استطاع أن يدرك أسباب فشل الإمبراطورية
والاحتشافية وأن يحكم وشائعه بعض رؤساء البربر الضارين حول موقع رأى أنه
من ناحية الإستراتيجية أشد منعة وحصانة فلم يتوان في التحال بأصدق هناك
حيث الحصانة والمنعة للعمل على تكوين نقطة انطلاق إلى أعداده البعيدة، وسرعان
ما التقي مع أصحابه بعد أن آمن من المفارعة على الخطط عاصمة للتولة المنتظرة.

وحسبوا سنة 765 للميلاد أنشأ مدينة نهضت التي لم تبق منها اليوم
إلا الأطلال، والتي اتخذ منها عاصمة ملك شامع استمر فيه مع أبناء وأحفاد
سروال 144 سنة.

ولا حرج في أن الدولة الرئاسية هذه هي أول دولة نجح العرب في تكوينها بعد
الفتح الإسلامي، فإلى جانب اللغة الطبيعية لغاصتها ومضربها الأول كان دستوراً
دستوراً مثلاً لن يستطيع أحد أن يأخذ عليه شيئاً ولا أن يشكر منه شيئاً. كان
إهداء العهد الخلفاء الراشدين وكان تطبيقاً حرفياً للقرآن، ومطابقاً أن يكون اليوم
قوله هذه الدولة الناشئة ليس ذلك لأن الكفاءة وحدها هي التي تؤهل لشاغل
الدولة بل أيضاً لأن العصر العز بربرية لم تكن كثيرة في المغرب حينئذ، وحل
العرب الذين وفدوا عليه مع الفاتحين انحاروا مع العامل الأموي ألبا على هذه
الدولة، ومعلوم أن عبد الرحمن بن رستم لم يصطحب معه إلا أربعة فيهم عرب
واحد هو أبو الخطاب الذي استشهد في التمهيد لإنشاء هذه الدولة.

وبالرغم أن عبد الرحمن اعتمد في تكوين دولته على بربر الشمال لأنهم يحكم
قرعهم من الساجل الذي هب لهم فرصاً أوفر للاتصال بمختلف الحضارات، وأحسن
استعداداً لعمل كهذا من صميم الأعمال الحضارية، فإنه قد استطاع أن يحصل على
مؤازرة أغلب العرب سواء منهم بربر الاتحاد العليا أو بربر الصحراء.

ومضت الدولة في طريقها تتوحد وتوسع وأبدتها الإيائية من الشرق بالمال
والثروة ولم يلبث هؤلاء الذعاة أن يحصلوا منها على مراكز أو سلطان بل فرغوا
لهمة التعليم أو بالأحرى نشر الدعوة، ولذلك لم يضيئوا على البربر ولم يجد البربر
في وجودهم حرجاً أو خطراً.

وكان من الممكن أن تخلد هذه الدولة أو أن تستمر أمناً أطول بفضل ما
أحدثت به على نفسها من التثبيت بأسباب العدل والتعمير والانسجام وتعزير
الحائس، وبفضل ما وفق إليه مؤسستها من تحسين العلاقات بينها وبين الدول
الجاورة، وبفضل انتهاز حكامه من بعده السياسة التي رسمها لها في التنازل
وتفادي لولا أن أحدثت نظام الوراثة المكيكة متأثرة بما آله العرب والعرب جميعاً بل
وبعض العرب من الارتياح لهذا النظام.

ذلك بأن عبد الرحمن بن رستم مؤسس هذه الدولة عهد بالإمامة من بعده إلى
نفر من يعتقد أنهم هم الذين يمكن أن يلي أحدهم الأمر من بعده وبين هؤلاء نفر
أبى اسم ابنه عبد الوهاب.

وقد يكون عبد الوهاب على كفاية نادرة وقد يكون التقليد الوراثي خفي
الأكاسرة ذا أثر في ترشيحه مع المرشحين الآخرين وإن بطريقة غير شعورية، ولكن
الذي يلفت النظر هو أن عبد الوهاب كان الثاني في ترتيب الأسماء التي عهد إليها
أبوه بالولاية من بعده، وأن الاسم الأول هو مسعود الأندلسي، كان صاحبه
مشهوراً بالزهد والتحرر والفرار من الشغلات والمسؤوليات العامة انتفاء الشدة
بدينه، أفلا يكون هذا مما يبعث على الظن بأن مسعوداً إنما قدّم ليكون تقدمه بمثابة
الإعداد النفسي لتولية عبد الوهاب تولية تبعدها وإن شككنا عن غيول النظم
الوراثي؟ وإن الذين رشحوا بعد عبد الوهاب لم تكن مهمتهم إلا تأكيد صيرف
الأفكار عن تخيل هذا النظام؟ ومهما يكن الغرض من الطريقة التي سلكها الإمام
عبد الرحمن بن رستم رحمه الله في العهد بالولاية من بعده والتي جمع فيها في لقاء
ودعاء بين منتهاج عمر بن الخطاب ومنتهاج معاوية رضي الله عنهما فإن النظم
الوراثي في الدولة الرئاسية قد تأسس وأصبح لها دستوراً على الرغم من تنافس
ومادئ الملعب الإياضي، وبالرغم من التصدع الذي نشأ في الدولة نتيجة له إذ
غضب بعض الذي ذكر عبد الرحمن أسمائهم بعد عبد الوهاب فأخطأهم الخط
وكان لهم في الأمر هوى.

ومع أن هذا الغضب لم يكن بادئ الأمر ذا خطر فإنه كان من غير شك
الخلل الأول في طلك البناء الرئاسي الوراثي العظيم الذي أخذ يعنى مع الآكام
وتوسع حتى أصبح لعهد الإمام الخامس أي حاتم يعقوب بن أبي البظان فتنة داخلية
موجهاً احترفت العائلة المالكة قبل غيرها كما أعادت فرض الشفاعة بين برابرة
الشمال وبرابرة الاتحاد العليا، وبذلك لحقاً لعهد الله الشيعي دابة الفاضلين لأسباب

القضاء على هذه الدولة سنة 909 للميلاد، واستخلاص الجزائر للفاطميين فكان أن
عالت دولة بن رستم وبربر الشمال لتنهض دولة الفاطميين وبربر الشمال العليا على
يد السلطان السادس والأخير من الأئمة الرستميين.

وبالمباراة الدولة الرستمية نشأت الإباضية هنا وهناك من الأقطار التي كانت
تألف منها وطبعي أنهم لم يستكينوا ولكن محاولاتهم المختلفة لتأسيس دولة
جديدة في المغرب لم يقدّر لها النجاح¹.

إباضية المغرب بعد خيار الدولة الرستمية²:

إذا كان الإباضية رضوا بالأمر الواقع بعد اكساح الفاطميين لدولتهم، فإنهم
لم يستكينوا ولم تضمحل الآمال التي ما فتئت تداعب خيالهم في إمكانية تأسيس
دولة جديدة أخرى في المغرب، وقد أدرك الذين سيصبحون بعد قليل مبرزين من
رعايا الدولة الرستمية، وأكثر الظن أن منهم من كانوا من أقطائها، أن الاكساح
الفاطمي ليس من الحين قهراً. وأن عليهم أن يبدؤوا من جديد في تكوين من قد
تتاح لهم فرصة الغلبة وإنشاء دولة أخرى بعد أجيال.

وكانت وارجلان الواقعة إلى الجنوب الشرقي من ميزاب مثابة لطلاقة من
الإباضية لعهد بن رستم لم تغلص بعد للحضارة بل أنها، وإن سكنت القرى على
حاشي من البلدة، بل لم تغلص بعد للمذهب الإباضي، فهي أمشاج من المذاهب.

ورأى من سيصبحون بعد مبرزين من فلول الدولة الرستمية أن يسلكوا
المسلك التقليدي للإباضية بأن ينسوا لأنفسهم ملجأ يجمعون فيه بقيتهم، أولاً،
ويبدؤوا من محاولتهم، ثانياً، في أحد أطراف الدولة حيث تكون المسافة وقسوة

1 - هذا المذهب الإباضي في المغرب، كما هو عليه، لم يمتد في تاريخه إلى عهد هذه الدولة من رعايا الدولة الرستمية
بالمغرب أو غيرها، بل كان قبل ذلك، والظاهر أن هذا هو الحال.
2 - هذه الدولة الرستمية في المغرب، كما هو عليه، لم يمتد في تاريخه إلى عهد هذه الدولة من رعايا الدولة الرستمية

الطبيعة بعض ما يظاهرونهم، ورأوا في الصحراء بعض المنفعة، فهي بعيدة عن مراكز
الحضارة ومضطرب الدولة الناشئة، وفيها إخوان لهم قد يتألمون معهم فيستكثرون
فيها، ويستظهرون، فأودوا إلى وارجلان...

يبد أن المذهبية في إباضية وارجلان لم تكن قد بلغت بعد منهم مبلغ العقيدة
السيطرة، فما فتئت في مستوى التزعة والفوضى، ولذلك لم يستقبلوا إخوانهم كما
يحي أن يستقبل مهاجراً مقيماً، بل ما أسرع ما ضاقت بهم صدورهم وخافت لها
رأبهم على مستوى من الحضارة وتوف من الحياة حليق، إن أنحوا لهم الاستقرار،
أن يمكن للتأرجح من مقاليد ديارهم فيصبحون السادة المهيمنين.

ولم يكن هؤلاء التأرجحون قد نزلوا عليهم في قراهم وإنما ضربوا في بعض
أطراف ديارهم حيث أشأوا مدينة لهم لمضت على مستوى مرموق من الحضارة
والترف فقد حملوا معهم ما أمكن حمله من ثرواتهم التي أتبع لهم جمعها في ظلال
بن رستم، والحياة في عهد الرستميين قد اطمأنت بالناس وأتاح للنوي القسم
الطامح أسباب الرخاء والتعيم.

وما كادت مدينة "إسدراتن" الجديدة هذه تنهض زاهرة منرفة حتى ضاق لها
سكان القرى المجاورة وأرباب البلاد الأصليين، وتوجسوا منها خيفة ومن مشيبتها
على سيادتهم وسلامتهم فتأمروا على حرب عاتية كاسحة قضت على تلك المدينة
الناشئة وأهلها، ولما تعمّر غير زهاء نصف قرن، ومرة أخرى قنّز لفلول الدولة
الرستمية أن تهاجر ابتغاء الأمن والاستقرار، لعلها إذا أمنت واستقرت أن توفق إلى
محاولة أخرى لاستعادة مجد الإباضية في المغرب تكون أدنى إلى النجاح، حتى هدأها
الحمام آخر الأمر إلى "ميزاب".

استقرار فلول الدولة الرستمية بميزاب :

ولستنا ندري كما أشرنا آنفاً كيف كان لقاء سكان ميزاب الأصليين لهذه
الفلول وكيف دار بينهم الصراع ؟ ثم كيف أتبع لهذه الفلول التأرجح أن تنصير آخر

الأمر وتستقر؟ والأمر الذي لا شك فيه هو أن سكان ميزاب الأصليين الذين كانوا يرحلون إلى الاعتزال، وكان منهم محادلون مع الإباضية على نسق المعتزلة لعهد بن رستم لم يستقبلوا قلول حصومهم من قبل بالترحيب ولا بالحفا، ولكنهم ضاعوا لهم أشق الضيل فهم لا يأمنون معهم على مذهبهم في ذريتهم بيد أن مذهب الاعتزال هو مذهب دين يقوم على العمل العقلي الخرد، فهو لذلك لا ينشئ في أتباعه ما ينشئ المذهب الإباضي السياسي من روح التضال والتجمع والاستمالة والقضاء بين أنصاره، وذلك ممكن السر، على ما نعتقد، في غلبة قلول الدولة الرستمية على سكان ميزاب الأصليين.

ومهما يكن من شيء فقد أتبع لهذه القلول أن تنصير وتستقر وأن تعمل في ميزاب على إنشاء مجتمع ذي طابع ومميزات وتقاليد مهما اختلفت ألوانها وتعددت أشكالها، فهي دائماً تحفظ في جوهرها بعلاقة قوية منبعها الأصلي، أعني بالطابع السياسي للمذهب الإباضي الذي يقوم على جعل كل جانب من الحياة العلمية والفنية في أتباعه يتجه التحافاً حزبياً ليسهم في تكوين الطاقة المذهبية العظيمة التي تعمل لتحقيق أهدافه العليا المتمثلة حسب التعبير الحديث في إقرار وتدعيم النظام الديمقراطي الاشتراكي بأوسع معاني الديمقراطية والاشتراكية بما في ذلك ما يشبه أن يكون جمهورية رئاسية من حيث شكل هيكل الدولة الإسلامية الموحدة التي يجب أن تكون عاملة جامعة في نشر الإسلام وتوسيع أمداد سلطانه وتعزيز جانبته وإعزاز أفعاله.

تعريف ميزاب :

وإذا كان النصير، قد فتر هذه المرة لتلك القلول التازجة فإن الحياة لم تكن ميسرة الأسباب، هيئة لثال لأفرادها في ميزاب كما كانت لهم في وارجلان، فالقحولة والحفا وقسوة الطبيعة وحفاها من طابع الرقعة التي استطاعوا أن يعيدوا عليها، على حين كانت الطبيعة أدنى إلى العناية وتلطيف بواسحات وارجلان،

والقوة التي صجوها من عاصمة الرستميين ومنهم الزائرة الكبرى قد أنت عليها ليرة "إسدران" وفواجع الحروب والأسفار الكادحة والمجهود، إذن فليس لهم أن يعتمدوا في توظيف أنفسهم في ميزاب إلا على طبيعة التضال الضامد الذي لا يعرف العياء والإرادة الراسخة الشاذة التي لا تعرف الانشاء، وبفعل هذه الطبيعة استطاعوا أن ينشئوا لهم في ميزاب وطناً أحدهم مع الأيام يصبح صاحباً لحياة فاعلة وإن لم تكن راضية، وأخذت مدن ميزاب تنشئ تباعاً كما أخذ مجتمع ميزاب الجديد ينشئ ويتوطد وتتعين معاملة مع مرور الأيام، وعاد الأمل يساورهم من جديد في إمكان الوثوب مرة أخرى إلى إنشاء دولة على نسق الدولة الرستمية، إن لم تكن على معالها الأولى، وتلحى هذا الأمل في تنظيمهم لكيان ميزاب تنظيمًا ما لبت أن اتخذ شكل الدستور¹ المكتوب الذي حدد أشكال الأجهزة المديرة لهذا المجتمع الناشئ ووظائفها ومسؤولياتها وواجباتها، والذي بدأ في وضع معالمة رجل الدعوة والسفارة المستقلة والتفكير والعامل المتكرر لإباضية المغرب العلامة أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الفرسطلاني² أحد أقطاب الإباضية في القرن الرابع والخامس للهجرة، الحادي عشر والثاني عشر للميلاد، ثم استكمل تنظيمه وتشريعه وتدوينه على يد فيلسوف الصحراء الجزائرية العلامة المجدل الصحاح أبي عمار عبد الكافي الوارجلاني³، أحد أقطاب الإباضية في القرن السادس للهجرة الثاني عشر للميلاد.

ولم يكن هذا الدستور أو سير العزاية، كما كان يدعى، خاصاً بميزاب بل أخذ له جميع إباضية المغرب، في نفوسة بطرابلس الغرب، وجربة بتونس، حيث لا يزالون، وبعض واحات الجنوب التونسي والجزائري حيث لم يلبثوا إلا يسيراً، وإن كانت هذه الجماعات الإباضية المستوطنة في أقطار متباعدة من المغرب لم تلتزم بحرفية هذا الدستور بل كيفة كل جماعة على حسب ظروفها وإمكاناتها مكثفة بالحفاظ على جوهره من حيث المبادئ والأهداف.

1 - نظام العزاية
2 - محمد بن بكر بن أبي بكر بن يوسف الفرسطلاني من حلق جربة قسماً له 345 هـ / 956 م - 440 هـ / 1049 م
3 - توفي قبل 570 هـ / 1174 م

كأن تكون سيرة العزابة أو دستور جماعات الإياضية بالمغرب بذلك لا اكتمال
 الكيان الميرالي الذي أصبح بمثابة الركيزة أو المحور لنشاط إياضية المغرب، وكان من
 الممكن أن تنشأ عنه حالة استقرار مطمئنة تمكن من الاستعداد للانطلاق لتحقيق
 أهداف الإياضية بعد زوال الدولة الرسمية لولا أن ميزاب على ما يمتنع به من
 صعوبة الموقع وبعد المسافة ظل بعيداً عن الاستقرار والاطمئنان، فكان مسرحاً
 للمطامع المتعصبة والتوتية، ظل بعيداً عن الاستقرار والاطمئنان، ذلك لأنه إن نأى
 عن مواقع الصراع الحضري لم يأت عن مواقع الصراع البدوي بل كان منها في
 الأعصاف، فقد عرفت تلك الأعصاف على حفافها وقحولتها وقسوة الطبيعة عليها
 منذ القدم، الذي لا يعرف مداه في العراقة، قبائل ما بين حضارية وراحلة، كانت
 تمتع تارة بالحياة في ظل نظام قبلي خالص البدوة وتارة أخرى بالحياة في شكل
 امتزج يوشك أن يبلغ المستوى البدائي للدولة أو الولاية وإن كان لم يزل محتفظاً
 بطابع البدوة وطابعها في الأفراد والجماعات التي يتألف منها، ولم تكن هذه
 القبائل ولا هذه الكتل المتحممة تعرف عند نزوح فلول الرستميين إلى ميزاب شيئاً
 كثيراً عن الإياضية، ولا عن الملعبية بمعناها العقائدي وإن كان الاعتزال قد شاع،
 كما ذكرنا آنفاً، في من سبق إلى ميزاب لعهد الرستميين ومع ذلك فقد كانت
 تشايع هذا المذهب أو ذاك من المذاهب التي يتاح لها أن تتغلب على مدن الشمال
 الحزري.

وبينهم أن طبيعة البدوة تتفق مع التعايش السلمي، وخاصة بين من يختلفون
 في طبيعة الحياة المادية والعقلية وأسلوبها، وأن الاحتكاك على ضرورات الحياة
 واعتبارها المادية وخاصة حيث تكون هذه الضرورات لا تفرق بين قسوة الطبيعة
 لا أن يوقى لك تنازع البقاء في أمن وسائله وأشكاله إلى البدوة، فضلاً عن
 ذلك فمن المفضل أن لم يكن من الممتنع أن لا يكون أمراً مرتجياً ولا غير ذي بال
 على السبيل من على التمسك أن يتاح لهم الاستقرار والاطمئنان لفلول الرستميين
 وإن جئت في أعصاف الصحراء في القرون، فإن من مقتضيات السياسة أن لا

يرك هؤلاء حتى تنهت لهم أسباب الاستقرار وأن لا يهاجموا مباشرة حتى لا يكون
 ذلك سبباً لاضطراب الأمن هنا وهناك، حيث لا تزال جماعات أخرى من الإياضية
 لا ريب أنها ستتحرك لمظاهرتهم استجابة لدفع التضامن المنهني فما من شأنه أن
 يسبب في مشاكل من حسن السياسة تجنبها، ومادام حول هذه الفلول بنو حلف
 وأناس ما بين البدوة والحضارة ومادامت إثارة هؤلاء وأولئك أمر ميسور، فمن
 حسن السياسة تجنبها أن يغتروا بمناوشة تلك الفلول مناوشة من شأنها - إن لم تود
 إل إبادتها - أن تمنعها الطمأنينة والاستقرار اللذين قد ينشأ عنها خطر محاولة
 استعادة الدولة الإياضية البائدة.

لهذه الأسباب وتلك، كان الميراليون دائماً لا يكادون يفرقون من مناوشة
 ليلة أو قربة من القرى القريبة حتى يضطروا إلى مجاهدة مناوشة أخرى فإن ظهر
 نهضة قصوة من السلم فهم لا يقتلون خلالها على ترقب واستعداد.

وقد حاولوا أن يدفعوا عنهم هذه الغوائل وأن يطمئنون لأنفسهم حياة سلم
 وهناء، فعمدوا إلى عقد اتفاقيات توشك على بدالتها أن تشكل نوعاً مما يعرف
 اليوم بمعاهدات حسن الجوار وتأتي المواصلات والتبادل التجاري وما إلى ذلك مما
 يولد به تأمين الاستقرار والتعايش السلمي والتعاون الاقتصادي كالتق عفتت بينهم
 وبين قرية "منليلي" البعيدة عنهم نحو ثلثين كيلو متراً، وكان مفودة بينهم وبين
 قرية الأربعاء، الراحلة وغيرها من القبائل التي تقول حيناً حول شبكة ميزاب، إذا
 أسفنتها الطبيعة بشيء من الخصب أو حررها فوافلها إلى الشمال وإلى الجنوب ابتغاء
 الانتجاع أو الاتجار.

وكذلك أحدثت تنشأ لهم وتبرز سياسة خارجية على قواعد مدنية مستمدة من
 مقتضيات التعايش والتجاور والمصالح المتبادلة إلى جانب العلاقات الحزبية أو
 الملعبية التي ليست أمداً - لا نعلم حدود مداه بشكل دقيق - الأساس الوحيد أو

على الأقل لتكيف سياستهم الخارجية، وإن كان حشر هذه العلاقات ضمن
فكر اعتبار سياسة خارجية من بعد قبيلة لهم ينطوي على كثير من النحر أو
التوسع في معنى هذه الحملة لا يبرره إلا الاعتبار الجغرافي، بالترابطة الحرة عند
من الكمال الحقيقي والدائبة الوطنية، ولتن فصلتها الأحداث جغرافيا إلى فروع
متشابهة فهي ما فتت اعتباريا وحدة واحدة أبد الدهر على الالتصاق والانسجام¹.

علاقة الميزابين بحجرهم²:

وطبعا أن علاقاتهم بدول الشمال والجنوب الشرقي للقطرين الجزائري
وتونسي التي كانوا يرتادون مدنها التجارية كتجار مقيمين أو منتقلين كانت
عاملا بالغ الأثر في تكوين وتكيف سياستهم الخارجية المدنية فمع حاجياتهم إلى
تأمين قوافلهم ما بين تلك المدن وميزاب كما أشرنا آنفا لا بد لهم من تحديد
وتأمين العلاقات الضرورية للتعايش بين تجارهم وبين سكان مهاجرهم³، والوافدين
عليها من الأرياف والمستولين عن سياستها وإدارة شئونها، أولئك الذين لا يكونوا
حلقاء طبيعيين لهم بحسب بل ساسة وأحوارا⁴، ومع أننا لا نملك معلومات يمكن
الاعتماد عليها والاستئناس بها عن طبيعة هذه العلاقات وتاريخها ومدتها كما أننا
لنجهل أيضا إلى أية نقطة من القطر الجزائري أو القطر التونسي بلغوا في مضربهم
التجاري قبل العهد التركي، وفي أوائله فإننا نستطيع أن نجزم بأن الاتصال
الاقتصادي بين ميزاب والأصقاع الآتفة الذكر يرجع إلى تاريخ يسبق بكثير عهد
احتلال صالح باي لمدينة الأغواط حوالي 1785.

أما فيما يخص بعلاقاتهم بالقطر التونسي فمعارفنا أيضا ترجع إلى ما كان منها
للعهد التركي على حين تقتصر عن كل إيضاح قبل ذلك العهد.

1 - هذا الخط الخفيف لهذه الفترة لا يبرهن على أنها كانت تفرق بين هذه العلاقات وتطرح في الخطوط العامة في
عقد القرن الثامن أو التاسع عشر، ولكن يمكن أن يكون لها أثر في تاريخ هذه العلاقات وتطرح في الخطوط العامة في
عقد القرن الثامن أو التاسع عشر، ولكن يمكن أن يكون لها أثر في تاريخ هذه العلاقات وتطرح في الخطوط العامة في
عقد القرن الثامن أو التاسع عشر، ولكن يمكن أن يكون لها أثر في تاريخ هذه العلاقات وتطرح في الخطوط العامة في

علاقة ميزاب بالديوان العثماني:

ويبدو أن هذه العلاقات لم تتخذ الطابع الرسمي أي صبغة التعاقد الذي يكون
من دولتين لتحديد وتعيين نوع العلاقة بينهما بالنسبة للعهد التركي في الجزائر إلا
قد ما غرت الجيوش التركية الأغواط، ذلك بأن صالح باي بعد أن استخلص هذه
المنطقة وتوحيها عمد إلى الاتصال الرسمي بالميزابين لتنظيم علاقاتهم بمرکز الولاية
التركية بالجزائر كما أن الميزابين من جهةهم شعروا بضرورة هذا الاتصال فأوفدوا
إليه من لدنهم وفدا انتهى معه إلى عقد معاهدة¹ بين الطرفين تؤمن التجار الميزابين
ومواصلتهم في كافة المناطق التي يسيطر عليها سلطان الأتراك، ولقاء ذلك تضمن
لولاية التركية غرامة سنوية تقاضاها الخزينة العامة للولاية، وليس بعينا نوع هذه
الغرامة وإنما الذي يعينا هو أن هذه المعاهدة أو بالأحرى الخلاصة التي نقلت عنها
في بعض المراجع التاريخية التي بين أيدينا الآن وما عقبها من إجراءات تطبيقية
ورسائل متبادلة بين الميزابين وبعض ولاءة الجزائر بعد ذلك تثبت أول اعتراف
صرح لميزاب بكيان ذي صبغة دولية تحقق له استقلالاً كاملاً لا يشتره إلا هذا
الارتباط الذي يشبه في بعض نواحيه ارتباطا دول الكومنولث الآن بالنجاح
البريطاني، وإن كانت بعض هذه الوثائق تثبت أن هذه العلاقات أخذت على الأيام
تطور تطورا يضيق من مدى نفوذ ميزاب بقدر ما يتسع من مدى نفوذ
العثمانيين.

على أن هذا التضيق ظل فيما يبدو - أحلى في العبارات منه في التطبيق، ذلك
بأن تمثيل ميزاب في ديوان الوالي المركزي بالعاصمة الجزائرية لم يكن كما كان من
أول يوم إلى أوائل عهد الاحتلال الفرنسي وكان قوامه² أمين³ لهم في هذا الديوان

1 - من الأرجح أن تكون معاهدة سنة 1510 التي تضمنت فيها الجانب العثماني الجبل القوي للجزائر التركية وجزيرة بنز
والشاطئ التونسي في كامل جراب العثماني، مقابل دفع الجزية السنوية لهما 45000 برات ونسي سنة 24 من 1570 (12)
رجل 12 مرار.

2 - كانت تسمية أمين الميزابين في الديوان العثماني طبقا لاعتقاد سنة (1541) من أن ذلك من جهة سنة 1510. والى جانب هذا
تسمي الميزابين القسري للوائح العاصمة وأولادهم في إنشاء وإسناد الحكومات، إضافة إلى استحداث منصب أمين الميزابين.

يتولون نصيبه بأنفسهم وتعترف به حكومة الولاية ليكون بينهم وبينها صلة قوية
أو بالأحرى بمثابة "مندوب سام" ويعين هذا "الأمن" مجلس يتألف من سبعة أعضاء
يختارون من قبل ميزاب السعة ويكونوا له بمثابة مستشارين كما يؤدي بعدم حدوث أي
تغير في الاختيار للدبلوماسي لميزاب.

وهذه الطريقة نفسها كان تمثل ميزاب في ديوان الولاية التركية بتونس، ومع
أننا لا ندرى متى ابتداء تطبيق هذا النظام في الولاية التونسية ولا كيف فإننا نشعر
نظراً لمتاثر النظامين، بأن تطبيقه بتونس ابتداء عقب تطبيقه في الجزائر بقليل.

وربما كانت دار السلطنة بـ "الأستانة" أو "الباب العالي" كما كان يسمى
هو الذي اعترف بهذا النظام وأقره، ولعله قد اطلع على معاهدة الميزابين مع صاغ
بالي فيما لا بد أن يكون النظام قد اقتضى أن يحاط من مستوى العلاقات بين
الولايات العثمانية وما يجاورها.

ومهما يكن من الأمر فقد كانت هذه المعاهدة بالنسبة للميزابين بمثابة سابقة
سياسة إن لم تكن قد سلت بغورها مع بعض الدول التي سبقت العهد التركي
وقد حاول الميزابين أن ينظموا على غرارها علاقاتهم مع الفرنسيين حين وجدوا
أن لا مناص عن تنظيم علاقات رسمية معهم وخاصة بعد أن لم يتم احتلال الأغواط
أيضاً، على أن الميزابين لم يكونوا يرمون إلى الانعزال عن الشعب الجزائري من
وراء هذا الكيان المستقل وإنما كانوا يحافظون على استقلالهم كلما كانت الجزائر
مقتضية إلى دوللات أو منبلة باستعمار أجنبي مهما كانت صيغته، وما كان
الميزابين لينظروا إلى العثمانيين نظراً إلى الفرنسيين، ذلك بأن مواقفهم المشرفة
الباهرة في دحض الغارات الصليبية التي كانت تنشأ إسبانيا على الجزائر وما
أنبوه من بسالة وثبات حتى حين تهدم الخوض الرسمية للولاية بل وما كانوا

أما في عهد فرنسا في عهد فرنسا التي كانت تسمى "الجمهورية الفرنسية" فقد كان
هذا صواباً على ما كان عليه من استقلاله الذاتي الذي كان له أثره القوي في استقلاله الذاتي
في استقلاله الذاتي الذي كان له أثره القوي في استقلاله الذاتي الذي كان له أثره القوي في استقلاله الذاتي

يرمون به من أعمال هي في النظم الحرية من اختصاص القضاة وما غير ذلك
ويحرص على تسجيله كظاهرة ذات بال حتى بعض المؤرخين الفرنسيين يدل على
قانع على أن الرأي السياسي للميزابين في علاقاتهم بالدولة التركية لا يتركز على
أشياء مني بحسب، بل أيضاً على أساس ديني فوامه الشعور العميق بحضرة
الدفاع على تطور الإسلام وسلطان سلطته باعتباره أن الإسلام الذي يمثل النظم
الاجتماعي للإنسانية كما يريد الله إلى جانب تشريعه للظلم والتعدي التي نظم
حياة الفرد ونوعيتها نحو السمو والكمال الإنساني هو الحسبة الوحيدة التي تحدد
لكل مسلم حرته وتعين له حدوده.

ولا ريب في أن الشعور القومي بالمعنى الذي القاه عند الفرد التاسع
عشر لم يكن يومئذ معروفاً حتى في أكثر العواصم اتصالاً بالحضارة والحفا إلى
النهضة. لذلك رجحنا فيما سلف أن المعاهدة الميزابية التركية كانت أول سيطرة من
هذا النوع، لأن علاقات ميزاب بدول الجزائر وتونس قبل العهد التركي لا تبدو أن
تكون علاقات فردية، وإن كان الميزابين في تلك العهود لا يبررون على تطور
علاقاتهم الفردية بغيرهم إلى أكثر من مقتضيات التعايش الساذج الضروري إلا بعد
الرجوع غيتانهم وهذا هو ما يعزل لنا من الناحية العقلية عدم نشأة وحدة الفكر
الجزائري بجميع أقاليمه المختلفة حول حدود طبيعية أو اعتبارية حتى فيما بعد من
مدن الشمال أو التل ذات الاتصال المباشر بالتطور الحضاري بدلاً عن ربات
الصحراء المتناحية والتي انحلت على الأيام تتطور إلى مواقع صالحة للحياة أحياء
بعض الأسباب البدائية للحضارة. يضاف إلى ذلك أن الاستقرار لم تعرفه الجزائر
إلا فترات منقطعة، فحل عهودها سواء قبل الفتح الإسلامي أو بعده كانت عهود
صراع ما بين أحزابها المنقطعة حياء وأحزابها المتحمسين لتوسيع ملكهم على
حسابها حيناً آخر، والغارين لها من الدول ذات المطامع الاستعمارية أو الدواعي
الصليبية أحياناً أخرى.

وبعد ذلك كله وقبله كان الاقتصاد في مختلف أنحاء العالم - حتى التي تنعم منها بالاستقرار المديد فضلا عن التي لبثت مسرحا للقلق والاضطراب كالجزار - إما بهض على الأرومة الساذجة بلا تحميم له لا تكامل ولا تنظيم ولا تدويل، لذلك رجحنا فيما سلف أن المعاهدة الميزابية التركية كانت أول اعتراف لميزاب بكيان دولي وأن علاقات ميزاب بدول الجزائر وتونس قبل العهد التركي لا تعدوا أن تكون علاقات باردة، وإن كان الميزابيون لتلك العهود.

فالميزابيون - كما أشرنا أعلاه - لا يجرؤون على تطوير علاقاتهم الفردية بغيرهم إلى أكثر من مقتضيات التعايش الساذج الضرورية إلا بعد الرجوع إلى هباتهم الدينية والمدنية في ميزاب لاستلهاها المدى والكيف الذين يسم عليهما هذا التطور، لقصور وعيهم الحيوي على الحدود المذهبية من جهة وللاعتبار المسيطر على نفوسهم من أن كل علاقة تسمو على المقتضيات الضرورية للتعايش الساذج لا بد من أن تفضع للشعائر والأحكام الدينية طبقا للتكليف الذي رسخ في نفوسهم على الأيام رسوخا عاصفا لمعنى "ولاية الأشخاص وبراءة الأشخاص" وابتعد الميزابيون عن التطبيق العملي اليومي لما تقتضيه أهدافها البعيدة من تحقيق المرامي الملحة التي أشرنا إليها في أول هذا الباب كما سئل بها في باب المجتمع الميزابي مما جعل شعورهم الاجتماعي يتخذ شكلا من التكتل الخبز والقالم على الإحساس بالغربة وعدم الاطمئنان إلى غيرهم من الناس.

على أن المعاهدة التركية الميزابية، ثم الرسائل المتبادلة بينهم وبين الوالي التركي في الولاية المركزية بالجزائر تثبت بأن هذه الانعزالية كانت شبه مفروضة عليهم اقتضتها مشاعرهم للمذهبية الحادة، إلى جانب ظروف الجزائر التي أشرنا إليها آنفا ونستوى القتال العام للجزائر كنفاد والتصحر والجزائرية خاصة، والذكريات التي رست في نفوسهم من ظروف شعورهم بالميزاب، والمسألة التي كانت تتحكم في تفكير العلاقات بين أبناء القطر الواحد والحروب التي كانوا

ويعبرونها من القتائل المجاورة لهم واللثة هم أحيانا والتي كانت تعزل تعزلا مبدعيا، كل هذا كان يكتسب في نفوسهم الترح العنيف العارم إلى التعاون والوحدة اللتين تقتضيهما الأخوة الإسلامية لا سيما بعد أن أصبحت الجزائر نفسها مسرحا للغارات الصليبية، فالمنهية لم تتخذ في نفوسهم أو على الأقل لم تعد صفة غناء للمطامب الإسلامية الأخرى، وفصارها خصام لأهل تطبيق الإسلام الذي لبث أبدا فوق كل اعتبار عندهم.

فلما أتيح لهم أن يتصلوا في نطاق احتفاظهم بشرفهم بالدولة التركية لم يصرخوا اتصالهم في حدود ما توجه ضرورة التعايش بل اندفعوا في هذا الاتصال اللغاف عارما تناسوا فيه أحيانا حتى ما تقتضيه الاستقلال والذاتية المنيرة اللتين اعترفت لهم هما المعاهدة التركية الميزابية حتى لقد أباح رؤسائهم لأنفسهم أن يتخلوا في بعض رسائلهم إلى الوالي التركي المركزي لقب الختام¹ وأن يجرحوا في هذه الرسائل عن لغة التخاطب السياسي إلى لغة الشعر كما كان ذلك العهد يعرفها فكان هؤلاء الرؤساء أنفسهم شعرا، وهذا الموقف الانفعالي الصادر من الأعماق التي يسيطر عليها الوعي السياسي برهان على أن الميزابين كانوا - أول عهد الجزائر بالانتماء - في طبيعة من عمل من أنبائها على تحقيق وحدتها وتعيم تلك الوحدة على أركان من الدين والشاعر الوحدانية في غير تحفظ ولا احتراش.

وثمة ظاهرة خفيفة بالاهتمام والاستلها والتسجيل وهي أن سياسة ميزاب الخارجية كانت أسرع إلى الاستقرار ووضوح المعالم من سياسة الداخلية، فالعلاقة بين الميزابين والولاية العثمانية المركزية بالجزائر لم تتعرض، فيما نعلم، لما يمكن أن يعتبر "قلقة" في الأوضاع السياسية والدبلوماسية بالرغم من بعض الخلافات التي كانت تحدث أحيانا بينهم وبين حياة الضراب، أو رسل الولاية المركزية أو عمالها على الإقليم والمدن المجاورة والتي كانوا يراجعون في شأنها أو تراجعهم الولاية

التركيز في شيء كثير من مظاهر الود والتقدير والتكريم، ثم لا تلت أن تنهت إلى
تراخي قائم وعامل أيضا على توثيق متبادل بين الطرفين من حسن التفهم وصدق
الإساءة المتبادل بين الطرفين¹.

الأحوال الداخلية في ميزاب للعهد التركي²:

كانت الأحوال الداخلية في ميزاب للعهد التركي - ولأمد سابق، لا تعلم
مداه بشكل دقيق ثم إلى ما بعد الاحتلال الفرنسي بحوالي أربعين سنة - أبعد ما
تكون عن الاستقرار، فالقتل والحروب ما فتئت مشوبة بين المدينة والأخرى حيا
وبين القبيلة والأخرى في المدينة الواحدة منفردتين أو تظاهرها أو تظاهرها إحداها
لأنه الأسباب وعلة ذلك تدهور المستوى الثقافي والعقلي بفعل الضرورة التي عبات
جميع جهودهم لتحويل تلك المنطقة الفاحشة الجرداء إلى واحة صالحة للحياة، ثم في
نفس الوقت للدفاع عن واحاتهم تلك ضد البدو الذين كانوا كما سبق أن أشرنا
- يعتدون عليها فترة بعد أخرى متخللين لعنواهم تعليقات مذهبية، يضاف إلى
تلك دسائس هذه القبائل والعروض البدوية التي عجزت من أن تنال من الميزابين
مثلا ترضى مطامعها أو يكفكف أحقادها، فكانت تلجأ أحيانا إلى الإيقاع بينهم
بالنفس والائتصار مستغلة في ذلك عدم استقرار الروابط القبلية للميزابين
والعلاقات الفيدرالية بين منهم على قواعد ودعائم من الوعي الاجتماعي أو
القومي المبني من مستوى ثقافي وحضاري مكيف فعال، الأمر الذي حاول
الرؤساء الدييون لميزاب علاجه بمختلف الوسائل، حتى أسلحت بعض تشريعهم
لهذا العلاج صيغة الاتفاقات ومع ذلك فقد ظل داء عصيا لا سيما بعد الاحتلال
الفرنسي حين تفرغ به الفرنسيون لتجديد عداوتهم على ميزاب.

1 - هذه العلاقة المتبادلة بين الطرفين لم تكن مستمرة دائما بل كانت تتجدد في فترات متعاقبة.
2 - هذه العلاقة المتبادلة بين الطرفين لم تكن مستمرة دائما بل كانت تتجدد في فترات متعاقبة.

وتعلل هذا التباين بين مستوى الوضعين الداخلي والخارجي والداعلي والخارجي من
استقرار هو أن الوضع الخارجي لم يكن يعنى به، ولا لياشبهه غير الرؤساء الذين
كانوا - على اختلاف مستواهم الثقافي ووعيهم السياسي - يتحدون من الذين
يعمل الكاكي والوارع ذا الأثر البالغ حين كانوا يعالجون شأنا من شؤون ميزاب لا
سيما الخارجية منها عن تكييف وتوجيه تلك الشؤون، فالمذهبية في حقيقتها - وكما
كان هؤلاء الرؤساء يهتمونها لا تعني تحررة المسلمين أو التحالف بين مصالحهم
أعلا، وإنما تهدف إلى ما تهدف إليه الحزبية السياسية والاجتماعية الآن من انتفاء
أسلح الوسائل وأقوم المناهج وأقصر الطرق إلى المحافظة على الوحدة وتحقيق المصالح
أعلا للمسلمين، وذلك في رأي المذهبية والقومية أية قومية كانت، وفي رأي
الحزبية السياسية، والطبقة (أية طبقة كانت) وفي رأي الحزبية الاجتماعية.

أما الأحوال الداخلية فكانت قبل كل شيء في أيدي العامة ومن صنعها، وما
كان للرؤساء سواء في ميزاب أو في أية أمة، مهما كان حظها من الثقافة
والحضارة، أن يستطيعوا عمل شيء بالشريع كلا ولا بالتأديب والتشكيل إذا كانت
العامة لا تستطيع أن تترك ماذا يريدون أو لا تريد أن تفعل ما يشعرون، ولذلك
كان التحالف الثقافي في ميزاب، كما أشرنا أثناء هو المسيطر على تكييف الأحوال
الداعية، بينما كان الاستعداد المستمد من مستوى ثقافي (فادر على الداعية على
كل حال)، ومن وعي ديني عميق أصيل في الرؤساء المسؤولين هو المسيطر على
تكييف وتوجيه الوضع الخارجي لميزاب¹.

1 - هذه العلاقة المتبادلة بين الطرفين لم تكن مستمرة دائما بل كانت تتجدد في فترات متعاقبة.
2 - هذه العلاقة المتبادلة بين الطرفين لم تكن مستمرة دائما بل كانت تتجدد في فترات متعاقبة.

ميزاب والاحتلال الفرنسي للجزائر¹

عندما نكبت الجزائر بالعدوان الفرنسي كان وضع ميزاب الجديد القائم على القواعد التي رسمها اتفاق صالح باي، وما عقبه من الرسائل المتبادلة بين الميزابين والولاية العثمانية المركزية بالجزائر ومن إجراءات ونظم، وقد التصحت معالم هذا الوضع واستقر على شكله الذي يشبه في وجوه شتى نظام الكومنتولت، كما أشيرنا في حديثنا عن نشأة هذا الوضع، وكانت الدعائم التي استند إليها وضع ميزاب هذا ثلاث:

أ - الأخوة الدينية وما تقتضيه من التضامن والتعاون على إعزاز كلمة الإسلام وصيانة وحدة المسلمين وصيانة سيادة الخلافة الإسلامية من كل عدوان.

ب - مصالح الميزابين الاقتصادية التي أصبحت ترتكز كل الارتكاز على تجارة مدن ميزاب والتي أطرد نفوذها ورسخت ركائزها حتى أصبحت ركنا من أركان الاقتصاد الجزائري العام كما سيحد القارئ بيانه في الحديث عن (ميزاب والاقتصاد الجزائري) مما جعل الميزابين يعتمدون بمثابة صياغة الميزابين على معظم المعاملات المالية والاقتصاد بين مختلف سكان الصحراء الجزائرية بل وبعض واحات الجزائر شطر الجنوب، فكان ميزاب يقوم بدور المصرف العام لهذه المعاملات كما يقوم بدور المركز الاستراتيجي للمواصلات والمعاملات التجارية ما بين مدن الشل الجزائري شمالا وبعض المدن الكبرى من المطر التونسي وبين الواحات الأهلة في معظم أسواق الصحراء الجزائرية وما ورائها إلى الجنوب.

ج - مقتضيات التعاليل والتجارب مع سكان مدن الشمال الجزائري التي كانت تشب الفرنسي - كما سلف أن ذكرنا - في إطار الصيغة الحديثة إلى جانب

لصفة المدينة لسياسة ميزاب الخارجية، فكان طبيعيا أن يصاب هذا الوضع بشلل عام من جراء النكبة الطارئة، فالغزاة الجدد لم يكونوا في رأي الميزابين الأصليين معتدين من أؤكد ما يوجه الدين بمهادنتهم والاستماتة في سبل دفع عدوهم عن أرض الجزائر الإسلامية، ولذلك كان موقفهم في الدفاع عن العاصمة وعن قسنطينة وعن غيرها من المراكز التي استبل فيها المهاجرون الجزائريون على غرار مواقف أئمتهم الأولين في مختلف الحروب التي خاضوها ضد أعدائهم الخارجيين ابتغاء تصحيح الأوضاع التي بدا لهم أنها أزورت عن المعاصرين والذين سبقوهم قليلا والذين جاءوا من بعدهم بزمان يسر من الدفاع عن عثمان ضد الغارات الأوربية المختلفة التي كانت تلم بهذا الجانب من الجنوب الشرقي للجزيرة العربية كلما طوحت لها المطامع الاستعمارية أو الحفاظ الصليبية عبر الخليج العربي.

لنت بعض المؤرخين أن الكتيبة الميزابية التي يقال أنها تتألف من ألف رجل، كانت أصلب الكتائب الجزائرية وأشدّها على العزاة المعتدين على مرسى (سيدي فرج) إلى أن استسلمت قلعة العاصمة الشيء الذي ألفت إليها أنظار القادة الفرنسيين، وكانت دهشتهم شديدة حين علموا أن هؤلاء المستعدين ليسوا من سكان العاصمة الأصليين ولكنهم ما بين مقيم فيها - إلى حين التجارة والكسب وما بين وافد عليها تلبية لداعي الجهاد.

وكانت استماتتهم هذه بالإضافة إلى ما عمله الفرنسيون من وضع ميزاب الخاص عند العثمانيين سببا في الاتفاق الذي عقدته القيادة الفرنسية مع التجار الميزابين في العاصمة ومقتضاه ضمنت لهم المحافظة على ما كان لهم من قبل العهد العثمانيين من امتيازات حرفية وتجارية، وما أقدم الفرنسيون على عقد هذا الاتفاق إلا لخوف بعيد هو المحافظة على وضع من أوضاع الأقليات يمكن استغلاله في يوم ما! ولم تكن هذا الاتفاق صيغة التنظيم النهائي لوضع ميزاب بالنسبة للحالة الجديدة التي أصبحت عليها الجزائر لأن التجار الذين أرم معهم لم يكن لهم حق

الائتلاف ولا التفاوض باسم كافة مواطنيهم وقصارى عملهم تنظيم علاقاتهم وفي
مع الغزاة الخدد في أضيق الحدود التي تقتضيها ضرورة التعايش، وفي الوقت الذي
أرموا به هذا الاتفاق كانوا لا يفتنون عاملين في استماتة بطولية على تقويض
أركان المعتدين، ودعم حركات المقاومة خارج العاصمة لتحريرها وإلقاء الغزاة في
البحر فكان منهم من انسحب من العاصمة مع الفلول التي ارتأت أن تتجمع
خارجها لمواجهة الدفاع حتى بلغ بعضهم بلاد القبائل وشارك في الكفاح ضد الغزاة
هناك إلى أن أسروا، ومن هؤلاء السيد سليمان بن كاسي المهاد الذي يبدو أنه
اكتسب هذا اللقب "كاسي" من بلاد القبائل وأورثه أسرته من بعده فلا تزال
تدعى به إلى الآن، حراء ما بذله في الدفاع عن أرض الجزائر شجراً شجراً حتى أسروا
في بلاد القبائل، وقد توفي رحمه الله في بلدته القنطرة.

ويقال أن بعض الأسلحة التي استعملها هؤلاء المهادلون لا يزال أحلافهم
يوارثونها كإراث عزيز على حين عمد من بقي منهم في العاصمة، إلى وسائل
أخرى، ومن أبرزها الحراب كل تصل إليه أيديهم من سلاح، وقد استعملوا في هذا
الشهيد كل ما استطاعوا من سبل وأسباب حتى القتلوا من بعض البنادق
والأسلحة الأخرى بغاشا كانوا يشعرونها بالظفر والظفر المألوفة إلى مقبرتهم¹
حيث يقيمون لها جنازة تقليدية، ثم يدفونها فإذا حان الليل وغفلت أعين الحراس أو
غفلت نسل المهادلون إلى القنطرة ونشوا دفاعاتها على أمل أن تكون لهم عتاد لبعث
الدولة الجزائرية من جديد، ومن أطراف ما يروي في هذا الصدد أن إحدى هذه
العتاد لم تظهر تجهيزاً حسناً فبذلت بعض السور التي كانت تعلقها البنادق على
أعناق المهادلون مما لفت أعين الفرنسيين وأثار أرتياهم، فلما سألوا الميزابيين الذين
يقادهم - بأن الميزابي من حصاصه أن تطول أذنه إذا مات - ولهذا وعلى
حساب كرامتهم كائن من البشر استطاعوا أن يفتكروا بالعتاد على مشهد من

1 - قال المؤلف في هذه الصفحة هذه العتاد - أو عتاد - هي التي كانت تعلقها البنادق على أعناق المهادلون
فكانت في عهد الاستعمار الفرنسي، والآن لم يبق منها شيء ولا شيء من أبقارها ولا شيء من أبقارها
2 - قال المؤلف في هذه الصفحة في ثلاثة صفحات

الميزابيين، وهذه هي الحقيقة التي تكمن وراء الأسطورة الشائعة في بعض أوساط
النوام الأحرار عن أذن الميزابيين حين يموتون وعلى هذا السن كان موقفهم في
سطة ووهران حتى اضطر المقدس المبرور الأمير عبد القادر الماهي الجزائري إلى
الاستسلام.

وطوال هذه الفترة التي تربو عن ثلاثين سنة لم يكن لميزاب بصفة رسمية وضع
أر بعد قوات العدوان الفرنسي وإدارتها المدنية إذ كان الميزابيون يأملون في أن
يحدث الله المهادلين بالقوة التي تقضي سريعاً على جيش العدوان، فالتولة العثمانية
ماقت مركزاً الثقة ومعقد الآمال، ولكن احتلال الأغواط للمرة الثانية اضطر
الميزابيين إلى التفكير في مصيرهم ودراسة الواقع على ضوء تطوراتها وما أخذ
يتخض عنه من أحداث ليس فيها ما يؤذن بظهور بصيص الفرج من الغمرة التي
نكتهم لها الأنواج المتلاطمة على مرفأ سيدي فرج.

وما كان الميزابيون قطعاً يرمون من وراء هذا التفكير إلى "الانعزالية السياسية"
التي قد تكون ذريعة يومئذ ما في يد الفرنسيين لتفكيك الوحدة الجزائرية المتلاحمة،
كلأ، وإنما كان هدفهم الوحيد أن يحافظوا على وضع أكثر حرية واستقلالاً يعتبر
غشاً، إذ أن غلبت جزء من أرض الجزائر لا تستفيد منه إلا الجزائر على حد المثال
الساكن "ما لا يدرك كله لا يترك جله"، حتى إذا ما أتيحت الفرصة للانتفاض على
العدو الغاصب انضموا مع إخوانهم المهادلين لتخليص بقية أحرار الوطن الجزائري
لإنشاء وحدة وطنية في ظل السيادة الكاملة، والاستقلال الشامل¹.

أحوال ميزاب الداخلية بعد الاحتلال الفرنسي²

وعلى الرغم من المستوى المستقر للطرود النمو والتفرد الذي بلغه ميزاب في
شروطه الاقتصادية، فإن أحواله الداخلية كانت ذات الانحدار إلى الهاوي السحيقة

1 - قال المؤلف في هذه الصفحة هذه العتاد - أو عتاد - هي التي كانت تعلقها البنادق على أعناق المهادلون
فكانت في عهد الاستعمار الفرنسي، والآن لم يبق منها شيء ولا شيء من أبقارها ولا شيء من أبقارها
2 - قال المؤلف في هذه الصفحة في ثلاثة صفحات

والاضطراب ذلك بأن أفواج المهاجرين كانت متلاحقة إلى ذلك العهد أو قريب منه، وكان معظمهم ممن ينالون من الحضارة قسطا يرق بهم عن مستوى القرية البدائية فهم لذلك مافتنوا يحتفظون بألوان ذات أثر فعال في تدرجهم الاحتمار من أخلاق البداوة وفي طبيعتها الخيمة والقبيلة.

والمستوى الثقافي للذين استقروا بميزاب منذ عهد طويل لم يكن قد تجاوز مرحلة الاطلاع على بسائط الطقوس الدينية التعبدية، بل لقد حدث أن اغتدر غير نواحيها، بدعا حين تطبق على نسقها الديني وحتى لقد حوَصر بعض الفقهاء ذوي الصلابة والنباهة وشيء من التحرر العقلي في ديارهم كما نفي آخرون من قواعد إلى لمرى أخرى.

على حين نكّل بعضهم تنكيلا مريرا لأهمل أصروا على محاربة البدع التي اتخذها الجبهة دينا، وإعادة إقرار الأحكام التي حولها الجهل بدعا، وكذلك لم يستطع أن يفعل في تكوين المجتمع الميزابي وتركيز قواعده أكثر من إقرار مبدأ التقديس لما استقرت العقيدة في النفوس بآله من الدين، وعلى هذا الأساس وحده استقرت البقية الباقية من الوشائج الاجتماعية بينهم وفي مقدمتها طاعة الهيئة الدينية "العرابة" والخضوع لأوامرها والرهيب من عقوبتها التي كانت غالبا - كما سيحدد القارئ ذلك في حديثنا عن (المجتمع الميزابي) - تقتصر على إعلان "البراءة" التي لا تعدوا في حقيقتها أن تكون عقوبة أدبية رمزية لولا ما يشأ عنها من فقدان من عوقب بها حقوق المدينة حتى ترفع عنه حين يسيب.

أ - هذا هو الأثر الذي يتركه التماسك الاجتماعي في حياة المجتمعات البدائية. وهو يخلق نوعا من التماسك الاجتماعي الذي يحد من حرية الفرد ويمنع من أن يتعدى حدود الجماعة. وهذا هو الأثر الذي يتركه التماسك الاجتماعي في حياة المجتمعات البدائية. وهو يخلق نوعا من التماسك الاجتماعي الذي يحد من حرية الفرد ويمنع من أن يتعدى حدود الجماعة.

نضاف إلى هذا ضيق أسباب الحياة في ميزاب إلى أعلى من يهاجرون منه إلى مدن الشمال الجزائري أو إلى تونس للتجارة، وكانت المسافة لا تزال تسيطر على علاقات الأصقاع وتقل الناس بينها، فكان الذين يتحملون رهق الاضطراب بين مزاب والمدن الصالحة للمعاملات التجارية لقرا قليلا بالنسبة لمجموع الميزابيين لا سيما والطريق بين مزاب وتلك المدن قل أن عرفت أمنا مستقرا يمكن للمسافرين الاطمئنان إليه، فاجتيازها كان في أغلب الأحيان مغامرة توشك أن تكون بالية لا يلزم عليها إلا من دفعه الاضطراب وأنس من نفسه بظلمة.

وذلك على الرغم من مختلف المحاولات التي كان المشولون عن سياسة مزاب يذلونها محاولة تأمين قوافل التجارة الميزابيين والتي بلغت في بعض الأحيان حد التنازل عن شيء من الكرامة إذ التزم هؤلاء الساسة لبعض القبائل الضاربة والاضطربة حول المسالك المطروقة إلى مدن الشمال بدفع ضرائب سنوية تلقاء تعهد تلك القبائل بتأمين قوافل الميزابيين ومع ذلك كان فيها قليلا، ولهذا كان الاحتكاك دائما بين جمهرة الميزابيين حول أسباب الحياة القليلة كوسائل الرعي بما في ذلك اقتسام مياه الأودية إذا جاءت السماء بمطر واقتسام أوقات الاستقاء من الأبار التي نقي فيها بعض المياه حتى عندما تشتد وطأة الجفاف، وكالتنافس على التجارة المحلية بما في ذلك ما يكون مع الميزابيين المقيمين بقسم من الأغمار في مواد التموين وما يكون مع البدو الرحل الذين يفدون على مزاب بين حين وآخر وما ينتج مواشيهم وما تجود به بعض المناطق الصحراوية حين يلم لها الغيث، وما يحصلون من الحبوب الغربي إلى إفريقيا السوداء أو من بعض أطراف الشمال القريبة من الصحراء من مواد لها في مزاب سوق رائحة، وهناك عامل آخر قد يتفرد بإثارة الشجاء بين الميزابيين، وقد ينتج من احتكاك ما على شيء تافه من الأشياء الألفه يذكر ذلك هو الحمية القبلية التي أشرنا إليها في أول هذا الحديث وهي حصة حملها معه العنصر البربري بصفة خاصة، ومع أن القبائل في مزاب كانت حديثة النشأة لم

لنحيط بالأموال التي اتخذت منها قبل أن تستقر بمحازاتها، بل إن القبيلة الواحدة
كثروا ما تضم اثنتان من القبائل البويرة المختلفة ومن أثناء العناصر الأخرى
كالعربية والفارسية، فإنها سرعان ما اتخذت في نفوس أبنائها شكل الوحدة الموحدة
التي تنقسم بنفس العمق والتأصل الذي اتخذته القبيلة في أنفس أبنائها العرب في شتى
مضاربهم بأصقاع الجزائر، والعرب في شتى مضاربهم بين أصقاع الجزيرة العربية
بل ونكس تحافظ على كتابها وعتيقها

بل ونكس تحافظ على كيانها وعزتها سارت على متن القبائل العربية والحوية
الأول في تحالف قبيلتين أو أكثر ضد قبيلة أو أكثر من سكان المدينة الواحدة، أو
سكان مدينتين حين تكون إحدى هذه القبائل قد تفرعت إلى أكثر من مدينة
واحدة، وسرعان ما اتخذ هذا التحالف شكل التحاجر الجغرافي فتمايزت في المدينة
الواحدة إلى حيتين متواجهين مستقل الحمي منهما بالقبيلة وأحلافها ويحاول كل
منهما أن يظهر على حاره حتى حين يثبت السلم بينهما بمظاهر حضارية حين
وسياسية إدارية حين آخر، وهكذا عرفت مدن ميزاب قصة الشرفيين والعريبيين
وإن كان هذا اللقب الذي اتخذته هذا التمايز الجغرافي في بعضها لم يكن جغرافياً بل
قلباً على الرغم من تحاجر سكانه جغرافياً، وفي مدن ميزاب وجدت - إلى
جانب القبائل المتحالفة المتحجرة - قبيلة أو أكثر تحاول في أغلب الأحيان أن
تحتفظ بعبادتها وبعلاقات ودية مع الطرفين المتحاجرين، فإذا تطور الاحتكاك إلى
الصراع المسلح - وكثيراً ما كان يحدث ذلك - كان هذا الطرف المخادع رسول
السلم الذي يسعى بين الطرفين بالمهادنة والمصالحة.

وهكذا است الوضع الداخلي في ميزاب أبعد ما يكون عن الاستقرار مما أتاح
للمرسلين وسيلة استغلوها إلى أقصى حدود الاستغلال لتهتبه أسباب إحصاء
ميزاب ثم اجتلاله، وأحاطهم على ذلك عدم استقرار الوضع بين الميزابين والقبائل
التيوة المضطربة حولهم كما سلفت الإشارة أكثر من مرة، وهذا ما أتاح للحكماء
والكوت ديف (الزورق) "Le Comte de Randeni" القوي العظام على الجزائر

سنة 1853 أن يهدد الميزابين - لا بقوة فرنسا وحدها - بل وبصلة أشد وأكثر
اطمئنانا إلى الواقعية - بقطع مواصلاتهم عن طريق إثارة القبائل البدوية عليهم
ويطرد نغارهم أو اعتقالهم وتجريدتهم مما كانت قيادة الاحتلال قد اعتمدت به لهم
من امتيازات في الاتفاق الموقع بين الطرفين عند سقوط العاصمة كما ذكرنا آنفا،
مؤثقة العامل الذي جعل بعض المسيطرين على الهيئات المدنية¹ بميزاب يخرجون
عن طاعة الهيئات الدينية² ويحولون على رغبات الوالي الفرنسي خضوعا لمقتضيات
ضرورة العيش فيما حيل إليهم عندئذ³.

وجعية الجزائر إزاء سياسة الاحتلال⁴:

ولم يكن الفرنسيون حين قرروا العدوان على الجزائر ولا حين أقدموا عليه قد وضعوا لتسبيل هذا القطر أو مستقبلهم فيه سياسة واضحة المعالم أو حدوداً للأهداف، بل كان قصاراهم إلى جانب الرغبة في التوسع والاستعمار التي كانت يومئذ فاعلة السياسة الأوروبية خارج أوروبا، وبدعها أيضاً أن يرضوا في أنفسهم أحقاداً أصلية قديمة ما فتت منذ قرون، إذ أحدثت أوروبا وخاصة الأنظار اللاتينية منها نأس من نفسها قوة تضطرم في أطرافهم وتلمحهم لمحا إلى محادثة الأنظار الإسلامية، ومحاولة إذلالها، ثم صرف الشعب الفرنسي الذي كانت مختلف الثورات والحزائم التي ظل يواجهها منذ القرن الثامن عشر بما في ذلك إعلانات الهند والنيكار والإمبراطورية نابليون، والاضطراب بين النظام الملكي والإمبراطوري والجمهوري والذي كان على شفا الانهيار - إلى عمل من شأنه أن يستعيد منه جهداً جديداً

- 1 - أعضاء المجلس الذي يضم علماء من كل قرية من قرى حروب تشعنا والذين يتبعون من بينهم "شعنا" يشهدون في القبول النهائي كما جاء هناك بالثبات فيها مسبقاً.
- 2 - من القواعد الأساسية في حروب تشعنا والشمسة في اختيار الزعماء "زعماء القرية" هي القبول النهائي في القبول، هذا القبول الفرعي من المجلس الإداري والمجلس الشعبي في كل قرية حروب تشعنا والشمسة، والجميع منه يختار شيخ في حروب تشعنا يسمى "شيخ شعنا" أو "شيخ شعنا"، وهي القبول النهائي في كل حروب تشعنا.
- 3 - غاية المجلس التشريعية هذه القواعد "قواعد تشعنا" التي كانت توضع في حروب تشعنا والشمسة في القبول النهائي، وعلى أي حال كانت القواعد، ولكن أي القواعد كانت "قواعد تشعنا" والشمسة تشعنا والشمسة تشعنا والشمسة تشعنا.
- 4 - غاية المجلس التشريعية هذه القواعد "قواعد تشعنا" والشمسة تشعنا والشمسة تشعنا والشمسة تشعنا.

وإن يفتح له - إذا قدر له النجاح - آمالاً فاسحة، هذا كان قاتلهم العسكرون
 ليسهم مترددين بادئ الأمر بين ملاحقة الولاية الخليل في مختلف حواضر المرو
 ومنها الكبرى الذين كانوا يحاولون الدفاع عما في أيديهم من القاصم ضد العوا
 للمعندين بل وفي ملاحقة النعم المروور الأمير عبد القادر الحسي الذي قد الثورة
 الكبرى على المعندين، فكان فيهم وفيمن صحبهم من السياسيين بل كان في
 الحكومة الفرنسية نفسها وماسة باريس من مالوا أمدا إلى الاكتفاء باحتلال
 العاصمة وبعض المناطق الساحلية ووضع بقية القطر الجزائري تحت الحماية الفرنسية
 ولعلهم كانوا سيتفكرون عروضهم هذه وأمثالها لولا إصدار أقطاب الدفاع ضد
 المعندين، وفي مقدمتهم الأمير الحسي على ضرورة المحافظة على الدولة الجزائرية
 كما كانت لعهد العثمانيين، ويبدو أنهم كانوا في إصرارهم هنا أقوياء الأمل في
 وحدة غالبية من الباب العالي بالآستانة.

وحين حين تم للفرنسيين إخضاع معظم القطر الجزائري لم يكونوا قد
 استطاعوا القضاء في شأنه إلى سياسة مستقرة، ولهذا كان الميزابيون يشعرون - إلى
 أن احتلت مدينة الأغواط - بأن لهم متسعاً من الوقت لرصد الحوادث والتطورات
 والتدبير، فلما احتلت الأغواط بدأ بعض المدنيين منهم أنه لا مناص من الوصول مع
 هؤلاء المعندين إلى سياسة من شأنها أن تحفظ لهم وضعاً أدنى إلى الشرف والكرامة
 من وقع الاحتلال المباشر، ولعل هذا الرأي لم يكن بادئ الأمر محل خلاف بين
 المدنيين والدينيين منهم، وإنما نشأ الخلاف بعد ذلك حين رأى الفرنسيون أن يتفقوا
 مع الميزابيين إلا على قاعدة من الإدلال والإخضاع.

ويبدو أن أمر الميزابيين كان قد أهتم الولاية المركزية للمعندين على الجزائر منذ
 حين، وأنها رأيت أن ترمي بالنسبة في شأنه حين تدرس في وضعهم وأحوالهم
 دراسة - إن لم تكن جامعة دقيقة - فهي قريبة من الدقة والشمول وما كان ذلك

يستمر عليها فضلاً عن وثائق ديوان الولاية العثمانية المركزية التي استولت
 عليها بعد استسلام الوالي التركي هناك طائفة حسنة من النصار الميزابيين يمكن أن
 تعرف منهم أحوالهم وأحوال إقليمهم وبني عموميتهم بمختلف الوسائل، وهناك
 أيضاً من استطاعت أن تصطبغهم من الأغراب وذوي الدعم الحزبية من سكان المدن
 التي تم لها القلة عليها، وما أمر الجنرال يوسف¹ علينا بعيد.

وقد استطاعت حين تم لها احتلال الأغواط أن تكون على بينة من أوضاع
 ميزاب الاجتماعية والاقتصادية، ما يظهر لنا بحلاء في رسالة الجنرال "الكوت
 راندون" والي الجزائر إلى الميزابيين حين أوفدوا إليه من يفاوض على الاعتراف
 لميزاب بكيانه واستقلاله وإبرام إتفاق معه شبيه بالاتفاق الميزابي التركي، فقد بينت
 السياسة التي تضمنتها هذه الرسالة على قاعدتين اثنتين:

الأولى: هي أن كل من كان خاضعاً للواء العثماني أو متصلاً بالولاية العثمانية
 للعلوية لا مناص له من أن يصبح للفرنسيين عابداً ذليلاً.

والثانية: هي أن الميزابيين الذين تعتمد حياتهم على ما تقي به عليهم المثلث
 التي تم احتلالها من مكاسب تجارهم لم يعد لهم أن يحاولوا الاعتصام بالمسافة التي
 كانت يومئذ إحدى موازين القوة والضعف، ولا يعسر الصعراء على من لم يأل
 الحياة فيها، إذ أن الوسيلة إلى إذلالهم وإخضاعهم أصبحت بين يدي المعندين
 الغالبيين فلهم في المناطق المحتلة أبناء والطريق بينهما وبين تلك المناطق ما فتت
 خاضعة لسيطرة القبائل البدوية التي ذاقوا من عنصومتها العناء الشديد، والتي
 أصبحت اليوم أو على الأقل أصبح يحتلها يدان للمعندين الغالبيين بالطاعة
 والخضوع، فإن استعصم الميزابيون بالصعراء والمسافة عن واجب الدلة والمخند
 للسلادة الجدد فإن أبناءهم ومواصلاتهم ستصبح ويصبحون تحت رحمة هؤلاء
 السادة.

1 - من هؤلاء من سبق بالهجرة لفرنسي والفرنسي في برابرة في أن أصبح عراباً بالهجرة

التشاكس بين الميزابيين وإدارة الاحتلال :

ويز هذا الصراع في شكل خطب حماسية أقيمت في السنوات التي تلت توقيع هذا العهد، وأكبر الظن أنها كانت تتخذ شكل دروس دينية من تلك التي يلقونها في شيوخ الساحل وأقطاب العزابة في الجمع والنواصم الدينية وغيرها من المناسبات الحاشدة وما أسرع ما ظهرت آثار هذه الخطب في شكل أعمال إيجابية وسلبية جدياً آخر.

ففي سنة 1857 أي بعد توقيع هذا العهد بأربع سنوات فقط بدأ للكرامة "مرعريت" التي كان حاكماً وقائداً لمنطقة الأغواط وما وراءها من مناطق الصحراء يومئذ أن يزور ميزاب، ويبدو أن أبناء مربية تسربت إليه فعرج على الميزابيين بحزمهم بموعد زيارته فسلكته "بريان" لأنها كانت مقطوعة من بقايا مزارع ميزاب فحشيت العواقب حتى إذا بلغ "غرداية" واجهته بأبواب موصدة التي استقبلوه في بشاشة صفراء مصطنعة كان لم يحدث شيء، لأن عملهم ذلك لم يكن إعلان ثورة وإنما مظاهرة وتلك إحدى عجائب المرونة السياسية في الميزابيين الذين كان مستواهم الثقافي يومئذ لا يؤهلون أن يتفهموا في السياسة إلى هذا المستوى الرفيع.

ولا ريب في أن "مرعريت" (Marguerite) وقيادة الاحتلال والولاية العامة الفرنسية أصبحوا غير مطمئنين بل ولعلمهم قلقون جداً من صدق نوايا الميزابيين الذين لا تترك مظاهيرهم ولا أفعالهم على أنهم كانوا حادين حين والتقوهم على ميزاب محاولاً الحصول على حيلة ما يستفيدون منها الميزابيون وما يؤمنون، وما لبث هذا التماسك أن اكتشف أنه مجرد حيلة لا يمكن أن يستمر أي في مساعدة لا تفصل الميزابيين إلا نواياهم كبدعهم وأفعالهم.

وأما الفرنسيون فتجد محز في نفوسهم ولشوا يترقبون القصر للانتقام ولتحت لم يربحوا إذ قرر الإمبراطور نابليون الثالث أن يزور الجزائر عطف هذا الحادث لعلها تواسلست الولاية العامة ميزاب وأخت في أن تولد مبدته وهوذا على عتباتها في حفلات استقبال الإمبراطور، وأدرك الميزابيون المعنى السياسي لهذه الرحلة فهي إنما تهدف:

أولاً: إلى إرغامهم على تطبيق وثيقة الخدمة والخضوع تطبيقاً عملياً يظهر حتى في بساطة الشكليات.

ثانياً: إلى عدم الاعتراف لهم بكيانهم الفيدرالي الذي يجعل لهم ذاتية متصورة واعتبارهم سكاناً مدني لا تخاف بشيء عن سائر مدن الجزائر المختلفة في كيانها أو وضعها السياسي.

ولذلك أعرضوا عن الإجابة فأثار تصرفهم هذا حلي الفرنسيين الذين رأوا أن يوفوا "مرعريت" مع حاكم الأغواط الجديد إلى ميزاب بحجة أن هذا الحاكم يريد أن يتصل مباشرة بمن يشملهم بقوته.

ويبدو أن "مرعريت" الذي قد رقي إلى مرتبة عقيد "Colonel" كان قد اقترح على الجنرال يوسف فالده ولاية المدية المحتلطة التي تشمل منطقة الأغواط لتسليط عشويات على الميزابيين مسرفة في العنف، ولكن الجنرال يوسف كان يرى غير هذا كما كانت ترى القيادة العامة للاحتلال وكان رأي الجنرال يوسف والقيادة العامة يستند على تقدير أثر المسافة بين الأغواط وميزاب وعدم الاستقرار في الصحراء إلى الحروب من ميزاب، بل وعدم الاطمئنان إلى أن دعائم الاحتلال في المناطق المحتلة عملاً قد أصبحت وطيدة أمتد هذا كانت التعليمات الصادرة إلى "مرعريت" في رسالة الجنرال يوسف صريحة في حصر العشويات التي كلف "مرعريت" بتسليمها على الميزابيين داخل نطاق التفرغ لصياح الخيالة، وأحد المدية من مدينة غرداية خاصة لعائلة اليهودي المقتول لأنها كلفت بالبحث عن القاتل فلم تفعل شيئاً، وكذلك حامت المدية والغرامة على البحر الأبي.

غرداية: دة عشرة آلاف (10.000) فرنك،

بني بوقن: ثلاثين ألف (30.000) فرنك غرامة لأنها هي التي تولت الخطأ ضد فرنسا والدعوة إلى مقاطعة حفلات الإمبراطور.

مليكة: ستة آلاف (6.000) فرنك غرامة.

بنورة: ثلاثة آلاف (3.000) فرنك

العطف: ستة آلاف (6.000) فرنك

بريان: خمسة آلاف (5.000) فرنك

أما القرارة فيبدو أنها لم تغرم كبقية قرى ميزاب، ولعل حركات الحياة التي كان بعض المأجورين قد قاموا بها، وتركزت آثارا شتاء وقتنا دامية استمرت سنين عديدة. كانت قد بدأت من يومئذ، ولعل بعض هؤلاء الخونة كانوا قد استجابوا لدعوة الولاية العامة فحضرُوا حفلات استقبال الإمبراطور وفي طليعتهم القائد السفاح عميل الاستعمار "كاسي بن بوهون" الذي لا يزال بعض حفدته يسرون على منواله.

ومهما يكن من الأمر فقد برهن ميزاب خلال العشر سنوات الأولى من موافقة الفرنسيين على الخضوع أنه لم يرض هذه الموافقة وأن الذين أقدموا عليها إنما كانوا ماديين وبنصرهون الفرص الملائمة للانتقام!

احتلال وادي ميزاب²

وما لبث الميزابيون إلا يسرا حتى منحت لهم الفرص، فافلتسوها، ففي سنة 1863 تولى الباشا أنها حمزة بن بوبكر آل سيدي الشيخ الذي كان مبطرا

1 - هذه الخطة اعتمدها القائد العام للولاية الفرنسية في الجزائر، كجزء من خطة التوسع في الصحراء.
2 - هذه الخطة اعتمدها القائد العام للولاية الفرنسية في الجزائر، كجزء من خطة التوسع في الصحراء.

على منطقة ورقلة وما يليها إلى الجنوب والجنوب الغربي حيث تضطرب فيث وتشتد نفوذها الديني باسم الفرنسيين، فولى الأمر من بعده ابنه الأكبر سليمان، ويبدو أن حمزة هذا كان على خلاف مع أخيه "لعلي" بن بوبكر في الموقف الذي ينبغي أن يتخذه مع المخطئين الفرنسيين كرؤساء لقبيلتهم وقادة دينيين على حين كان سليمان ابنه على رأي عمه، فلما ولي الأمر أعلن الجهاد وناصرته جميع القبائل التابعة لنفوذ أسرهم الديني، وبعد أسابيع استطاع أن يثر الجنوب كله بما فيه ميزاب، فذلك هي الفرصة التي كان يترقبها الميزابيون للانتقام، ومضت الثورة ما بين الانتصار والانهيار، وحيل إلى بعض الأغرار وأرباب الذمم الخبرة أن ألوان الانتقام من القبائل المعادية لهم من المواطنين الميزابيين قد آن، فصالحوا إلى خذلان الثورة مما اضطر الوطنيين الميزابيين إلى إحراء عملية تطهير داخل بعض مدن ميزاب، فكان أن هجم رجال من العطف ومليكة وبنورة على حجاب من غرداية قعد سكانه عن نلية داعي الجهاد ولم ينصرفوا عنه إلا حلا، وأصبح ميزاب يمثل مركزا استراتيجيا هاما لثورة الجنوب، ففيه تتصل قبائل الجنوب بقبائل الشمال مستصرة مستغرة، وكذلك عقد في ميزاب المحاضرات المنعم "لعلي" بن بوبكر آل سيدي الشيخ مؤتمرا لقبائل الشعانية¹ والحرازية² الضاربة حول ميزاب إلى الشمال، وهناك استغل بحفاوة كما يستقبل الخليف، فلما قدر لهذه الثورة أن تقصر دون مهمتها واستشهد أقطابها وتفرق من بقي من أبطالها فلولا، عاد الميزابيون إلى سحابة الفرنسيين فأوفدوا من يحاول تأويل موقفهم للولاية الفرنسية العامة بيد أنها تتخذ للحيلة وإن كان ظروفها الناشئة عن حرب المكسيك كانت تضطرها إلى ابتغاء السلم مع كل من يرغب فيه ولذلك اكتفت بأن تطلب إلى "مرغريت" أن يقابل الميزابيين بحدود شديدة.

1 - الشعانية: سكانها من بني تلمسان الذين قدموا إلى الجزائر في القرن السادس عشر.
2 - الحرازية: قبيلة تلمسان الذين قدموا إلى الجزائر في القرن السادس عشر.

وعلى الرغم من فشل هذه الثورة وما بدأ على مناطق الجنوب من مظهر استيلاء الأمر فيها للفرنسيين فإن الولاية العامة لم تظمن إلى ذلك المظهر الذي بل كانت تخشى أن يكون قناعاً لترقب وترقب قد يسفر يوماً - إذا منحت الفرصة لتأليبها لا سيما والآفاق السياسية بين فرنسا وألمانيا آخذة في التبدل والافتقار. ولذلك لجأت إلى وسيلة جديدة حاولت بها صرف سكان تلك المناطق عن الفرنسيين إلى أنفسهم فعملت في إثارة الإحن والأحقاد بين القبائل المضطربة والقيمة، وطبعي أن يكون للميزابيين من هذه الخطة نصيب، ففي رسالة الجنرال يوسف إلى حاكم الأغواط المذكورة آنفاً يعلن هذا القائد عدم موافقته على تسليط عقوبات عنيفة مثيرة على الميزابيين كما كان يقترح "مرغريت" بأن هذا الإجراء من شأنه أن يوحد بين الأحزاب الميزابيين المختلفة المتنافرة.

إذكاء الفرنسيين لنار الفتق حول ميزاب تحضيراً للإيقاع به :

ولم يكن عسيراً على الولاية العامة الفرنسية أن تجد في بعض الأحزاب عملاء من الخونة والأغرار، فقد كانت فيما سلف تستصر على بعضها بعضاً بعض القبائل المضطربة حول ميزاب كما ذكرنا من قبل، واستغلال الحمية الجاهلية التي كانت تدفعهم - فيما سلف - إلى مثل هذا التصرف لن يكون عسيراً على صنعة الدسائس الفرنسية، لا سيما مع قوم لم يرتفع بعد مستوى الإدراك السياسي في عانتهم عن السلاح البالية غير قليل، وكذلك استطاعوا أن يثيروا فتناً شعواء بين هذه الأحزاب وأعاليهم على ذلك تاريخ من علاقات أمشاج ما بين قبائلية ووطنية، آخرها إغلاء جانب من غرداية السالف ذكرها، والتي كانت أول ظاهرة لإضفاء الصفة السياسية الوطنية على الصراع القبلي في ميزاب، والتي كانت أول ظاهرة لإضفاء حدثت فتنة قبائلية في غرداية كانت الصفة الوطنية فيها إلى جانب الصراع القبلي ظاهرة فاعلة، فقد امتد إليها الإحراج إلى خروج غرداية إذ ظهر لهم من بريان، أحد

البدلين المتصارعين فدخلوا إلى غرداية في هجوم مسلح، وكانت معركة هوجاء بين هذا الفريق والآخر من أحد طرفي غرداية وأنصارهم البريانيين من جهة، وبين الفريق الآخر الخليل من الميزابيين (الإباضية) المقيمين بغرداية وتقر من (الملكية) المحاورين لهم والمتسمين إلى قبيلة المدايح¹، وكانت هذه الفتنة البداية والأسس لفتنة أخرى كانت الظاهرة الوطنية أبرز فيها، وقد حدثت بعد هذه خمسة عشرة سنة، فقد لبث الفريقان منذ هذه الفتنة متميزين في اتجاهيهما السياسي ما بين وطني صريح العداء للمحتلين وقبلي لا يكفي بالمسألة فحسب بل قد يتخذ من بعض أبنائه عمداً وصنائع للفرنسيين.

والى جانب هذه الفتنة حدثت في تلك الأثناء فتنة مماثلة، لها لعل من أبرزها فتنة القرارة التي كان عملاء الفرنسيين أجراء فيها وأبرز فاعلية وأعمق أثراً، وإن كان القراريون² ليسوا بأقل من الغرداويين³ في عانتهم مقاومة لصنائع الاستعمار بل لعل بعض ملاحقاتهم لهذه الصنائع وألوان انتقامهم منها كانت أجراً وأحلى كما كانت الآلام والمتاعب التي لحقتهم من هذه الملاحقة وهذا الانتقام فيما بعد بالغة العنف والمرارة.

ولم تقف الفتنة الحزبية أو القبائلية على ميزاب وحده كما أشرنا آنفاً بل تجاوزته إلى ورقلة التي كانت المدينة المركزية منها مقسمة إلى ثلاثة أحياء:

حي "بني واقين"⁴، وحي "بني مسين"، وحي "بني إبراهيم"، وكان بنو واقين إباضية وبنو مسين مالكية وبنو إبراهيم أمشاجاً لذلك سهل على الفرنسيين أن يثيروها حرباً شعواء بين بني واقين وبنو مسين، وسرعان ما امتد لها إلى بني ميزاب الذين استعصر بهم أحوالهم بنو واقين فهبوا إلى نصرهم وكانت الفتنة على

1 - المدايح : سكان غرداية من صيرة بالشمال الغربي لغرداية.
2 - القراريون : سكان القرارة.
3 - الغرداويون : سكان غرداية.
4 - وهناك من يظن "بني واقين".

هذا الخلف الإناضي فلاحق للتصور الميزابيين إلى ديارهم وكانت لا تملك
الكارثة لولا انتهت آخر الأمر قبل أن يعظم خطيئها.

وأجست قيادة منطقة الأغواط بأن السياسة الفرنسية التي استغلت الشعب
والقبيلة، بل والاختلاف في الانحيازات السياسية أيضا قد انحلت نجاحا مرصدا
فرائت أن تخطو خطوة أخرى في توطيد أركانها بميزاب فراح حاكم الأغواط يطلب
ويطلب في إغناء ما بقي للميزابيين من حريصة التصرف في شئونهم الداخلية،
ولكن الولاية العامة كانت تعرض عن طلبه الملح هذا وبدوا لها لم تظفر
بعد أن الأولان قد أن.

مقاومة الميزابيين لاحتلال وطنهم :

وظل ميزاب مسرحا للحوادث والفن بفعل الدسائس الفرنسية التي كانت
تهدف إلى تدمير احتلاله فعلا، فقد كانت الولاية العامة مفتتحة بأن ميزاب مستواه
الاقتصادي المكين ومستواه الفكري والإدراكي الذي كان بالقياس إلى غيره من
مناطق الجنوب قريبا نائما سيكون احتلاله المباشر تدعيما لقوة فرنسا وهبتها في
الصحراء وتأمينا لقرنها إلى الجنوب.

وكان الصراع بين الوطنيين وعمالها قد طغى على كل عامل آخر من
عوامل الصراع في ميزاب وأخذ يتطور بشكل أدق إلى التصوج حتى اتخذ على الأهم
شكل الانحيازات السياسية.

ففي 10 أكتوبر 1881 قتل الحاج إبراهيم أحرمة الذي كان شيخا مسنا
معروفا لدى المصادر الفرنسية فراح عمل لصالح فرنسا مدة ثلاثين سنة أي بستين
سوق مدينة (بربان) مسلط رأسه ومقره على الساعة العاشرة صباحا وطبعي أن
يكون لهم الفرنسيون أو نظامهم بالمرء فقد انقضت بالغا فهو مظهر من مظاهر
الخصم المزدوج.

وفي 21 مارس 1882 أي قبل انتهاء سنة أشهر من هذا الحادث وقع حادث
آخر يقول المصادر الفرنسية أنه من قوم سابقه إذ انحطفت الشيخ صالح بن كاسي
ثم أصبح أنه قتل، ومع أنه كان مشهورا بالصلاح والتقوى فإن المصادر الفرنسية
تؤكد بأنه كان حديقا للفرنسيين. وتعتبر هذا الحادث هو أساس المذبحة الفظيعة
التي حدثت في غرداية مسقط رأس الفقيه ومقره يوم 26 أبريل 1882 أي بعد شهر
واحد من حدوثه وقد أسفرت المذبحة عن انقلاب وطني إذ تم فيها النصر للفرق
التي كان يناهض الفرنسيين صراحة فاستول على جميع مقاليد السلطة في المدينة
من دينة ومدينة وشكل الميتين: الدينة والمدينة من الأمراء الذين كانوا أشتاء على
الفرنسيين.

وفي نفس الوقت حدث في مليكة التي لا تبعد عن مدينة غرداية إلا بأقل من
كيلومتر واحد انقلاب مماثل، إذ أحطع المدينة واستول على مقاليدها آل الركنطي¹
وأصارهم فكانت هذه الأسرة الكريمة أول أسرة تكتها الفرنسيون بعد أشهر حين
وضعوا أقدامهم في ميزاب.

وكذلك لحيات للفرنسيين العزل الكافية لتدمير احتلال ميزاب احتلالا مباشرا
ففي نهاية الشهر السادس من هذه الحادثة في يوم 26 أكتوبر 1882 أرسل الوالي
"برمان" إلى قائد منطقة المدينة "الحمران الأموال إدمارة دي لا نورد" برفقة تحت
رقم 626 يأمره فيها بغزو ميزاب².

الميزابيون تجاه الاحتلال³:

رغم أن الميزابيين فروحتوا بقوات الاحتلال تغزو بلادهم فإنهم لم يستسلموها
بالخضوع ولا بالقبعة التي تقضيها للفاطمة على الرغم من أن هذه القوات

1 - آل الركنطي - هم من قبيلة بني ركنطي، وهم من قبيلة بني ركنطي، وهم من قبيلة بني ركنطي.
2 - هذه الأسرة كريمة من
3 - هذه الأسرة كريمة من

كانت ضخمة هائلة خليقة بأن تشيع الرعب في النفوس، فقد كانت عبارة عن
 كنية تتألف من (1175) ألف ومائة وخمسة وسبعين حديثاً وضابطاً و(1851) ألف
 ومائتين وواحد وخمسين جملاً تحمل اللثون والذخائر ما يكفي حاجة هذه الكنية
 لمدة ثلاثين يوماً، ذلك بأن هذه الكنية وجهت أوامرها بالعنف الشديد، وأن
 قولت هي من الناحية الحربية بالمسألة المصطنعة، مما اضطر قائدها المباشر
 (كابتن هارت ميار، Le capitaine Hart Mayer) إلى اتخاذ تدابير وإجراءات
 عيفة ضد الذين واجهوا أوامره بالعصيان، فلم تمض بضعة أيام لوصول كنية إلى
 فرداية إذ دخلتها يوم 17 نوفمبر 1882 حتى أخذ في اعتقال الوطنيين، وكان أول
 من اعتقل منهم - لأنه حياه الفرنسيين بالعنف - هو المنعم المبرور السيد باحمان بن
 الركطى من أسرة آل الركطى التي سبقت الإشارة إلى الانقلاب الوطني الذي
 تزعمته في مدينة مليكة إحدى مدن ميزاب السبعة.

ثم تنابع الاعتقال فاعتقل قطب الأئمة المنعم المبرور الشيخ الحاج محمد أظفتر¹
 لمدة أربع وعشرين ساعة، إذ كان يومئذ زعيم الهيئات الدينية للميزابيين أو
 بالأحرى شيخ مشايخ وادي ميزاب، وقد سبقت الإشارة إلى أن الهيئة الدينية في
 "نبي بسحن"² هي التي تولت كبر الوقوف في وجه رغبات الفرنسيين منذ عرضوا
 على الميزابيين عهد الذلة والخضوع أثناء ولاية الجنرال "الكوت دي راندون" على
 الجزائر، وقد ورث الشيخ أظفتر (رحمه الله) فيما ورث من أعباء الماضي الميزابي
 المضطرب زعامة هذه المعارضة الثائرة وكان يمتاز عن سلفه بالذهن الواسع والعقل
 المتحرر المنسوب إلى الانطلاق والصلابة الممتدة خارج حدود الجزائر إلى الدولة
 العثمانية على المضائق وإلى دولة زنجبار في شرقي إفريقيا مما أتاح له إدراكاً أوسع
 وأعمق للتطورات السياسية المختلفة، وخاصة ما يتصل منها بالأوروبيين، وقد

1 - قاتل هذا من قبل الفرنسيين، فمات في السجن في 1914. 2 - نبي بسحن هو الشيخ الحاج محمد أظفتر، فمات في السجن في 1914. 3 - نبي بسحن هو الشيخ الحاج محمد أظفتر، فمات في السجن في 1914. 4 - نبي بسحن هو الشيخ الحاج محمد أظفتر، فمات في السجن في 1914. 5 - نبي بسحن هو الشيخ الحاج محمد أظفتر، فمات في السجن في 1914.

حاول الفرنسيون قبل الاحتلال المباشر لميزاب الثروب منه والتخفيف من حدته
 عليهم فقللوه ليشاء من الجمع العلمي الفرنسي برتبة ضابط يد أنه كان يضعه
 دائماً أسفل جناح برنوسه تعبيراً عن مدى احتقاره له على حين كان يضع نياشين
 للنول الإسلامية الأخرى في مواضعها التقليدية وعندما غزا "هارت ميار"، ميزاب
 بكيت كانت لديه تعليمات صريحة من رؤسائه بتحتب أي احتكاك بهذا الرجل
 الآخر، ما قد يحوله إلى قائد ثورة، ومع ذلك لم يجد متاعاً من اعتقاله كما ذكرنا
 آنفاً، اعتصملاً رمزياً بهدف منه فيما يبدو إلى إرهاب أنصاره أكثر
 مما يطمح في غمر قناته.

لم اعتقل في 26 نوفمبر الوطنيون الذين أرسلوا فيما بعد إلى سجن جزيرة
 (كركسيكا La Corse).

وفي 30 نوفمبر¹ أعلن إلخاف ميزاب وتلى البيان الذي بعته الوالي العام على
 الجزائر إلى الميزابيين لتحديد الأسباب والأهداف لهذا الإجراء، تحت السلاح ورفع
 العلم الفرنسي.

الكرّ والفرّ بين سلطات الاحتلال والهيئة الدينية بميزاب :

وفيما بين 17 و30 نوفمبر كان "هارت ميار" يحاول إقناع الهيئة الدينية
 بضرورة تعيين الأشخاص اللذين كانوا يولون القضاء أو العدالة للاعتراف بهم
 وإقرارهم في مراكزهم كما كان يحاول إقناع الهيئة المدنية بتعيين الرؤساء اللذين
 سيقبّلون بالقواد (القالد Caïd) ويكونون أدوات اتصال بين الفرنسيين والميزابيين،
 وكانت محاولاته تصطدم بسياسة الهيئة الدينية القائمة على عدم الاعتراف بشرعية
 أي اتصال مع فرنسا فضلاً عن الاعتراف لها بأي حق في التدخل في شأن من
 شؤون ميزاب، وتصطدم سياسة الهيئة المدنية التي عادت إلى الخضوع لتعاليم الهيئة

الماوراء الاستعمارية بميزاب¹:

إنه من الطبيعي أن يجد الفرنسيون الوسائل الكافية لإنهاء وتدعيم ركائز القوة والقطيعة بين الميزابيين حتى تصبح قوية مكيئة راسخة تعد ثلاثين سنة من سيطرة وضع الوضع السياسي سيئاً، واشتد الصراع القبائلي على الألبان، وتصور الأحوال الاجتماعية نتيجة لهذا الصراع تدهوراً، كل ذلك مكن للاقتصاد الميزابين إلى حد ما من مقاليد النفوذ في الشؤون المدنية بقدر ما أضعف من قوة رجال الدين، إلى جانب ألوان الترفيع والترهيب التي برعت فيها السياسة الفرنسية، كل هذه الأسباب كانت وسائل صالحة لتدعيم تلك الركيزة ولتثبيتها وزيادتها عمقاً ورسوخاً.

وحدثت الكمية الغالبة الطريق ممهدة أو تكاد إلى الفصل لحائياً بين السلطات المدنية والمدنية ووضع السلطة المدنية تحت التصرف المباشر لإدارة الاحتلال ومحاوله لتطبيق مجال السلطة المدنية وتحويلها شيئاً فشيئاً من العقالية المادية وإبطالها أداة للسلطان الروحي فحسب.

وطبعاً أن يكون تأثيرها في السلطة المدنية أعمق وأبهر، فرؤساء العشائر الذين تمسك أيديهم مقاليدها كانوا قد هبطوا لذلك من قبل ومعظمهم لم يشعر بادئ الأمر بأن شيئاً يتزعزع من يده بل بالعكس من ذلك أو هو أن الإجراءات الجديدة لا تعني أكثر من الاعتراف بمركزه وتقوية نفوذه ولا سبل للقلقة التي أفركت حيلة تلك الإجراءات أن أصبح إلى المقاومة وحامت أولئك الثغرات التي كانوا عماد الانقلاب الوطني في كل من مليكة وغرداية لأن أقطاب هذه الحركة قد رجع لهم في السجون ليدعوا بعد ذلك إلى حرية كورسكا، وقد فقدوا كل أمل في مقاومة تلك الكمية الضخمة الغالبة، ولذلك لم يجد الميزابيون منافعاً من إبدال بعض رؤساء الهيئات المدنية بغيرهم بل بقيت هيئاتهم "هارت ماير" رؤساء آخرين ثم كانوا يلقون إلى الاعتقال عند سلطات الاحتلال.

والملك لم يجد عسراً في تعيين من سيكونون الممثلين لسلطانها في مدن ميزاب، بل أوجع لها أن تتخبرهم وأن تزعج من الهيئات المدنية ما بين طيعة ومكرهة الاعتراف لهم كرؤساء لها وإن يتم لها كل ذلك خلال ثلاثة عشر يوماً، وأن يتسنى لها ترسيخهم "قياًذاً" وبإسهم حلة القيادة، الرأيس الحمراء يوم 30 نوفمبر¹ أي في يوم ثالث عشر من غزو ميزاب.

على حين كان تأثير سلطة الاحتلال في الهيئات الدينية أشدّ تعرضاً للمشقة والعسرة فهي لم تستطع أن تطلب منها إبدال أشخاص بأخرين على الرغم من أنها من أي لحظة عني ملاحظة الفرنسيين من أول يوم، وقصارى ما كانت تأمل² من أن تقوم من هذه الهيئات بتصريح رسمي بأسماء رؤساء المشايخ وأسماء من يتولون من أعضائها أعمال القضاء، بقسميه الابتدائي والاستئناف ليكون اعتراضاً لهم قائماً على أساس هذا التصريح الذي يعني سياسياً الاعتراف بواقعية وشرعية الاحتلال المباشر الجديد والخضوع لمقتضياته وإن بصفة رمزية، ومع أنها قد ظفرت آخر الأمر، وبعد أجهد الجهد كما يعرف "هارت ماير" نفسه هذا التصريح، فإن موقف الهيئات الدينية المعاند واحتجاجاتها الصارخة كانا كافيين سياسياً لتجريد هذا التصريح من معنى الاعتراف الذي كانت ترجوه وحصره في التعريف الذي لا يعني أكثر من الخضوع للقوة الغالبة ولا يثبت شرعيته عند المشرعين.

هكذا بدأت السلطات الفرنسية تتزعزع من الميزابيين شيوخهم الداخليين من مدينة وتشريعة، وهي دائماً تدعى المحافظة على بقاء تلك الشؤون في أيديهم احتراماً لالتزاماتها.

كانت القادة الدينية يرمون قد استقرت في يد قطب الأئمة الشيخ الحاج محمد لطفيش رحمه الله، وكان أغلب أعضاء الهيئات الدينية في مدن ميزاب السبعة.

سيما من كان منهم على حظ من الثقافة يسير أو وفير، إما من قداماء التلامذة ومن
تمن لا يزالون يتلقون العلم منه، وكان القضاة وأعوانهم بطبيعة الحال يتأخرون من
هؤلاء التلامذة، فهم وحدهم غالباً الأكفاء القادرون على تحمل هذه الصعاب
الجسام، وكان رحمه الله عدواً لدوداً للفرنسيين، فكان في مقدمة عمله التبليغ
نوحه النفوس إلى اكتشاف حفايا السياسة الفرنسية التي تركيز على وعي طلبة
وتسديد جهودهم في مناهضة تلك السياسة. لذلك كان للهيئات الدينية تلك
الاحتلال الفرنسي ذلك الموقف الصلب العنيد الواصي، فقد بلغ من بعض القضاة
وفي طلبتهم العلامة النعم الشيخ بكير بن داود من آل بن يوسف إحدى أسر
العظمى الماحدة، أن استقالوا من مراكزهم احتجاجاً على الاحتلال الفرنسي
وارتفاعاً بأنفسهم من العمل في ظل سيطرة المعتدين.

والملاحظ أن من أهم الآراء التي كان العقيد "مارغريت" يستند إليها في
الحاجة على الولاية الفرنسية العامة بالجزائر أكثر من عشر سنوات تقوم باحتلال
ميزاب احتلالاً مباشراً كان من أهم تلك الآراء حضور القطر الجزائري كونه
تشريع واحد وإجراءات قضائية واحدة وكانت أهم تعلقات الفرنسيين للاعتناء
المباشر على ميزاب دعواهم بأن الأمن فيه أصبح مختلاً، وما كانت أهداف تلك
الآراء لتحظى على الهيئات الدينية في ميزاب وفي طلبتها الفطرب الشيخ أطفش،
فكان حيناً أن دعوى الفرنسيين بأنهم لا يرغبون من معرفة من يتولون مناصب
القضاء في أكثر من الاعتراف هؤلاء القضاة اعترافاً رسمياً بحسبهم وحدهم بالقوة
لتسديد أحكامهم عند الاقتضاء، أن هذه الدعوة ضلالة من ضلالات المستعمرين
أبدي الهيئات الدينية، وذلك ما حدث فعلاً بعد فترة طويلة فلم يكف بتقاضي ربع
فرن حتى كانت سلطات الاحتلال قد بلغت المرحلة النهائية من مراحل إخضاع
القضاء والتشريع في ميزاب لسلطتها المباشرة، إذ فرغت عيشة من إرادة آخر مظهر
من مظاهر استقلال القضاء لميزاب حين عطلت مجلس الاستئناف بعد أن عملت

من قبله إجماعاًه ولضيق أمدته ثم على جعله اختيارياً لمن شاء أن يتجاوزها إلى
الهيئة الفرنسية بالبلدة، وبعد أن آلت رئاسته إلى صيغة من صلتها قاضي
براية صلبة، ذلك الذمعية الماكر الذي جمع بين العلم القويم والحيلة الواسعة وبين
ما الصد به من الخفية القليلة والخضوع لسيطرة الأناية فكان مثلاً للمناقضات
من الخس في شخص واحد لتجعل منه خطراً مشحوناً بمشي على وجه الأرض.

ومع أن الوطنيين في غرداية قد استطاعوا آخر الأمر أن يتقلدوا مدينتهم
وبطلوا ميزاب كله من شر القاضي داوود بن بكير فإن عملهم كان عاجزاً عن أن
يهد المجلس الاستئناف حرمة وأن يعين القضاة من الهيئات الدينية ولذلك كان هذا
الداسي وزملائه قضاة مدن ميزاب الشيعة آخر من عثروا في مناصبهم من قبل
الهيئات الدينية وهكذا توصلت فرنسا بمناورتها إلى شل الجهاز القضائي بميزاب بترك
المرأة الجزئية للميزابيين في عرض ثلاثة ممن يختارهم عشائر البلدة لتولي منصب
القضاء وللحكومة وحدها حتى اختيار أحد من هؤلاء الثلاثة ومن الطبيعي أنها
كانت تختار أئنيهم عريكة وأقرهم إلى المسألة، ثم عمدت فرنسا إلى حرمانهم
عصر من عناصر معاهدة 1853، وهو عدم التدخل في الشؤون الداخلية لميزاب
فأظهر الميرابيون الرقوص البات والمقاومة المستميتة التي كان من ضحاياها الساحين
والأموات الشهداء الأمر الذي اضطر الإدارة الفرنسية إلى التراجع في قرارها
تدريجياً فبعد أن كان المفروض على مدن ميزاب السبع تحيد مائة وخمسون شاة
كل سنة أصبح هذا التصاب مختصراً إلى خمسة عشر شاة مع حرية التعويض، ولا
يزال الميرابيون يتعارضون ويتظاهرون كلما قرب موعد تجديد هؤلاء الشبان.

بقي ميزاب على هذا الوضع الأخرج، لا هو منقطع بالحكم الذاتي حسب
معطيات معاهدة 1853 ولا هو ملحق تمام الإلحاق، ولم يكن الميرابيون يرمون من
وراء التمسك بمميزات المعاهدة إلى الانقياد عن إخوانهم الجزائريين، كلاً وإلماً
كانت نظرتهم المحافظة على سلامة جزء من هذا الوطن الجزائري وثقله بعض

حقوق ليس من الحكمة ولا من السياسة التنازل عنها ما دامت من حملة مظهر
الشعب الجزائري، وما دام النظام الاستعماري هو السائد في البلاد، فتخليص وفاء
هذا النظام على جزء من التراب ليس معناه الانفصال عن التراب، أمّا وقد عشت
لغة الكلام وتولّى السّلاح تصحيح الأوضاع فالميزابيون يحاربون في صفوف
أخوانهم حباً لحب وبكافحون من أجل هدف واحد هو تخليص هذا الوطن العرو
من براثن الاستعمار القشوم، والتفاني في الجهاد المقدس إلى النصر النهائي¹.

الوثائق السياسية لمناورات جيش الاحتلال بميزاب²:

نهى في هذا الجزء دراستنا من ناحية من نواحي وادي ميزاب، وهي ناحية
الاحتلال الفرنسي لهذا الجزء من الوطن الجزائري، ونوع المناورات العسكرية من
طرف قوات الاحتلال الفرنسي في يد بعض حربي الدم من العملاء والأذناب
ولكن لا يريد أن نختم هذه الناحية قبل أن نستعرض بين يدي القارئ الكريم وثائق
تاريخية ثبت بطريقة لا تدعو إلى الشك جميع المعلومات التي أدلتنا بها ولدينا
بالوثيقة الأولى وهي مقتطفات من تقرير بحث به الضابط "هارت ماير" الذي بحث
على رأس الكتيبة المكلفة بالحاق ميزاب بالأرض المحتلة الجزائرية وقد كتب هذا
التقرير باسم قائد منطقة المديّة، الذي أشرف على عملية الإخفاق، ليوجهه إلى
القائد العام لجيش الاحتلال الفرنسي للجزائر وجاء في التقرير ما يلي:

... إن جماعة مدينة برّمان خرجت لاستقبال الكتيبة وعلى رأسها قائدها
فلدتم لها الماء والخبث والطعام، خرجت إلينا بوقود السيارات الشبع وهيأت لنا
كل ما طلب منها وهذه المظاهرات السلمية ليرهن لنا أن ليس للميزابين وهم
يجهلون المهمة التي كلفت بها أي به في المقاومة ولكن أتوقع عكس ذلك
المظاهرات يوم يعلمون بأمر إخفاق بلادهم بفرنسا والشروط التي ستفرض عليهم...

1 - وثيقة ثانية من المراسلات بين
2 - وثيقة ثالثة من المراسلات بين

إلى أن يقول: ما فتئ المثقفون منهم يحتجون على إحقاق وطنهم بفرنسا إلى
تاريخ ثلاثين نوفمبر، ولم أظفر منهم بأسماء من يتولون وظيفه شيخ ولا المستشارين
القضاة من يلقون بالعزابة، إلا بعد عناء كبير وحير نافذ استطعت بهما أن
أقنعهم بأن احتجاجهم لا تغني عنهم شيئا وقد اضطررنا إلى إلقاء القبض على
الطال سي محمد أطفّيش الحامل لتيشان الشرف العلمي برتبة ضابط من المجمع
العلمي الفرنسي والمذكور شخصياً في تعليمات الوالي العام، واعتقاله في المحبس لمدة
أربع وعشرين ساعة.

وعندئذ أيقن الطلبة بأن لم يبق لهم إلا الخضوع للأمر الواقع وأقنعهم بأن
سيعملوا بقودهم الديني لدى أتباع مذهبهم ليسر مهمة الإدارة الجديدة التي
سيضعون لها ذلك لفائدتهم ولفائدة أتباعهم.

وهذا تعريب الرسالة التي بعثها الجنرال يوسف إلى الصّاع حاكم الأغواط
ضمّنها تعليماته وحوابه عن اقتراحات العقيد.

"في هذه المدة الأخيرة حدثت أمور تجعلنا نشك في الاستعدادات الحقيقية
للميزابين، إن نفوذنا في عطر ومن الواجب أن نعيدة كاملاً ولكن بوسائل هادئة
لا تحدث الضجيج الذي لا يريده القائد العام والذي يجب أن نعرف بأن لا
موجب لاستعماله إذ لم يحدث أي عمل انتقاضي صريح وحدّي، فاليهودي اغتيل
في ظروف استلمت إحصاء بحث في مدينة غرداية فكانت الأخوية مراوغة لا يمكن
أن تقنعنا، ولما لم يسلم المدنيون إلى مرغريت (Marguerite) فعليه أن يلزم غرداية
بدفع غرامة لفائدة الخزينة تعويض لعائلة القتيل وأن دفع الغرامة والتعويض القدين
تحددهما، فإن رضي السكان الامتثال لأوامر فعلية أن ينسحب هو وجوده، وأن
يسير العصاة بأنهم سيعتدون ويعاملون كأعداء لفرنسا وتغتضي هذا سوف يتدرون
بأن جميع مواصلاهم ستقطع بواسطة الشاغل المارة لهم، وليست هناك وسائل
أخرى يمكن أن تتخذ منهم، وأي إجراء غير هذا ستعد بنا لا عن نوايا القائد

العام فحسب بل عن أوامره وهكذا فإن أقصى ما يمكن للعقيد أن يفعل تحت مسؤوليته الخاصة هو أن يأذن بقطع المواصلات وقد أمر القائد العام قائد مقاطعة وهران بأن يصدر أوامره إلى حاكم البيض لكي يكون على استعداد للتحرك عندما يطلب ذلك "مرغريت" ويمكنه أن يدعو مباشرة ولنفس الغرض المخاليف¹ ولولاد² قائل³ والأربع بدائرة الأغواط بمناسبة عزم الإمبراطور وزوجته على زيارة الجزائر فإن بعض مدن ميزاب لم تستجب للدعوة الموجهة إليها بأن ترسل نواديا عنها للاستقبال، وهذا الشرط لا يسمح برفض تقديم آيات الخضوع اللاتفة برئيس الدولة، يجب على العقيد أن يلزمهم بالتفكير، وذلك بغرامة أو بأي شيء آخر، ولكن يجب في أي حال من الأحوال أن يجبرهم على تقديم رهائن، يجب أن نتجنب هذا النوع من الاضطهاد لأنه يبقينا سيئو مشاعر جميع الأحزاب التي تفرق مدن ميزاب⁴.

ويوجد بالإضافة إلى الإنذار السابق إنذار آخر وجهته قوات الاحتلال الفرنسية إلى بني ميزاب في صيغة التهديد كمقدمة للاحتلال وهذا نصه:
"الحمد لله وحده:

من طرف سعادة الوالي العام بالولاية الجزائرية إلى كافة أهل وادي ميزاب، السلام عليكم وبعد،

أيها القوم القاطنون بوادي ميزاب لما أذعنتم إلى طاعتنا استمسكتم بحاجتنا سنة 1853 كنّا وعندناكم ألا نتدخل عنكم بحمايتنا القوية المثبتة عند تردادكم في أغراضنا وإقامتكم بمدنيتنا فوفينا العهد معكم وإنكم اعتبرتم في جميع ما هو من المنافع الجزلة في تنظيماتنا المفيدة المنظمة وتصرفاتنا الناعمة المتحدة، أما أنتم في مقابلة ذلك الإحسان منا إليكم وإطلاقنا أزمة الأمير في أهاليكم وأفرادكم بفصلها حتى صرح

1 - سائر بني ميزاب
2 - من كان قاطن
3 - من كان قاطن

مستقلين بشؤونكم الخاصة على مقتضى نظركم كنتم عاهدتمونا بإدامة العاقبة في حضوركم واحتياكم ما تنأذى به مصالحنا وآرائنا السياسية إذا بكم لم تقوموا بتوايديكم حتى بقي وادي ميزاب في أتم الإهمال واستمرت بلاد ميزاب تعاني أشنع مصادكم، وإرهاق دماءكم في كل حين وأضحت قصوركم ملحا لأنواع الأشرار الذين نطالب بهم محاكمنا وأصبحت أسواقكم مفتحة لجميع اللصوص بالقلعة بل مدعوهم بأصاف الأدوات الحربية، كل ذلك منكم ونحن لم نقصر معكم في الإنذار الأكيد والصالح السليمة والتصرة المعنوية المفيدة فصائمتم عن الإصبات إلينا إما بمحض إرادة أو عدم استطاعة، فاليوم قد استغاث بنا جميع من منه ضرورة من قلة انتدابكم وسوء قيامكم فأتيانكم ليردكم من الحالة المضطربة إلى الحالة المنظمة الشاملة للهدوء والأطمئنان وإن رأيتونا مؤثريين لحل النواصة الرابطة بينكم وبين فرنسا منذ مدة، فذلك قصدا في تقريبكم منا وانضمامكم إلينا فما مرادنا إلا احترام عوائدكم المتواترة بحيث لا نوظف عليكم لا قاتلا ولا قاضيا من أبناء العرب بل نترككم على حسب ما توحه عوائدكم ومواقفكم وندعكم مرئطين بجماعتكم فيما يؤول إلى تصرفاتكم متعلقين بمشالحكم الإيجابية فيما يرجع إلى فصل نوازلكم وتكون معاضدين مؤكنين للحكم بحكم رؤسائكم محضين منفلين لأراء مشالحكم مهما حكموا بالعدل والإنصاف ولكننا لا نحمل كل من خرج عن الحد وحالف الموجبات مع الحكومة الجمهورية أو مع الرعايا بالتصرفات والقضاء بل نعاقبه حتى يكون عبوة لألي الألياب¹.

كتب في 01 نوفمبر سنة 1882 بأمر الواقع طابعه أعلاه دام عزه وعلا.

هذه رسالة الجنرال يوسف إلى الميرانيين بعد أن أظهروا مداونتهم للفرنسيين لا سيما حين قتلوا جاسوسا يهوديا تابعا للاستعلامات الفرنسية، واعتصموا عن إرسال وفد بشارك باسمهم في استقبال نابليون الثالث عند زيارته للجزائر، وكان العقيد "مرغريت" قائد منطقة الأغواط والصحراء المجاورة لها عندئذ قد أخرج عقوبات

على الميزابيين، ولكن الجنرال يوسف أشفق من تحمل مسؤولياتها وآثر أن يوجه
للميزابيين ذلك القائد مزودا بعقوبات أخف ومعهما الرسالة الآتي تعريبها.

"إلى جماعة بني ميزاب سلام، وبعد فلاني أبعث لزيارتكم العقيد "مرغريت"
الذي تعرفونه منذ أمد والذي يعرف ماذا يليق بكم وإني أبعث معه الرجل الذي
يتول حكم الأغواط ليراكم و... شؤونكم هذه هي رغبة المارشال "راندون"
الذي يهتم دائما بما يتصل بكم، فلا تغيير لشيء عما كان عليه إبان حكمه بالجزائر
وقائمتنا أن تعيشوا في سلام واطمئنان وثقة في تجاربكم تحت حماية فرنسا، إلا أن لي
الأونة الأخيرة حدثت منكم اضطرابات وعند قدوم جلالة الإمبراطور بقي ما كتب
إليكم دون جواب؛ يجب أن يسوى كل هذا فأنصتوا إلى العبارات التي سيتبعها
إليكم العقيد وسوف لا يكون إلا الخير والسلام".

وهذا نص الرسالة التي بعث بها أهل غرداية لمشايخ بني يسكن في شأن عقد
مصالحة بين الشعامية¹ وبين بني يزقن إثر الفتنة التي أوقدها بينهم عملاء الاستعمار
الفرنسي وطلائع الاحتلال:

"الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله،

حفظ الله ذات المكرم الأهل، محبتنا وصديقنا ومتوالتنا، وأعز الناس عندنا
الحاضر في قلوبنا الغائب من أعيننا القائم بأمر الزمان المكرم الفاضل الذي هو في
مؤلة الوالدين شيخنا الفاضل عبد العزيز والحاج إبراهيم بن عثمان، السلام عليكم
ورحمة الله وبركاته، أما بعد؛ فلما نسال عنكم وعن أحوالكم، فإذا سألتم عنا كما
نسال عنكم فترانا نحمد الله ونشكره وفي حكم لا تبدل ولا تحويل، أنتم منا وإلينا
وفي مؤلة والدينا وإخواننا، وليس عندنا سواكم إلا ربنا وأنتم، لكن يا نعم
الأحباب، الناس مقسمون لقسمين وأنتم قسمه أماننا وأحدادنا، والعدو يتسلط على
من يفرط في أحبابه، وعلى من يأكل اللب من رعيته.

1 - الشعامية أو الشعامة هي سكانية من بني

لكن يا نعم الأحباب، أماننا الشعامية، وجعلنا الخير بين الشعامية¹ وحول
أقربهم وعالمهم قادمون إليكم أولادنا ليحعلوا الخير بين الشعامية وبين يسكن أحسن
من الشر والناس كلهم ثبات على الخير والعافية وهذا ما عندنا أعلمناكم به وأنتم
من أهل الخير.

والسلام من الوائق الله.

هذه الوثائق التاريخية الثمينة نختم دراستنا عن الناحية التاريخية والسياسية
لميزاب من عهد الفتح إلى الاحتلال الفرنسي، وتقررد دراستنا المقبلة بالحديث عن
النظام الاجتماعي بوادي ميزاب².

1 - يقصد هنا ذات الشعامية.

2 - غاية المصحة الخامسة عشر، التي يتضمن فيها الأستاذ مقالاً تاريخياً عن تسمية الأحياء في الجزائر.

الخطيب، ومن لذلك حريصات على أن يترصد تلك المطاردة التي غير لمن أراد
من العناية فيها كثير من الإغراء وفيها أيضا كثير من التعصير عن سواج الأمن
والأحلام في أنفسهم وربما سواج الغبطة والألم أيضا فمن يكون حظه قد تأخر
عنها، وقد ترخص بعض الأسر وخاصة في بعض المدن فتتفل الأسرتان للتصاهر
على دعوة الخطبة والخطيب إلى منزل أحدهما في شبه حفل أو وليمة لتفعل لما
مناسبة بعيدة عن حقيقة الهدف، وبئس الخطيب بأن خطبته في نفس المنزل وبئس
حين تدفع نحوه في مهمة مقنعة أيضا كأن لحمل شيئا أو تأخذ شيئا من الغرفة التي
يكون فيها أو من غرفة مجاورة لا مناص للوصول إليها من المرور بباب الغرفة التي
يكون فيها، ومع ذلك فقلما يمر الخطيب على أن يرفض اختيار ذويه أو يبدى
عدم الترحيب به وذلك لأن الحياة كانت في ميزاب إلى سنوات الأخيرة فيما يتعلق
بالزواج والعلاقات الزوجية ميسورة هينة لا تعقيد فيها ولا التواء، فالمرأة سيدة
البيت لا رفيقة بمنزعه، وقصارى ما تراءى له ويراد منها أن تحسن إدارة بيتها طبقا
لأوامر زوجها، ولهذا كانت الأسر المتكافئة في مراكزها الاجتماعية قلما يعطها
التكافؤ في استعداد بناتها للشؤون الدولية، أما الجمال، فالميزابيون لا يهتمونه
ولكنهم أيضا لا يلاحظونه كأساس للاختيار، فأدى ما تكون عليه الفتاة صالحة لأن
لخطيب هي أن تكون مقبولة الشكل، وللميزابين عقيدة أو رأي يوشك أن يصبح
عقيدة، هي أن الزواج يؤثر في المرأة حتى يغير معالمها، ولذلك يقعون الفروج حين
يلاحظ في خطبته نزولا عن مستوى ما يرغب فيه من جمال، كما يقعونه
بأحاديث تروى عن الرسول عليه الصلاة والسلام، فيها تحريض على الزهد في
الجمال الصارخ والفتنة بلباس الدين، فإذا تمت الخطبة كانت مادة لأغاني واحدة
من الأسرتين والصليقات لها ومن يمدد تشجيعا من الأسرتين المتصاهرتين اللتين
ترى في ذلك ضمن الإشهار الذي أمر به الشرع ليبدأ الزواج من طابع الكتمان
حسب مفهوم العابد والاعتزال من أن كلا من الفتاة والفتن وحده حظه وبريء من
أن يحصل أو يبور. وبئس عند الميزابين حاتم الخطبة وأيتها عذبتهم قرط أو قرطان
لما يحق في الأذن، وكانت هذه العلامة في أول حياء الميزابين تمثل ما هم عليه من

النظام الاجتماعي بولاوي ميزاب

طقوس الزواج والمرأة الميزابية¹:

للخطبة عند الميزابين طقوس وتقاليد، فالخيار يتولاه الوالدان أو الأولياء أولا
وراعي فيه التكافؤ العائلي إلى جانب السلامة من المغامر² الخلقية والدينية في كلا
الطرفين، أما المركز المالي فقلما يلاحظ بصفة جدية من أحدهما. فإذا تمت
الاتصالات الأولى بين الأسرتين وأسفرت عن قبول مبدئي للخطبة أخبر الشاب
بأخبار والديه أو ولي أمره ووصفت له من اختبرت لتكون قربته في المستقبل،
وصفا دقيقا يشمل كل ما يمكن أن يرى من أجزاء جسمها كما يشمل جميع
النواحي التي تصل بكفاءة الفتاة الصناعية³ فيما يتعلق بشؤون البيت وحلقها وحلق
أهلها، وقد تسعى الوالدة أو القرينة لتهدأ الفرصة للشباب الخاطب كي يرى من
اختبرت له وقد لا يحتاج الأمر إلى ذلك فالفتيات ما لم يتزوجن ما يفتان غاديات
والنحات مكشحات ولكن التحافا لا يخفى وجوههن وأكفهن وبعض زينتهن التي لا
خرج أن يتحلفا ما دمن أفكارا وذلك ما يسهل للشباب أن يراها في بعض
الشوارع غادية أو رائحة أو أمام بيت إحدى أترافها اللاتي تعودت أن تخرج
معهن منذ بواكير الصبا ولا ريب أن الفتاة تخرج من أن يراها من اختبرت له،
وقد لا يكون حرجها إلا مصطعما وهي على كل حال حريصة على أن تتر بين
بنه كلما أبصرت منه شيئا أو أحست له ركزا، وأترافها يدركن بمرارة من أولاد
لم ترى الواحدة للأخرى من مشاهدتها ثانيا هذه المطاردة الخفية المحسنة بالحفرة بين

1 - بدلة الخطبة فتكون على الوجه في هذه المجتمعات وبها المرأة لا تلبس ثيابا أخرى
2 - فتاة غاديات وهي جمع لغوي
3 - فتاة الصناعية، فتاة اليد

حياتية، ومن حشائش مستطبة لها ومن مصنوعات بدائية كالأطباق والقفاز
المصنوعة من الخلفاء أو حريد التخل، وفي بيوت الميزابين يطبخن بضاعتهم للنساء
ويشترين بما أصبن من نقود شيئاً من الأقمشة والمواد الغذائية الواردة من مدن
الشمال، وقد يختصرون المعاملة فينادلن سلعاً يسلع على أساس المقايضة المباشرة،
وكنواً ما تستثمر المرأة الميزابية الألم المضني لما عليه تلك البدويات من خصاصة
تفتصل عليهن بعض ما عندها من غذاء وكساء، وبذلك أثصل نوع بنوع بين
المرأين البدوية والكرجة إلى الحضارة.

والمرأة الميزابية بفضل إصرافها في التدين تنفر من التصاري وأبداعهم فإن
أصرت نصرانياً من السواح في شارع من شوارع البلد دخلت أول بيت تلقاه
واستدبرته وانصقت بالحائط اشتزازاً وكراهة أن تبصر ظله، ولم تمر دون أن يتلقى
نصياً موفوراً من اللغات، وقد حاولت الأخوات البيض المبشرات أن يتصلن بالمرأة
الميزابية اتصال وداً، وأنعلن سبلهن إلى ذلك بتقديم خدمات طيبة بجانبة، ولكن
المرأة الميزابية ظلت نائرة من هؤلاء التصريات مبغضة لكل ما يأتي منهن، إنهن في
رأبها لا يأتين عملاً بريئاً من الكيد للإسلام والمسلمين!

القضايا الاجتماعية²:

يمكن لنا أن نقول أن الدين، والمذهبية، والعنصر، والموقع، هي الدعائم الأربعة
التي لمحض عليها المجتمع الميزابي، وقد سبق أن أشرنا إلى أثر المذهبية في تكوين
وتكيف الحياة الميزابية بصفة عامة، ومع أن المذهبية عند المسلمين كافة سواء منهم
من كانت أصول مذهبهم سياسية، أو جنسية عقائدية، أو فقهية إنما ينوعها الأول
الدين، وبجملها التشريع الإسلامي، فلما عند الخوارج وخاصة الإباضية، وعند
الشعبة أيضاً تمثل دعامة مستقلة ذات فعالية مستقلة باعتبار أنها من الحرية السياسية

1 - الحياة العامة والمذهبية في
2 - الحياة العامة والمذهبية في

حرف النظر عن مدى صلة هذه السياسة بالتشريع الديني، فيما يتصل بالأفراد أو
الجماعة، ولذلك اعتبرت المذهبية إحدى دعائم المجتمع الميزابي، ولنا حاجة إلى بيان
أن الدين يمثل عند الميزابين وكافة الإباضية وعند الشيعة أيضاً بصفة خاصة
الدستور العام لحياة المسلمين في أشتصاصهم ومجتمعهم، وهاتان الطائفتان الخوارج
والشيعة متازان عن سائر الطوائف الإسلامية في الإصرار على شمول هذا الاعتبار
للدين لجميع نواحي الحياة، حتى فيما يتصل منها بعلاقة الفرد مع الآخر، العلاقة
العادية التي يتطلبها التعايش والتساكن، وعلة هذا التميز، أو هذا الإصرار في
استحضار الدين في جميع شؤون الحياة، هي، أن علة الوجود الطائفي لهاتين
الطائفتين، إنما كانت التفسير الديني لنظام الحكم أو أسلوبه، كما أن مادة التطور
والاستمرار لهما إنما هي المحافظة على تطبيق مقتضيات هذا التفسير، تلك المحافظة
التي تقتضي أن تكون جميع تصرفاتها قائمة على استلزام الدين وقد ازدادت هذه
المحافظة تولفاً وشمولاً عند كليهما حين استحالتها إلى جمعيتين سريتين لعملاق
لتحقيق أهدافها على أساس التضامن الوثيق القائم بين الأفراد التابعين لكل واحدة
منهما وبالنسبة إلى الإباضية فقد تشكلت هذه الذرة في شكل ولاية الأشخاص
وبراءة الأشخاص، هذا القانون الذي يحصر العلاقة بين أتباع هذا المذهب في
التضامن الديني بينهما لا يمكن للفرد أن يأمن للفرد آخر إلا حين يطمئن إلى جامعة
الدين بينهما فحسب - بل جامعة الوفاء، وأيضاً لا الوفاء لتعاليم الدين باعتباره
ديناً فحسب بل لتعليم المذهب وأهدافه، وتلك هي الطبيعة التي تحاول كل جمعة
سرية ذات القانون اعتماد التشريع الميزابي والمشي، والجنسي والإداري - وما لا
يمكن التزام الحرفية منه من التشريع الحالي الإسلامي، فكان سلام حياة "العزابة"
لضمان استقرار الأوضاع العرفية والآداب الدينية وللمحافظة على الوحدة
الإقليمية، والروابط الحزبية.

تأديب المتعدين والشحوفين بإعلان الوفاء منهم وعلى هذه "الوادة" أو
بالأخرى هذا العقاب قام المجتمع الميزابي من ناحية التشريعية والعرفية، أما ناحية

الخطبة سواه منها الخائب المادي البحت، وجانب التقاليد، فأساسها ما ورثه
 الجرايون عن عناصرهم المختلفة: العرب والبربر، والفرس، كما سلفت الإشارة
 إليه، وما طعنهم عليه موقعهم القاسي الذي اقتضاهم، ولا يزال مواصلة الجهد
 الكادح النضى في سبيل إبقاء ميزاب على حضارة متطورة نامية، فالميزاب شعاع
 أي صلب عبيد، حريص على تقاليد أشد الحرص، مقدس لها أشد التقديس، وتلك
 بعض شيم البربر والعرب وهي إلى ذلك الشيم الغالية على كل ما كانت الدولة
 أدنى إليه، لأن الدولة تقتضيه أبدا حياة الغلاب، وحياة الاستعداد للغلاب، والميزاب
 كرم مضيق، معروف بالمساكين والفقراء، حريص على الكسب وكادح في سبيله،
 حريص على الادخار، يصير بطرق الكسب وأسباب التوفير، صبور مثابر، مره لا
 يمين لقسوة ولا يخضع للعراقيل والعقبات، وتلك آثار مغالبة القسوة والحلوة
 والحفاف، في أرض ميزاب ملعب العواصف والأعاصير، القائمة كما سلف أن
 ذكرنا على طبقة محصنة مسطحة الأفق لا يبت فيها تلقائيا وبدون عمل إنساني
 حاد إلا نبات ضئيل متوحش، ولا يكاد الإنسان يعثر على الماء فيها إلا بعد أن
 يخترق من أعماقها طبقات قد يجد فيها بعض اللبن، وقد تكون أكثها صحور
 صماء، وتلك حالة نبت في النفس الشعور بالعزة حين تغلب، والشعور بالرحمة
 والرافة حين يواجهها ضعف الآخرين، والشعور بقيمة الكرم والضيافة لأنهما قد
 حفظان على الضعف بعض ما واجهته به طبيعة الموقع من عناء، وكذلك اسم
 الخلق الميزابي بالعناء مع الطبيعة عناء يبلغ التحدي، والاستسلام لله استسلاما يرى
 أقصى حالات العزة في أقصى حالات التلذذ والخضوع، ولهذا كان، ولا يزال،
 يوحى له حين تجلوه به سلطة التوبة، وهنا ممكن السر فيها لا يزال لعقوبة
 التوبة من التوبة، وأولوية الأشخاص "وأولوية الأشخاص" أسس لا يعتمد عليه
 التشريع الميزابي فحسب ولكن تعتمد عليه وتلج القوي والضعف، فالميزابي بعيد
 عن القارعة، لا يكاد يمس إليه أحد ولا يعرف قدره إلا عرفه بفاحشة عروية
 أو شرعية حين يزل في التربة، التربة التي عليها البناء الذي عليه البناء عليه

حكما، ولذلك كان الميزابيون بطيئين جدا حتى في تطورهم الشكلي التعلق باللباس
 ومظاهر الوجه، فاللباس الأوربي لم يخترق الميزابي على ارتدائه حتى خارج مدن
 ميزاب إلا عند مناسبات، لأن التقاليد التي خلدت شيئا فشيئا صفة الاعتبار الديني
 تقضي أن يحتفظ الميزابي بما كان يرى من سمات ووقار من الملابس المفضضة
 البعيدة عن التحسيد، لأنباء على أن عناصر ميزاب الأولى لم تكن تتخذ هذا النوع
 من اللباس فحسب، بل على أن الرسول ﷺ، والصحابة التابعين، لم يعرف عنهم
 هذا الشكل، على أن موقف الميزابين من أمر الوجه أشد صلاة وعفا فقد لبوا
 وما يزال حتى المتقنون منهم إلى الآن يرون أن خلق اللحية من كياتر الإثم،
 وحجتهم في ذلك عن الوجه الشرعية ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
 من فعل وقول إن اختلقت معانيه فهو في أغلب معانيه متفق، على شيء عن خلق
 اللحية، ونعتقد أن التقاليد الموروثة أيضا أثر في هذا التشدد الصلب العيف، فلا
 تزال القبائل المحافظة من البربر العرب، وغيرها من الشعوب الشرقية وخاصة الهند
 شديدة الاحتفاظ، بل والاعتزاز باللحية لا سيما حين تكون من الكثافة والانتظام
 بحيث تغطي على الوجه دوما من الجلال والجمال، "الكلاسيكي"، ومن قانون
 ولاية الأشخاص وبراعة الأشخاص نشأ وتركز في نفوس الميزابين خلق الامتنان أو
 الطاعة الحريية، حتى أصبحت فيهم ظاهرة ترقى عن مستوى الظواهر الاجتماعية
 العامة إلى مستوى الطقوس التعبدية، فذلك أن الميزابي ذرب على أن يستطيل ألبا -
 وشيا فشيئا - بشكل لا شعوري أوامر "العزابة" لا على أنها تشريعات تنظيمية
 مدنية، بل على أنها استبطانات من التشريع السماوي المقدس وذلك الخلد تعاليم
 المذهب حتى فيما يتصل منها بالمحافظة على كيان أو الطابع المذهبي أو الإقليمي،
 صفة التعاليم الدينية وهذا الخلق هو الدعامة التي تقص عليها نظام التعايش بين
 المتساكين في ميزاب على تفاوت أصنافهم ومراكزهم الاجتماعية، فهما يبلغ
 الميزابي من الثروة والجاه أو العلم، فلن يستطيع أن يعامل من يكرهه سوا وإن يصعد

أعوان غالباً إلا على أساس التوقير والإجلال، لأن العرف الميزابي يدرج على أساس
 المسؤوليات المختلفة من مسؤوليات إدارة العشرة إلى مسؤوليات السيطرة
 التقليدية الدينية والمدنية إلى من تقدمت به السن شيئاً ما اعتماداً على أن هؤلاء
 يكونون دائماً أوفر تحارب وأكثر حنكة ودراية، وأنفذ بصيرة، وأحصل رأي
 وحسن في الفلاسفة، الدين، والمدني، تنحصر المناقشة غالباً بين الأكبر سناً من
 الأعضاء إذ نجد الأعضاء الأصغر سناً كثيراً من الحرج في مواجهة شيوخهم
 المناقشة، وفي حلقات الدين نفسها يلجأ الطالب حين يشبه عليه أمر، أو يحتاج
 فيه إلى مزيد من التوضيح أن يصوغ ما يترأى له في شكل سؤال الذي يتقدم به إلى
 أستاذه في كثير من الحفل والارتماج وظاهرة أخرى قد تكون هذه القاعدة أعلى
 فيها وأوضح هي ظاهرة الخضوع الذي ظل اجتماعياً إلى عهد قريب لتشريعات
 وضعت منذ حوالي ثلاثة قرون استجابة لمقتضيات ظروف ذلك العهد وكان
 تركيزها وإقرارها بالتحرج الديني إذ ذاك كالتشريعات المتعلقة بعدد تبعية المرأة
 لتكون عرضة لما يحكم على قواهم بين ميزاب ومدن الشمال الجزائري، الصراع
 الميزابين الطريق المحرمين أحياناً، ومع القبائل البدوية المقيمة على حالة حرب مع
 يومئذ في الصحراء يلتزمون الحدود الدينية في حرم المسلمين فأصدرت تلك الفينة
 قانوناً يمنع المذبحين من السفر بعائلاتهم، ومنع النسوة من طاعة أزواجهن إلى
 زوجة على العروة لها إلى الوطن بكل وسيلة وواضح أن هذا تدخل غير مستساغ
 في العلاقات العادية في العلاقات الزوجية، وما ينبغي أن تقوم عليه من استقلال
 وحرية في نطاق الحدود الدينية، ولكن التاريخ مع ذلك خضعوا لهذا التشريع سواء
 كان ذلك نتيجة منهم لموتهم والحيث لم توجد توفيق للتكامل المسؤول والخطوع
 الذي يفسد الطموح الميزابي الذي يفتقد الطموح الميزابي أيضاً أثر غير يسير.

في تركيز هذا التشريع فالملاحظ أن المناطق التي لا تزال محتفظة بتقاليدها من مواطن
 ليوبر سواء منهم بربر النجاد العليا، وبربر الشمال، وأن بعض المناطق العربية، أو
 التي يلبس العصر العربي على سكانها، والتي تمتاز بنوع من التقاليد الخاصة لا يزال
 يسودها عرف على قرار هذا التشريع فخرج المرأة منها أمر مستكره أو محظور،
 على أن هذا التشريع عند الميزابين لم يكن خاصاً بإخراج المرأة من ميزاب إلى
 خارجه فقط بل شمل أيضاً وضع قيود محرجة للخروج بالمرأة من مدينة إلى أخرى
 من مدن ميزاب وذلك نتيجة لحالات كانت تسود العلاقات بين تلك المدن في
 الظروف التي وضع فيها هذا التشريع بحيث رسمتها بصمة عدم الانسجام وربما
 بلغت العلاقة بينهما إلى مستوى الجفاء، وفي هذا تعليل ظاهر للبائع على هذا
 التشريع بأنه لم يكن إلا سياسياً صرفاً، وواضح أن الميزابي الذي خضع لأمثال هذه
 التشريعات لأن الصيغة الدينية أضفت عليها، وطاعة لخلق التوقير والخضوع الحزبي
 أولي بأن يخضع لما هو من صميم الدين، سواء كان تشريعه بالنص، أو الاستبطان،
 ولذلك، ظل الميزابي إلى عهد قريب من أشد الناس تحرجاً من اغترامات حتى ما كان
 منها من صفائر الإثم أو مما اختلف لعلماء فيه كراهة أو تحريماً، وظلت مدن ميزاب
 باستثناء "غرداية" تشبه إلى حد كبير بعض المدن التي يقدمها أتباع الأديان الأخرى،
 فيع الحمر فيها محظور حتى للأحباب وكذلك النذحيين والتبجح بما لا يتفق والوقار
 الديني، كالكفاظ المصون أو السياب، خاصة منها ما ينال من هبة الدين وقداسته،
 وقد احتفظ الميزابي على هذا الطابع حتى خارج ميزاب وإن كانت المحالطة
 والمعايشة قد دفعت بحجاب من التحارب خارج ميزاب إلى المرأة على اقتراح بعض
 هذه المحظورات، بيد أن هؤلاء لا يزالون يحاولون الاستخفاء حين يقتربون شيئاً
 منها، وقد بلغ التحرج في ميزاب من كل ما يتنافى مع الوقار الديني إلى حد أنهم
 تخرجوا حتى من الموسيقى على الرغم من أن العلامة الحليل ابن أحمد رحمه الله
 أحد الأدباء المشهورين إلى الإباحة في العصر الأول المحسري كان أول من حاول

يسيطر فمقاعد الموسيقى العربية، وواضح أن هذا التفرج السرف كانت له آثاره
مرحبة في تكوين اللوح الميزابي بالنسبة إلى بعض النواحي الروحية، لكن خسوف
هذه تضاعف إذا وزلت بمكاسبهم الخلقية التي حفظت مجتمعهم من مقامه من
أمرها عادة التطور الحضاري.

ولقد لبثت غرداية محتفظة بهذا الطابع كسائر مدن ميزاب حتى احتلها
الفرنسيون عند إعلان احتلال ميزاب مركزاً لإدارتهم وابتنوا فيها ثكنة عسكرية.
وعندئذ أحيوت على أن تقبل بناء مخارات خارجها بحجة أن الفرنسيين وجنودهم
لا يستطيعون التحلي عن عادتهم ولا تزال غرداية إلى الآن تحرص كل الحرص على
أن تسلم دواخلها من هذه الآفات وإن كان التطور قد وصلها بالبور الفرنسية،
على أن التشريع قد عاد رغم قسوته بتلك القسوة نفسها بفوائد اقتصادية على
الميزابيين، ذلك بأنه عني بالحد من بعض تصرفاتهم العامة والخاصة حتى لا تكون
فرصة لسباق الترفين، ومظهراً للتباين الطبقي بين السكان ومن ذلك تحديد المهور
ونفقات حفلات الزواج والمآتم وبعض الحفلات الاجتماعية في المواسم والأعياد
الإسلامية، وبفضل هذا التحديد ظل الزواج ميسوراً لسيا إذا قورن ببعض المناظر
التي ترك فيها مجالاً للتظاهر بالثراء والمفاخر بين الأسر والتزايد بين الخطباء².

نظام الأسرة الميزابية³

الأسرة الميزابية وحدها قائمة بذاتها، تتمتع بمطلق السيطرة والسلطان في حدود
نظم المدينة وتشريعها، فهي تتدنى من العائلة حيث يسطر الكبر في السن جلاله
ووقاره ونفوذه عليها، ثم تأتي العشيرة التي تشبه الخلية في الأحزاب حيث يجتمع
عدد من أفراد الحي لهم سلطة ومسؤولية في كامل الحي⁴، وبعد ذلك تأتي الجماعة

1 - لا زالت قلعة في واديها ولا تزال حركت في حركتها كبقية المدن الفرنسية.
2 - هذه هي الجماعة الميزابية.
3 - هذه هي الأسرة الميزابية.
4 - في الحقيقة أن هذه الجماعة الميزابية هي التي تتدنى من العائلة حيث يسطر الكبر في السن جلاله ووقاره ونفوذه عليها، ثم تأتي العشيرة التي تشبه الخلية في الأحزاب حيث يجتمع عدد من أفراد الحي لهم سلطة ومسؤولية في كامل الحي، وبعد ذلك تأتي الجماعة.

1 - هذه هي الجماعة الميزابية.
2 - هذه هي الأسرة الميزابية.
3 - في الحقيقة أن هذه الجماعة الميزابية هي التي تتدنى من العائلة حيث يسطر الكبر في السن جلاله ووقاره ونفوذه عليها، ثم تأتي العشيرة التي تشبه الخلية في الأحزاب حيث يجتمع عدد من أفراد الحي لهم سلطة ومسؤولية في كامل الحي، وبعد ذلك تأتي الجماعة.

وهي مجموع العشائر ومجلس يشبه المجلس البلدي في كثير من الاختصاصات، غير
أن هذه النظم والتشكيلات في ميزاب تمتاز بطابع التعاون والألفة العائلية سواء فيما
بين الأسرة والعشيرة أو الجماعة في المدينة الواحدة أو فيما بينها في مدن ميزاب
بأجمع، هذه مقدمات للحديث عن الأسرة الميزابية والآن نبحث عن نظمها
بالتفصيل.

كبر الأسرة موقر أثر في أسرته، فإذا دخل المنزل اسدل معه على ذلك المنزل
وقاراً وجلالاً، وهو ليس بفظ غليظ، بل يحاول أبداً أن يضفي ظلال المرح
والسرور على محضره ولكنه مع ذلك لا يسرف في المياسطة والمداعبة إبقاءً على ما
يعني أن يكون بين الكبار والصغار من سجاج الوفاق. وقد كانت الإذاعة متنوعة
في المنازل الميزابية إلى عهد قريب، وكانت الحياة الدينية تعلن الرواة فمن يدخل
جهازاً إذاعياً أو حاكياً لأن هذه الأجهزة تغل فيما تغل الموسيقى والأغاني، وتلك
خليفة بأن ترفع سجاج الوفاق بين الأسرة وصغارها، بيد أن هذا الخضم قد قضى
عليه تيار الحضارة فعمرت الأحياء البيوت ولم يعد كبر العزاة يتفرج من
مسامرة ذويه كباراً وصغاراً على أنغام الموسيقى ما لم تنزل إلى الإسفاف، ولمدر ما
يشتمع عميد الأسرة من سلطان في منزله، يستشعر الطاعة والخضوع أمام رؤساء
عشيرته حتى وإن لم يكن منهم، فمجلس العشيرة له في نفوس الجميع إلى عهد
قريب، قداسة وحلال.

وفي هذا المجلس تتمثل جامعة الأسر التي تألفت منها العشيرة وتتخصص
السلطة التنفيذية لكل وحدة من وحدات المدينة التي تسمى "العشائر" وتتكاد
العشيرة عند الميزابيين تمثل جامعة الخلايا التي تشبه من عدة نواحي الخلية في النظم
الحريّة، وعلى الرغم من أن كثيراً من الأوضاع العرفية في ميزاب قد أصبحت أمام

1 - هذه هي الجماعة الميزابية.
2 - هذه هي الأسرة الميزابية.
3 - في الحقيقة أن هذه الجماعة الميزابية هي التي تتدنى من العائلة حيث يسطر الكبر في السن جلاله ووقاره ونفوذه عليها، ثم تأتي العشيرة التي تشبه الخلية في الأحزاب حيث يجتمع عدد من أفراد الحي لهم سلطة ومسؤولية في كامل الحي، وبعد ذلك تأتي الجماعة.

التصنيفات العقلية الحضرية، فإن نظام العشائر لا يزال يحتفظ بقيّة من هيئته وإن
تكر هذه الهيئة تضاعفت كثيراً.

والعشيرة تمثل في المجتمع الميزابي وحدة اجتماعية مهمتها إقرار التفكير
الاجتماعي بين أفرادها، فعلية لأن تأخذ بيد الضال وتكبح جماح الشحوف، وتب
من شدة التمرد بكافة الوسائل بما في ذلك الحلد والتقي، وعليها أيضاً أن تقوم
بشؤون العمل للعاطلين والمعاش للعجائز وبمحاكمة من يعتدي عليه من أبنائها، وفوق
ذلك كلّها تمثل وحدة انتخابية تقوم مقام الدائرة البلدية فهي التي تنتخب من بين
أفرادها نائباً عنها في مجلس الجماعة القائم بأعمال المجلس البلدي إلى الآن، ثم هي
تصطلع بمسؤوليات تشمل بشؤون القضاء، فهي التي تكفل الشيم، وتعلن المحرم
على الشيم والمخون، وتعين لليتامي الذين لوحي هم آباؤهم وكيلاً يقوم بحفظ
أموالهم تحت رقابته، وهي بذلك تتحمل معه المسؤولية بطريق التضامن، وكان
للعشيرة مجلس يجتمع كلّما دعت الضرورة إلى ذلك يشبه في معظم نواحيه مجالس
القبائل البدوية، ولكن هذا المجلس قد بدأ يتضاءل كيانه ويضطرب، فلم يعد هنالك
أفراد معينون يتألف منهم بل أصبح في بعض الأحيان يجتمع كلّ من يتفق أن يكون
في المدينة عند الحاجة إلى عقده من كهول وشيوخ وربما الشباب ذوي
الشخصيات أيضاً والقاعدة الوحيدة التي لا يزال يحتفظ بها هي القاعدة العددية فلا
يعزم مجلس العشيرة منعقداً إذا نقص المجتمعون عن الستة، وفي الغالب تتخذ العشيرة
نادياً لها تجتمع فيه وتستضيف فيه من يزل عليها من ذوي المقامات ويسمى "دار
العشيرة".

وكان مجلس العشيرة هو الذي يتولى اختيار من يمثل عشيرته في الجماعة
البلدية، وهذا الاختيار لم يخلص إلى التعيين ولا إلى الانتخاب، فهو وسط بين هذا
وذلك، إذا كان الكبار المؤثرون في المجلس يتفقون فيما بينهم على الشخص المراد
اختياره، وعلى الضعفاء أن يعلنوا موافقتهم، وهذا الاختيار أصبح أحياناً غير مقصور

على هذا المجلس بل حقاً من حقوق العشيرة كلّها حين تمّ القبول للطريقة
الانتخابية، فكلّ من يملك حق الانتخاب من أفراد العشيرة يذلل بصوته إذا كان
حاضراً في المدينة عند إجراء الانتخابات، ولم يعد هناك مرشح واحد إذ لم يعد
كبار مجلس العشيرة يتمتعون بذلك التفويض الذي كان لهم سابقاً، فقد يترشح
أكثر من واحد تبعاً للمبادئ والتزعات التي أخذت تتسرّب إلى ميزاب شيئاً فشيئاً
لتراحم ورتبها لترشح الاعتراف المذهبي المجرّد للسياسة، وعلى الأساس أمكن التفرع
الواقعي لحق المواطنة¹ للقبائل غير الإباضية² الساكنة في بعض قرى ميزاب، فأصبح
نائبها يملك نفس الحقوق والواجبات التي كانت إلى عهد قريب من اختصاص
النواب الميزابيين الإباضيين ونتيجة لذلك أصبح أفراد هذه القبائل أنفسهم لا
يختلفون في اعتبارات المسؤوليات والحقوق عن ممثليهم³ الإباضية، وكذلك
تقدّمت العلاقات بين الطرفين، فأصبحت تقوم على نوع من الاندماج السياسي
التفريقي دون أن تمسّ بالمعتقدات الدينية الخالصة، أو بما قد يكون بينها من التمايز في
بعض العقائد والتقاليد.

والجماعات البلدية في ميزاب أو جماعة "الضمان"⁴ كما لا تزال تسمى، في
وصفها الحالي تنتخب كلّ ثلاث سنوات، وكانت تملك حق التصرف المطلق في
كلّ مدينتها وجميعاً فيما يتصل بالمصالح المشتركة لمدين ميزاب، في إدارة ونشر ما
يمكن أن تسميه بـ "الشؤون المدنية" الصرفة بما في ذلك ما يعرف بخصائص المجلس
البلدي، وخصائص المجلس المالي وبعض خصائص المجلس العمالي، وبعض ما تقوم
به الإدارات أو الوزارات، المختصة بشؤون الصحة والأشغال العامة، والزراعة،
وشؤون الأمن أو الداخلية، وشؤون الإنشاء والتعمير على أنها حتى في هذه

1 - المواطنة في ميزاب أي حق الانتخاب إلى هذه الجماعة من أي فرد من أفرادها.
2 - القبائل الأمازيغية التي كانت تسكن على الحدود مع القبائل الإباضية، وكان لها حق الانتخاب في هذه الجماعة.
3 - مجلس ميزاب في حوزة ميزاب.
4 - أي الجماعة، وتسمى هذه الجماعة في كل من ميزاب وميزابية، حيث كانت تسمى في السابق بـ "الضمان" وهي التي كانت تسمى في السابق بـ "الضمان".

الاختصاصات كانت تخضع للحياة الدينية وتعاليمها إذا رأت هذه الحياة أن من المصلحة أن تتدخل في شيء من تلك الاختصاصات، ولذلك كان من المتواطئ عليه عرفاً بشكل يشبه العرف "البريطاني" القائم مقام الدستور أن اجتماع الميثاق في المدينة الواحدة للتشاور إذا حدث أمر له خطر ممتاز، كأن تهدد المدينة أو مد ميراب بحرب خارجية، أو فتنة داخلية، أو يحدث في مدن الشمال الجزائري أمر يفضي من قريب أو بعيد بطبيعة العلاقات بين ميراب ومراكز الحكم، أو يعرض أوضاعه في كافة القطر.

وحزبة الجماعة المدنية، أو ميزانيتها، تتكون من ضرائب قارة لا تختلف في شكلها كثيراً عن الضرائب البلدية الآن، ومن ضرائب استثنائية وقتية، تقرها الجماعة إذا استحدثت في المدينة أمر يستلزم نفقات إضافية كإعمال عمالية أو إصلاح شوارع الرمي، أو تشييد سد جديد، وما إلى ذلك. وكثيراً ما تكون الضريبة بدنية كدعوة السكان مجتمعين أو أفراداً للقيام بعمل ما، كمقاومة الحراد عند غرو، أو ترميم أحد السدود حين يجرى السيل جانباً منه، فيهدد الفيضان المدينة، أو يخشى أن تتفجع الأبار بمياه، يستحيل عندئذ تخريبها.

أما الآن فقد أخذت الإدارة الفرنسية تختص اختصاصات هذه الجماعة وتضيق منها بحيث لم يبق لها مثلاً من التصرف في الشؤون الصحية العامة سوى الإشراف على تنظيم النظافة العامة للمدينة ونواحيها، تنظيف الطرقات وتحميل أبواب الضريبة، ثم المباشر، كالشهر على عدم اجتماع القافورات في الحارز، وتجميع ذلك فقد التزعت الإدارة الفرنسية ووكّلت معظمه لجنة أُنشئت من موظفين فرنسيين وأعمال تسمى "لجنة البلدية" وأعمال هذه الجماعة وقراراتها يتولى تنفيذها عمالاً الحراد ما بين ثلاثة وخمسة تختلف ألقابهم باختلاف المدن الميزانية، ولكن

1 - الميزانية العامة
2 - الميزانية الخاصة

وظائفهم متفرقة في أنها تنفذ ما تراه الجماعة في اجتماعاتها ضرورية تصدق وليس للجماعة مواعيد معينة لاجتماعها فهي أجمع كلما دعت الحاجة، وكان رئيسها يلقب قبل الاحتلال بـ "القائد" ثم تدخل الاحتلال في هذا الأمر إلى آخر معظم الجماعات الميزانية على تغير رؤسائها "القواد" الذين كانوا قد تولوا كبر المقاومة بعينها حيناً، أو القائمة على المزاولة والتجارة حيناً آخر، فآخرون من ذوي النعم الحرة الذين استطاع أن يصطحبهم عندما كان إشرافه على ميراب من مدن الأغواط، وكانوا وسائله إلى تنفيذ مواعيد الميثاق إليها بشيء من التفصيل عند الحديث على ميراب في عهد الاحتلال الفرنسي على أن هؤلاء القواد كانوا يجمعون بين رئاسة الجماعات باختيارهم أعضاء منها وبين تعيين الحكوميين الذي كان يتولى طريقة إغراء أعضاء الجماعات والقطع عليهم إلى عهد فرنسا. لم أصبحوا أمراء موظفين ومعينين يتقاضون مرتباً من الإدارة على حين بقي لهم حق رئاسة مجلس الجماعات حين يحضرونها، وذلك بعد أن أُنشئت الحكومة في "التراب" لغير اختصاصات هذه الجماعات، وفي إمداد ميثاق استطاع أن تعتمد عليها في اختيار موظفيها القواد. وكذلك أصبح رئيس الجماعة يلقب بـ "الطيف" أي الذي يملك القائد عند غيبته أو عجزه مؤقتاً عن القيام بوظيفته، وعند وفاته إلى حين تعيين الإدارة خلفاً له¹.

الاقتصاد الاجتماعي بوادي ميراب²

أسواق ميراب:

يكون سكان ميراب بطرق حلقهم للشاي، واستعدادهم للخضرة كثرة اقتصادية متكاملة ويتفرع الاقتصاد ميراب إلى اقتصاد حلي، واقتصاد حراج ميراب،

1 - لجنة الميثاق العامة
2 - لجنة الميثاق الخاصة
3 - لجنة الميثاق الخاصة
4 - لجنة الميثاق الخاصة
5 - لجنة الميثاق الخاصة
6 - لجنة الميثاق الخاصة
7 - لجنة الميثاق الخاصة
8 - لجنة الميثاق الخاصة
9 - لجنة الميثاق الخاصة
10 - لجنة الميثاق الخاصة

أما الاقتصاد المحلي في إنعاشه وإثراء سوقه عناصر مختلفة من السكان، فالبدو وأنصاف البدو وفي طلباتهم الشعمية يُمَوِّلون المقيمين بالمدن بما يملكونه من لحوم وأصواف وحطب وحجارة للبناء وحس، وأما العرب المقيمون فهم يَصْرِفُونَ إلى صناعة الحر ويقومون بأعمال البناء ويشغلون كمعينين في جميع المهن، وفلاحين في الواحات، بينما يشتغل الميزابيون بأنواع التجارة ويوزعون البدو تصبغ ما يحتاجونه من ملح بطريق التبادل، ويتفننون في ترويض المصنوعات المحلية كالزواني والسوحات على الإطلاق، وهم إلى جانب ذلك فلاحون مقننون، والمخدنة، ومنهم الحزازون والقصابون، وينفرد اليهود بصناعة المحلي، من ذهب وفضة، والنقش على الصواني النحاسية، وترويض المشروب المخدرة، وأعمال السحر.

أما القبائل المجاورة لميزاب كالأرباع بالأغواط وأولاد نايل بالجلقة وأولاد يعقوب بأفلو فتساهم في الحركة الاقتصادية المحلية وخاصة أثناء فصل الشتاء بما تستورده لميزاب من لحوم وأصواف وأوبار، وسمن، وبما تستحلبه من الأوساط الحضرية، فانت ترى أن ميزاب كبقية نقاط الجنوب تقريباً يركز اقتصاده على نظام المبادلة بين البدو والحضر.

لقد كان البدو قبل أن تعود المواصلات تسير في طرق آمنة يفرضون شروطاً خاصة في مبادلاتهم على المقيمين، وقد تغير هذا النوع من الاختصاص بصفة عسوسة بعد أن صار المقيمون يفضل نشاطهم وذكائهم وبما يتمتعون به من أمن وتصرفون في قسم عظيم من اقتصاد البدو ويتسلطون على حل مناطق نشاطهم وهكذا أصبح المقيمون يزعمون البدو شيئاً فشيئاً، إلى أن جاءت السيارة فأنت على آخر مطافة للبدو الذي عاد يعيش يائساً ويظهر بمظهر الزبون لا بمظهر المغامر التجاري وهذه المصارفات التجارية تقع في أسواق بلدان ميزاب وقد كانت تلك المدن تزدحم والتنافس والحاول لكن منها أن أغلب إليها أكثر عند تمكن من التجارة،

ولقد تغيرت هذه الحال في الأيام الأخيرة¹ ولئن كانت الأسواق كلها تعقد يومياً فقد عاد البعض منها لا يصلح لغير ثوبين المدينة بالحطب والقطعان، وانحصرت الحركة الاقتصادية في غرداية وفيها أعظم الأسواق الأسبوعية إذ تجلب إليها أكبر قسم من المبادلات، واختص سوق بني يزقن بترويض الصناعة المحلية ذات الطابع الخاص.

وفي محيط دائرة ميزاب، توجد بلدة بريان وبلدة القراة وهما مملكان سوقين فثوبين تسير نحو النمو، وذلك بفضل موقعها المزدوي.

الفلاحة بميزاب:

ما كان للباحث الحريص على استيفاء المعلومات الدقيقة أن يتكلم عن الفلاحة بوادي ميزاب قبل أن يقف وقفة فاحصة عن مركبات الأرض وصحف الجبال وحالة الطقس والأمطار فالأراضي المخصصة لها أهمية أفقية بحيث ألها مكب قارة في أماكنها بعيدة عن التحولات المحلية منذ تكوينها، على حط الطول الأوسط الذي يساوي 500 متراً (غرداية 526) فهي في الحملة أرض منبسطة إلا أن مفعول مياه الأمطار وتأثيرات الطقس الصحراوي جعل منها حملة من الاصطدامات للصطعة، أصبح سير المواصلات بينها وبين المدن الأخرى عسيراً جداً، وبهين على ميزاب طقس صحراوي بسبب موقعها، فالسهل² ذو صخور قد ترك مفعول المياه عليه نقوشاً وهو حال من الأحواض الطيبة التي تتجمع فيها المياه فتسرب رواسبها نحو المشرق أو المغرب.

ولا تستطيع أن تقوم بهذه المهمة أوديتها التي هي من النوع الصحراوي الخضر كوادى ميزاب ووادي متليلي، ووادي سيب، ووادي السناء ويشد عن هذا الوضع

1 - تواريخ المصنوعات وصادات المنتجات من طرف المصنوعين
2 - سهل وادي ميزاب

والتي وفور الذي ينحدر من نواحي الأغواط ويشق طريقه في مضايق متكررة
ولذلك فهو يعمل واحة القرارة في نحوحة ونعم¹.

والأمطار تول من مرافق حوتة علوتها يعادل 67 متراً، على شاكلة أمطار
مرعدة في فصل الخريف والربيع، وقد تم على ميزاب سنوات حذب بنسبة 30
مليئراً (في سنة 1944 مثلاً) وأخرى منطرة تصل إلى مقياس 159 مليئراً (كسنة
1951) ربما أن العرض الاستوائي عشيل وارتفاع ميزاب عن مستوى البحر
متوسط² فدرجة الحرارة ترتفع في الصيف أحياناً إلى حدتها الأقصى وهو 50
درجة. ونخص درجة الود بنسبة قليلة في الشتاء فتكون حدتها الأدنى (10)
درجة ولا يزل الجليد إلا نادراً ولا أهمية له، ولتغيرات الطقس الشهيرة أهمية سواء
كانت في الشتاء أو الصيف نظراً للحفاف التي يتم الذي يعم الجو، ونفس السب
من الجنوب الغربي، وتكثر هذه الرياح بصفة دورية ربيع السوموم³ الآتية
وفواتح الربيع، وأند عرف ميزاب من سنة 1934 إلى سنة 1939 سنوات فاحلة
عجيلة قضت على عشرات الآلاف من التحيل ووقفت سحر متوجحات الزراعات
الأخرى، واحتت كل الزراعات التي تألف الحلب كذلك فانتصرت المياه في
بعض الآبار القليلة، فوادي ميزاب وهو وادي مسجلوي كما أسلفنا من شأنه أن
يقضي سطوح السواقي التي مكنت بعدما حلت مياه النهر، ولا يوجد في مقياس
العرض بحدلية مقداراً معيناً لدول الأمطار إنما هنالك رعود ليس إلا، وأما واحات
بركان والقرارة فهي أكثر غزارة من واحات الشككة⁴ عامة فهي تقوم على أسس
حديثة نصبت على الأودية الشمالية، ولا يوجد صبح للماء بميزاب لذلك وجب

1 - في هذه الحالة من جبال السواقي التي من وراءها تقع واحة القرارة والواحات المحيطة بها.
2 - في سنة 1944 مثلاً.
3 - السوموم هو الريح التي تهب من الجنوب الغربي.
4 - الشككة هي الود التي تسمى بالواحات الشمالية.

من السكان أن يردوا الماء من السطوح¹ الآتية الذكر المتراوح عمقها بين 40 و50
متراً أثناء الحفاف لذلك لا تروى من الغريب أن تأتي فصول من الحفاف لا مثيل لها
في وظائفها وأن ينحدر عنها اضمحلال الغلاف السطحي الباقي للأرض ذلك
الغلاف الذي وفق إلى نكوبته ثم إلى نصبه بنشاط وبراعة خارجان عن الطاقة
العادية.

ويظهر هذا النظام وتلك البراعة من خلال نظام يلفت الأنظار وهو نظام
حصر مياه الواحات بميزاب، فالسطح الذي كان إلى زمن غير بعيد - المورود
الوحيد - أصبحت تستغله اليوم الآلاف من الآبار التي تنخر سطح الأراضي القابلة
للزراعة، فليست حاصية البئر في أهميته إنما في طريقة استعماله، فالمياه لا تعرف من
الآبار بعمل الإنسان مباشرة بل تعرف بمساهمة كبيرة بواسطة الحيوانات مثل
الأحمر والبغال والجمال² التي تنقل حسب حركة آلية معينة ذهاباً وإياباً عرض
مساحة منحدرية تحت قيادة حارس ماء. وأما أدوات الغرف فهي تتركب من "دلو"
صنع من جلد المعر على شاكلة القمع وطرفه الأسفل - أي ذراعه - ليست بأبنة
وهناك حبل يجري على عجلة "حرارة" معلقة بصعود البئر الذي يعلو الأرض بتر
ونصف تقريباً، وهذا الحبل مشدود إلى الحافة العليا من هذا القمع، ثم هناك حبل
آخر مشدود إلى الحافة السفلى من القمع وهو الذي يحافظ على مسك الذراع أثناء
عملية الصعود والدول، ولقد صنع هذا المصموم بصفة هندسية خاصة دقيقة حتى
يسمح للدلو أن يجذب الذراع بفضل الحبل عند ابتعاد الدلو عن البئر فيقع على
الخوض وهناك يمكن للماء أن ينفلت، ولقد كان هذا الأسلوب مستعملاً منذ
1000 سنة ومازال مستعملاً إلى الآن³ فالحركة الأوتوماتيكية المركبة لحر اقتصاداً في
الجهد الأدبي الذي من دونه لما خلقت ولا زدهرت هذه الواحات، غير أن علم

1 - مطرح الماء المثلج.
2 - ومن هذا بأن البنية التي تسمى بالدلو هي التي تسمى بالدلو في بعض الأماكن.
3 - في بعض الأماكن تسمى بالدلو في بعض الأماكن.

حصر المياه عند الميزابين يمكن إدراكه من خلال الأسلوب المستعمل عندهم لفريق مياه الفيضانات، ويجري الوادي على النفوذ إلى الأرض لتكوين الطبقة السفلى منها بقاء وللوصول إلى هذه الغاية فهم يستقون ساقية الوادي متى وجب ذلك بحجارة عظيمة وفي أكثر الأحيان بحجارة مبنية تكون منها سدوداً، ومن بين هذه السدود بل التي بليت فيها أعمال حجارة¹، ففي القرارة مثلاً نجد وادي "زفرير" يتجه نحو الواحة بفضل ارتفاع في الأرض يمتد إلى 2 كلم طولاً و 3 أمتار عرضاً.



التجويد الميزابي في أحياء الأرض:

في هذه الرقعة الفاحشة من الأرض قام الميزابيون بخدعات ذات قرن بسيط في ذاته إلا أنه يدل على عبقرية حارقة.. وتسمح هذه الخدعات للمياه إذا تراكمت وتغصت الأرض على كمية منها كافية، بالانقلاب نحو واحة "العطف" التي يقوم لها سد بحصر المياه وتوجيهها على الدخول في الأرض طوله 500 متراً بحكم البناء والى سبي يزل ذات الأرض الواسعة القابلة للزلاحة سداً يمتد إلى 200 متراً طولاً و

لأن ارتفاعاً بفضله عادت المياه تجري نحو البساتين حتماً وذلك ابتداءً من الناحية العليا للوحدات بواسطة ميازيب¹ تنقسم فيما بعد إلى تقسيمات ثانوية، فكل بستان يصل بماء الفيضان وبالرواسب التي تأتي بها المياه وذلك بفضل ثقب² معينة لا تتجاوز مقياساً معيناً.

وهذه الضفة تضاعفت مساحة رشح المياه مئات والآلاف، وإن كانت هذه
الساكنات غير هامة. وذلك ما تصادفه غالباً في ضياع كميات المياه خلال
الوحدات أو وراء السدود لأن السد الأول الرئيسي منى ضاى عن احتواء كل المياه
تسربت إلى الثاني ثم إلى الثالث ثم إلى الرابع وهذا الأخير هو الذي يوقفها ويحوي
ما ترك السابق، وتستلزم هذه السدود وهذه السواقي عناية خاصة وخدمات
متواصلة يشارك في تأديتها سكان قبائل ميزاب بأجمعها، فلو انعدمت هذه السدود
من ميزاب وخاصة في المساحة التي يحتلها سكان القرى الخمس لكان ميزاب مرفقاً
واحداً جافاً.

وإذا التفطنا الآن إلى الحركة الزراعية لوجدنا فيها رغم صعوبة استهلاك المياه نفس النشاط، فمثلما كان سكان ميزاب الأوائل يحبون العيش في الأحياء والحدائق فاليزابيون قد ورثوا هذا الميل واحتفظوا به في قرارة أنفسهم فالكثير منهم يفعل قضاء فصل الصيف في الغابة³ والاعتناء في شغف بالأشجار القليلة التي تركها لهم أجدادهم، وكثيرا أولئك الذين يمضون أيام شيخوختهم⁴ بالغابة حتى يتعاطفوا أعمالاً خفيفة، وذلك مهما كانت ثروتهم ومهما كان مركزهم الاقتصادي والاجتماعي، فالغابة تقوم بقسطها في تغذية سكان المدينة بالحضر والتجارة.

وقد علينا أن لا ننسى عن القارئ أن طرق استغلال الأرض باهظة جداً، لأن كانت اليد العاملة موجودة بكثرة فإن الأرض المحصنة نادراً جداً، وأندر منها وجود الماء، وأن مصاريف نقله وجعله في متناول المزارعات المرتفعة بدرجة فاحشة سواء كانت طريقة غرف المياه من الآبار على النمط العتيق الذي ذكرناه أم على طريقة محطّات "المضخّات"، "ترومبات" وهي محطّات تتحرّك بالكهرباء أو للزيت ولا يقصر عليها سوى ذوي اليسر من الميزابيين، وعلى هذه الصفة تمسوا الآلة في الفلاحة فضلاً عن الأسعار المرتفعة التي تتطلبها استهلاك الكهرباء والمركبات اللازمة للمضخّات، وفضلاً كذلك عن عمق الآبار، ومهما تضاعفت الجهود اليدوية أو الآلة فليست تقيد كثيراً في حالة الحفاف التي نشاهد فيها الكثير من الآبار حافة أو هي تعطي كمية من الماء لا أهمية لها وعند ذلك تقلّ الزراعة، وأحياناً تنعدم وتضمحل ولا تملك إلا الأشجار التي تبذل أحياناً عندما تكون الحال صعبة مضيق. ولذلك فإن مشكلة الماء هي المشكلة العويصة لميزاب، فالميزابيون أخذوا في البحث عن الماء منذ أواخر القرن التاسع عشر، عليهم يتصلون إل إنفاد أشجارهم ومحصولاتهم الزراعية في فصل الحفاف، لكن البحوث إذّاك لم تثبتهم للشجوة إلا سنة 1938 عندما حفر أول بئر ارتوازي فكان عمقه 500 متر، غير أن هذا لم يتأكد بعد نتائجه لأنه باهظ جداً رغم ما حفر للتجربة على كفة ومن عرف، والعطش وتنشيط القرارة وبريان، واليوم لا يستعمل الميزابيون ماء هذه الآبار لارتفاعهم إذ يكثفهم مصاريف حفر باهظة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فشكل الأرض، ولهذا يجب أن نضع الماء على عمق 50 و60 و80 متر أحياناً الآن بلدة القرارة هي الوحيدة التي تنحصر فيها الماء لذلك تشاهد أفاق التمر والأزهار تتفتح أمام هذه القرية وسكنت تسم وسماء الشجيرة الخضراء الأطراف، وقد أنشئت الجوانب بئر كفة لتعطي المياه العذبة تحت الأرض والمحبوب

المركزي (REESA) وهي شركة اقتصادية متكونة من رؤوس أموال أجنبية
عامة، وهي تقوم بتوطيد وري ثلثي واحات ميزاب، وترضى على حد سواء
باجبات واحدة القارئة بأكملها و30% من حاجيات الواحات الأخرى التي لا
تجارية الري إلا بواسطة المضخات، ومن هذه المساعي الناجحة في أعمال الري
يقف سكان ميزاب من امتداد إنتاجهم حتى في فصول الجفاف، وبالرغم من كل
ما تقدم فإن مناظر الطبيعة بالشبكة محزنة، ونباتاتها وحشية، فلا تعترضك المناظر
الزكية، والنباتات المهدية إلا على ضفاف الوديان وأنواع النباتات التي تختص بقب
كل بؤل مطر قليلة أحيانا، وبقيت النباتات الضعيفة لا تصلح إلا لرعى الأغنام
القليلة، وتغزر النباتات خارج الشبكة وتسمح للأغنام الجهات الواقعة قرب
أضواء أن تقيم فيها لكثرة أمشاجها طيلة أيام فصلي الشتاء والربيع لكن حتى في
هذه الأماكن القليلة الفساد تحافظ الشجرة على انفرادها الملحوظ ولا تجعل مجموع
النباتات أشجارا أكثر دقة من شجرة العتاب، وتعترضك بعض "النوم" عند مرقد
الوديان الكثيرة الرطوية كوادى "النساء" مثلا ولا نستطيع أن نبدى في فلاحه
ميسراب حكما متفائلا أو متشائما ففسيات السكان الخاصة تعاكس تطبيق
قوانين الاقتصاد السياسي، فالواحات قليلة حقا إذا قارناها بعدد سكان ميزاب،
والسكان مرتفعة الأسعار لمن يريد أن يتخذ منها مستغلات مركزة، ولكن يغلب
المهاجرين على كل هذه المصاعب بالميل الشديد الذي يحتفظون به نحو أرض
ميزاب، فهو بمثابة عاطفة تدفعهم إلى إتقان أرباحهم على الدلاحة بما فيها من
بد عاملة، ومصاريف لاستعمال "المضخات الكهربائية" زد على ذلك المصاريف
التي تكلفهم استيراد السلع التي لا يمكنها من الخارج فكل ذلك ينتج عنه نخر
الإنتاج المحلي، لذلك فإن الفلاحه التي تحقق للإنسان القسم الأكبر من قوته، وتقدم

له حاجياته المختلفة غير قارة بل هي شبه قياس اجتماعي لا سلطان الاقتصاد
الرضعي عليها¹.

تربية الحيوانات:

إن كانت الفلاحة، رغم الصعوبات منها² هاماً للاقتصاد المحلي، فربية
الحيوانات لا تأتي إلا في الصف الأخير من أشغال المقيمين في المدن، فإن كل قصر
رأس، لأن سكان لا غنى لهم عن اللبن، يروح القطيع يتراوح بين المائة والمائتين
بعد 15 كلم ولا يرجع منها إلا في المساء حتى تأوي كل عزة إلى منزل سيدها
فقطم لها وجة أخرى إذ لا تكفي الحشائش الموجودة بهذه الأرض الفاحلة لإطعام
القطيع وتغليته، وهناك إلى جانب القطيع بعض الأحمر والبغال والجمال، وهي
العامل الأول البسيط الوفي المشجع للفلاحة والصالح للحمولات، إذ أن ضيق الحج
المدينة لا يسمح لأي تغير حديث أن يتم، وتستعمل الحمير والبغال للامتطاء حيث
يركبها السكان ليقتصدوا هذه المدينة أو تلك، أو ليفهوا إلى الحدائق والغابات،
وتحتوي تربية الحيوانات لميزاب على عدد أوفر من الدجاج، ولا تحتوي قطاً على
الأرانب مثلاً إذ أنها لا تتحمل حرارة الصيف، أما تربية الغنم فلا وجود لها في
الاقتصاد الحضري، فالبدو و"الشعابة" و"اللدايح" هم الوحيدون للغنم في ميزاب،
لكن قطعانهم قليلة جداً ولا تعد كثيراً³. فهذه القطعان القليلة لا تسمح للشعابة أن
يمشوا حياة البدو الحقيقية، ومن حاول أن يعيش منهم هذه الحياة أكله الفقر
والبؤس، وأما حياة الغابة ذات الصيغة التقليدية فقد أهدت تنعدم شيئاً فشيئاً، فإن
تربية المدة للحيوانات لا تنكس إلا بمحظمة عصرية⁴ يتركز نشاطها على نقل

1 - لم يلاحظ في هذا الموضوع الاجتماعي في جرمه، بل هو مجرد قياس اجتماعي لا سلطان للاقتصاد الرضعي عليها.
2 - لم يلاحظ في هذا الموضوع الاجتماعي في جرمه، بل هو مجرد قياس اجتماعي لا سلطان للاقتصاد الرضعي عليها.
3 - لم يلاحظ في هذا الموضوع الاجتماعي في جرمه، بل هو مجرد قياس اجتماعي لا سلطان للاقتصاد الرضعي عليها.
4 - لم يلاحظ في هذا الموضوع الاجتماعي في جرمه، بل هو مجرد قياس اجتماعي لا سلطان للاقتصاد الرضعي عليها.

السيارات، وعلى نقط الماء، وقد أخذ البدو يهجرون بواديهم ويتنصون بواحات
منجلي التي يملكونها، أو بواحات القصور الميزابية أو بالمدن حيث تناديهم اليد
لعائلة إما في مصالح البناء، وإما في أعمال النقل وإما في الأشغال العامة، ويرجع
أسل هذه الحركة الجارفة إلى اضمحلال الأشغال العامة بالبادية وإلى انعدام
محولات الجمال من واحة إلى أخرى، وقد عوضا نقل السيارات، وربما تحققت
أهداف البدو الذين يريدون أن يأخذوا قسطهم من الفلاحة بانفجار بشر "زلفانة"¹
الحديد الذي بفضل سبصر من السهل امتداد الزراعة والتشجير على آلاف
الكثارات من الأرض الثرية البكر، إن لم تعتمد يد الاستعمار لاحتكار استغلالها
وجعلها من نصيب المعمرين والمبشرين، وقد ابتدأت محاولات من هذا القبيل.

1 - لم يلاحظ في هذا الموضوع الاجتماعي في جرمه، بل هو مجرد قياس اجتماعي لا سلطان للاقتصاد الرضعي عليها.
2 - لم يلاحظ في هذا الموضوع الاجتماعي في جرمه، بل هو مجرد قياس اجتماعي لا سلطان للاقتصاد الرضعي عليها.
3 - لم يلاحظ في هذا الموضوع الاجتماعي في جرمه، بل هو مجرد قياس اجتماعي لا سلطان للاقتصاد الرضعي عليها.
4 - لم يلاحظ في هذا الموضوع الاجتماعي في جرمه، بل هو مجرد قياس اجتماعي لا سلطان للاقتصاد الرضعي عليها.

التي تحمل اليوم مركزاً ممتازاً وإن لم تؤسّس بطابع خاص، ولم يختص اليهود وحدهم هذه الصناعة كما كانوا يادئ الأمر بل قد شاركهم فيها الشبان الميزابيون وأظهروا براعة ممتازة في نقش الصواني¹ النحاسية والأباريق المنقّضة، وأغلب المقيمين على إنشاء متروحات النحاس بميزاب، السواح الأوروبيون.

صناعة الجلد:

يصنع في ميزاب نوع خاص من الجلد يسمى "الفيلاي" ومنه تستخرج البلاط وأحذية النساء، وهذه الصناعة مزاحمة لمتوححات جنوب السودان، ومهندفة كذلك ما يستورد من الأحذية الأوروبية، وإلى جانب الفيلاي توجد صناعة الدلاء والسفر التي يستعملها الميزابيون للسقاية والغرف.

الفخار:

تصنع منه في مدن ميزاب الجرار²، والخوي³، التي تستعمل لأدخار الماء أو الشر، ومنها ما يستعمل لأدخار الشحوم⁴، والزيت، والسمن، وليست هذه الصناعة أهميّة تذكر، وإن كان أسلوبها رائعاً جداً، ولقد اضمحلت أو تكاد، فهناك صانع واحد كافٍ لأن يجهر المسحّد كلّهُ، ويقوم بحاجيات البلاد⁵.

1 - جمع صيني
2 - جمع ميزاب
3 - جمع ميزاب
4 - الشحوم الطرية تشبه في استعمالها في بعض الأحيان في المطبخ
5 - الفخار لا يذوق في دواجنها معاً بل يذوقها في بعض الأحيان في المطبخ
6 - في بعض الأحيان يذوقها في دواجنها معاً بل يذوقها في المطبخ
7 - في بعض الأحيان يذوقها في دواجنها معاً بل يذوقها في المطبخ
8 - في بعض الأحيان يذوقها في دواجنها معاً بل يذوقها في المطبخ
9 - في بعض الأحيان يذوقها في دواجنها معاً بل يذوقها في المطبخ
10 - في بعض الأحيان يذوقها في دواجنها معاً بل يذوقها في المطبخ

الحلي:

هذه الصناعة كانت ولا تزال من خاصيات اليهود، وإن بدأ الميزابيون يحفلون بما لصنع هذه الحرفة يجهزون الوسط الإسلامي بما يحتاجه من مصوغ ذهباً وفضة.

المواصلات والنقل:

لقد تلبه الميزابيون إلى الوضع الجغرافي لميزاب، الذي يقع في شمالي الصحراء على خط الطول المار بالجزائر العاصمة والذي يقسم الصحراء إلى قسمين متعادلين، لكن كانت تدخلات الإنسان هنا أيضاً هي المهيمنة، وذلك لحلب القوافل التي كانت فيما مضى تطوف "الشبكة" ولا تستطيع المرور منها، وحذقت ما يحيط بالشبكة من أوكار، وقفزات وحجارة ناتئة، فالتقل كان يتضمن بواسطة الجمال التي تقطع طريقها في معالم حطّتها أرجل الجمال نفسها، أمّا حداة القوافل فكانوا غالباً من بدو "الشعامة" الذين يتعاملون مع نغار ميزاب، فكانت حين تلب من تخوم الصحراء تحط بغرداية حولتها من الذهب وعبيد السودان، والتمر، والخاء، وريش النعام، ثم هي بعد ذلك تنقل من غرداية حوليات من التمر عرض الشمال، لتعود من هناك متقلّة بالقمح والسكر والشاي، قافلة إلى الواحات القصية في جنوب الصحراء، فكانت غرداية محور هذه الحركة ومركزاً تجارياً عظيم الأهمية في القرن الخامس.

ولئن كان هذا النوع من التجارة موجوداً إلى الآن فإن وسائل النقل قد تغيرت كثيراً منذ أن عوّضت السيارة القوافل عام 1930، وبذلك حلت بأصحاب الجمال الكارثة العظمى إذ أصبح النقل من أعمال المقيمين. فالطريق الرئيسية هي التي تصل الشمال، وهي أهم طريق¹، تنهي إلى "مطار" وهي من الجزائر إلى غرداية لكل أنواع النقل على السيارة، لكن هذه الطريق تقصد نوعاً ما بين غرداية إلى القبولة² فعين صالح فتمارست³.

1 - الطريق الرئيسي وهو
2 - القبولة (El Oued) وتسمى الآن الشبوة
3 - تمارست وهذا من بينها الشبوة

الاقتصاد الإسلامي الجزائري خلال الحرب العالمية الأخيرة فقد نواظراً الاستعمار بالجزائر مع صناعته من غلاة الصهيونية على سبيل جميع طرق الاستيراد أمام التجار المسلمين، واحتكار "رخص الشراء" لانتعاش التجارة الأوروبية على العموم، والتجارة الإسرائيلية على الخصوص، حيث كان أرباب هذه التجارة - في جميع الميادين - هم المسيطرون على مصالحها وإدارتها من رؤساء إلى أبسط كاتب، فانحصرت التجارة الإسلامية في مضيق لا تكاد تنفس منه إلا بمقدار، وإذا ما قدر لبعض التجار المسلمين أن يبرزوا فعلى حساب "البقيش" المحترم، الذي كان الشئ الوحيد المسموع الكلمة، التأخذ الإرادة، أو على حساب بعض الضمائر التي كانت سهامها مرتفعة في بعض الأسواق.

ولم يكن هذا النوع في "الحيف والميز" بالنسبة للمسلمين خاصاً بالتجار فقط، بل كان يطق في أقصى صوره وأفظع معانيه على جميع المستهلكين منهم، فإن "رفع التوزيع" التي كانت تغدق بدون حساب على السكان الأوروبيين فتسرب لسرايب السوق السوداء، كانت تقتر على المسلمين تقترراً قاحلاً بعدما يختلس الكتاب والمحسنون منها لغنيهم الموفور.

ولم يقتصر هذا الظلم المتأخر على الذين يمشون على الأرض من المسلمين بل سقهم إلى الأسم في بطون أمهالها، إذ يكفي أن تدلي الحامل الغير المسلمة بشهادة الحمل لتأخذ قسطها وقسط مولودها المنتظر في اللبس والغذاء، بينما لا يسمح للحامل المسلمة بأخذ شيء من ذلك حتى تضع حملها، وما يدريك لعل المولود لا يكون بشراً !!!

وإذا كتب الله السلامة والعافية بعد كل هذه الإهانات للتاجر أو المستهلك المسلم، فما كان له أن ينحو من يد "شرطة المراقبة" التي كانت جدياً حريصة على تطبيق سياسة الامتناع والاستواء والتفكير، حرماً تركها نظار المسلم في دكانه وفي عقر بيته أنه الليل والنهار، وتلاصقه بأساليب وحشية من

حرب وتطليب وترويع، وسواء كان أتما أو بريثا، فهو "المذنب رغم أنه" ولا ينال له في إحدى ثلاث: البقيش الباهض مالا، أو الغرامة الفادحة أرتجالا، أو السجن حالاً.

ومن الديهي، وقد أصبح التاجر المسلم بعد الحرب يتطلع إلى الشراء في المصانع الأوروبية مباشرة ويهتم بتجارة الجملة والتكثف في نطاق شركات، أن يكون التاجر الإسرائيليون ألبا عليه مع الاستعمار، دفاعاً عن غريزة الاستغلال الضرورية فيهم إذ يشعرون أن البقرة الحلوب الضاحكة قد انقلبت عابسة نائرة تلعب للانقلابات والانعقالات وأن التاجر الجزائري المسلم تعلم أن يقطع البحر إلى أوروبا وأن يتحرر من المحر والوصاية الإسرائيلية التي كانت تفرضها عليه عزله وانعزاله ومركبات النقص التي ركزها فيها الاستعمار الغاشم.

فأسست شركات جزائرية ضخمة كان الميزابيون من طلائعها في سائر أنواع التجارة من أقمشة ومواد غذائية وماعون، وحمامات عصرية، وشركات سينمائية، ومصالح النقل، وتقدم شبابهم إلى ميدان التجارة التي كانت من اختصاصات اليهود وبعض الفرنسيين، فظموا مكاتب على الأساليب الحديثة، ورمطوا أوثق الصلات بمعامل ومصانع أوروبا وأمريكا.

وتفرغ نشاطهم إلى ميدان الحرف والصناعة، فأنشؤا مشاريع ضخمة للنساء والتجارة، ومصانع محترمة للعطر، والصابون، والخنا، والغسول المائي، والحل وصناعة التحسس.

وهذه النهضة الاقتصادية التي قام بها الجزائريون عموماً والميزابيون منهم خصوصاً وساروا فيها بأقدام ثابته وحطوات موققة أثارت عليهم حفاظ مستعظمهم بالأمس من الإسرائيليين فأعلنوها حرماً عروفاً بشق الوسائل، فمن حالات الأراحيق، وإدخال الزيت والشكوك لدى المصانع، إلى دسائس ومكائد في البنوك

ويشعهم مقابل إدارتها - إلى وشايات مصلحة الغرائم^١، وبوليس الرقابة المردودة، وما كانت كل هذه المؤامرات المنظمة، لتتال من عزائم أولئك التجار الذين لا يعتبرون الثبات في مراكزهم مصلحة تجارية فقط وإنما يرونه واجباً تدفعهم للقيام به إرادتهم الصادقة في التحرر والانطلاق من أغلال العبودية الاقتصادية، وبراكين السحر والاستغلال، تُشعلهم على هذه المصاهرة عقيدة الشعب الجزائري الواعي في وجوب التكافل والتضامن، والتفضيل.

وكان الاستعمار يستغل هذا الحقد الدفين ليحمل من بني إسرائيل الشرارة الأولى لإضرار غيب الفتنة العنصرية، والمنهجية بين طبقات الشعب الجزائري العربي المسلم وإشاعة القطيعة والخفاء بين أبنائه، حتى يتلهى الشعب المجاهد عن كفاحه بفتنة داخلية، قد تجره للهزيمة لو لم يتفطن لعواقبها فيقضي عليها في مهدها.

ملحق

نص الاحتجاج الذي وجهه الميزابيون إلى الباب العالي حينما حاولت السلطة التركية المركزية بالجزائر رفع الغرامة التي كان معمولاً بها مع الميزابيين، يطلع النظر عن أسلوبها التقليدي الذي أصبح في هذا العصر مرغوباً فيه، ليس يهتنا إلا الجانب التاريخي، وهذا نص الرسالة بعد البسطة والعقدة:

وبعد، فإن سلطان سلاطين الإسلام، والمالك رقاب الأنام ظلّ الله سبحانه على جميع العالمين وركن شديد للإسلام والمسلمين، وحصن منيع يلجئون إليه عند كل ملتم، وملجأ رفيع يأوون إليه عند كلّ مهم، السلطان الأعظم، والكهرمان الأكرم، ذي الحضرة العلية والطلعة السنّة الحائز قصب السبق في مضمار الأمانة، والشهد مدارج الدولة السلطانية على ممر الأزمان، نعتي بذلك من اسمه مشتق من الجميع والبهاء ومحاسنه موقونة بنحم السماء، سيّدنا ومولانا "الحسن الجليل التولائي الباشا المرضي، حسن الله آيامه وأعلى مقامه وحلّد ملكه:

مولى ملوك الأرض من في وجهه	مقياس نور آيامه مقياس
بدر محيّا وجهه الأمن لنا	مغن عن القمرين والشمس
من أسرة شرفت وطابت واعتلت	من أن يقاس علاؤها بياس
ورثوا الخلافة كابراً عن كابر	بصحيح إسناد بلا إياس
فسروى على عن رسول مثلهما	بروي عن الفاروق ربّ الياس

سلام الله سبحانه عليك بعد بعد ألف ثناء وثنية وإكرام، تحضنك ويعمّ من كان تحت لوائك وعزّك من الحكّام والولاة والوزراء الذين هم أسود الله في أرضه، من المسلمون عليك "عظامك" جموع بني ميزاب، المشتكون إليك ما أنزلهم وحلّ بسماهم من الأمور الصّعاب، التي لا طاقة لهم عليها بلا سبب من الأسباب.

وهي أنك تريد أن تضرب عليهم الغرامة المالية على يد صاحب الولاية الشرقية على غير ما كنا عليه في القلم، وتريد أن تبدل أحوالهم المسطرة من الأسلاف والأجداد في الديوان مع ما هم فيه في الصحراء القاحلة مما لا يطاق وصفه ولا يحصى عدته من تحمل المشقات والأتعاب والحشرات التي تطوق كواهلهم. وهذه الصحراء قد جرّتها الملوك العظام والسلاطين الجسام فسلموها لهم في السابعة والخمسين، وهربوا منها على رؤوس الأنجاد في العالمين.

فانظر يا مولانا في هذا الأمر والشأن، وتنبّر بعين البصيرة والحنان، وفي عاقبة حكمتك وفواعلهم إتقاناً وإبراماً، وتنبّر في الداني والقاصي، وتأخذ الحق من المطيع والعاصي. ونصت لكلام المتظلمين، وترعى في رعيتك و"أصدقائك" حقوق ربّ المؤمنين. فإنّ هذا منكم لا نريدكم إلّا شرفاً وتعظيماً وعبّة ونكرتاً. فإنّ تبدل الأمور ليس من شيمكم، وتغيير الأحوال ليس من طبيعتكم، بل شتمكم الضبط والإحكام، وعادتكم الإنفاق والإبرام والحدّ فيما فيه صلاح الإسلام اقتداءً ببيتنا محمد عليه الصلاة والسلام.

على أنّ في ظنّ بني ميزاب واعتقادهم (المساوي لاعتقاد العسكر الأسياب) أنّ ما سمعوه عنكم لا يمكن ولا يقع، فكيف يكون ذلك وأنهم تلافوا مع عسكر الترك الأعلى في يوم واحد على العلن، وعقدوا نيّة واحدة وأخلصوا طويّة واحدة، ورسخوا ذلك في القنطرة والديوان وسطّروه على نهر الأهر والأرمان، خلفاً عن سلف، صيانة عن تلف.

فإذ قلت يا مولانا لا بدّ من هذا فإنّ نطلب منك حينئذ أن تسرّح أولادنا المتعطلين بلاد الحرار بالأمان العاملين منها بالإحسان أن يذهبوا إلى ما يختارونه من البلدان، وأرض الله واسعة ما دام الزمان.

صحت لمن يعين بنو ميزاب
والسلام عليكم مولانا، ورحمة الله

هذه الوثيقة التاريخية تنقسم بالطابع الدبلوماسي الذي تنقسم به عادة مذكرات الاحتجاج للنبالة بين دول يربطها التكافل السياسي والتبعية التحالفية في دائرة احترام السيادة، فنلاحظ فيها إلى جانب المحاملة المتأهية لنا في شدة وشدة في لين ونفخ في حالتها على تمديد صريح يقطع العلاقات الدبلوماسية والمعاملات الاقتصادية وفي هذا يتعلّق لنا نوع الترابط السياسي والاقتصادي الذي كان يجري به العمل في ذلك العهد بين الميزابيين والأتراك. وهذه وثيقة أخرى يهدد بها المنعم صالح باي أهالي "ورقلة" التابعين لميزاب، وقد تعمّدوا الخيث من العيد حين دفعوا الغرامة المضروبة عليهم وهذا نصّها:

حفظ الله تعالى بمتته، ولم يجعل سوء ذات المكرم أحمدا شيخ ورقلة وكافة الجماعة، أسعدهم الله بمتته وكرمه، آمين.

السلام عليكم ورحمته تعالى وبركاته ورضوانه العميم وتجنّته، وبعد،

فقد ورد علينا المكرم قائد المدينة وأثانا بالعيد الذين دفعتم له هديّة وذكر لنا أنّكم دفعتم أربعة رؤوس من العيد، واحدة عائبة، وأخرى عحوز، والأخرى طرشة، والأخرى عمشة.

وأيضاً لم نجعلوا له حرمة، وتعطوه عوائده ولا عوائد الخدّامة، وقد خرجتم عن الحدّ والآن هاهو المكرم ابننا السيد أحمد قائد المدينة قادم إليكم لمكتوبه من العيد، وخبروا له أحسن العيد، وأعطوه فوائده وفوائده من معه، وإن امتنعتم عن ذلك أو نقصتم له شيئاً من فوائده فلا تلوموا إلّا أنفسكم والسلام.

فنلاحظ جلياً كيف حتى الغرامة هدية ثم حتم رساله بالتهديد وقموى هذا التهديد هو احتلال ورقلة والاستيلاء عليها بعد ما كانت تتمتع بكاملها الشخص حتى المجموعة الميزابية وليسنا ندرى ماذا كان جواب أهل ورقلة على هذا التهديد.

تاريخ المقاومة الجزائرية

13
19
19
23
27
28
30
32
34
35
35
36
36
36
37
38
40
42
44
47
48
49
51
53
56

تاريخ الصحافة العربية بالجزائر

63

73

75

الفصل الأول

79

79

80

81

81

83

83

84

85

86

87

الفصل الثاني

91

91

92

92

93

93

94

96

96

96

97

97

97

تاريخ الصحافة العربية في الجزائر
مراحل الصحافة العربية في الجزائر
أهداف السياسة الفرنسية
في ذكرى الفصل الأول
أولا - حرية النشر
ثانيا - حرية التصريح
ثالثا - حرية الحق في العمل
رابعا - حرية الأحياء
خامسا - حرية تكوين إقليمية
سادسا - حرية التعبير
سابعا - حرية الإحياء

صحافة المقاومة القومية في الجزائر
في مرحلة الاحتلال
أشكال المقاومة السياسية
الدور السياسي
الدور الأول الإيجابي
جندل حركة
قانون الصحافة
في ذكرى صحف المرحلة الثانية
أولا - حرية النشر
ثانيا - حرية التجميع
ثالثا - حرية الإصدار
رابعا - حرية التوزيع
خامسا - حرية النشر

98

98

99

99

103

104

105

105

106

106

107

108

109

109

109

الفصل الثالث

113

113

114

115

116

119

121

123

الفصل الرابع

135

135

138

139

141

145

مركبة الصحافة الإصلاحية
الطلاق الحركة الإصلاحية
نادي الترقى
لحم شمال إفريقيا
جمعية العلماء ابن باديس
حرية المظهر
حرية الشهادة
حركة الشهادة

حركة الشهادة ومركبة الانتماء
صور صادقة عن حركة جيل
ثم يقول الشيخ محمد العاصمي
نادي الترقى في قضية العقدي زكرياء
الشهاد وموقفها من التحسين
الشهاد والخمسة ضد الإجماع

أهواء على واد ميزاب

207
211
215
216
216
221
222
226
228
232
233
234
238
239
244
246
249
253
257
260
262
264
266
267
269
272
276
282
282

150
153

الفصل الخامس

157
157
157
159
160
164

الفصل السادس

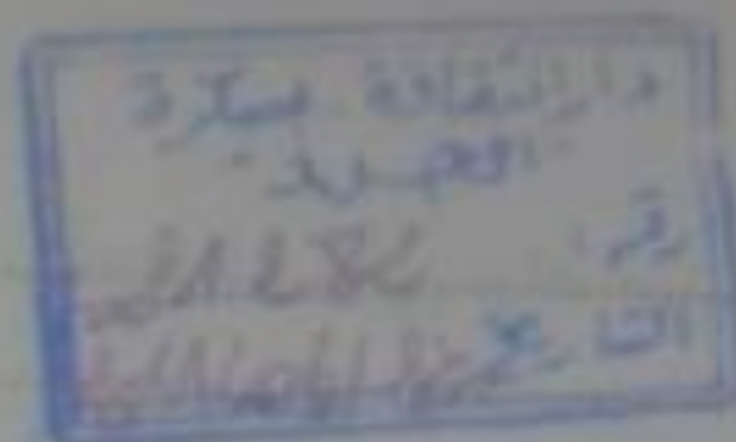
171
171
172
173
174
176

الفصل السابع

183
183
184
184
186
187

الفصل الثامن

193
193
194



288	الثقافة الاجتماعية
294	نظام الأسرة الجزائرية
299	الاقتصاد الاجتماعي بولاية ميزاب
299	أسواق ميزاب
301	التجارة بميزاب
304	الطهارة الريفي في أحياء الأرياض
308	تربية الحيوانات
310	التحريم والحرف
310	حرف الاستخراج
310	الصناعة وحرفة البناء
311	صناعة النحاس
312	صناعة الخشب
312	التجارة
313	الحلوى
313	التواصلات والنقل
314	التجارة
315	الاقتصاد الريفي خارج ميزاب
319	ملحق
323	معرض

طبع بالمعصرة الوطنية للكتاب المطبعة

وحدة الوثائق الجزائر

2007

Rechevé d'imprimer sur les Presses

ENAG, Algérie

- Algérie -

Dep. 75 Z.L. Algérie

Tel. 021 84 80 1004 80 11



مُؤَدِّي تَرْكِيَاء

(الزُّنُورِي)

شَاعِرُ السُّورَةِ الْحَرَاثِيَّةِ



مَا يُمْكِنُ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ فِي أَوَّلِ رَحْلَةٍ هِيَ أَنَّ
الْمَوَاضِيعَ الَّتِي عَالَجَهَا مُؤَدِّي تَرْكِيَاءَ فِي هَذِهِ
الْحَقِيقَةِ الْإِذَاعِيَّةِ تُعَبِّرُ بِوُضُوحٍ عَنِ التِّزَامِ صَاحِبِ
"قَسَمَا" وَعَنْ أُبْرَزِ أَهْمِيَّاتِهِ الشَّخْصِيَّةِ وَكَانَ
لِكُلِّ مَن "تَارِيخُ الْمَقَاوِمَةِ الْجَزَائِرِيَّةِ" وَ"تَارِيخُ
الضَّحَاةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْجَزَائِرِ" وَأُصَوِّدُ
عَلَى وَادِي مِيْزَابٍ "إِرْتِبَاطٌ وَثِيقٌ بِحَيَاةِ الْمُؤَلَّفِ
وَمَرْجِعِيَّاتِهِ وَنَفْسًا لَاتِهِ.

